

تربية
العقل النقدي
جولي بوجارت

♦ المؤلف: جولي بوجارت

♦ العنوان: تربية العقل النقدي - دليل الآباء لتنشئة أطفال ذوي حكمة في العصر الرقمي

♦ ترجمة: زهراء أحمد

♦ الطبعة: الأولى 2025

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٤ / ٨٩٨٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 411 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني - الدور السادس - متفرع من ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

f afaqcairo @ afaqcairo afaqcairoplsh

جولي بوجارت

تربية العقل النقدي

دليل الآباء لتنشئة أطفال
ذوي حكمة في العصر الرقمي

ترجمة
زهراء أحمد

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

Raising Critical Thinker

By: Julie Bogart

All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form.
This edition published by arrangement with TarcherPerigee, an imprint of Penguin Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2024

إشادة بكتاب تربية العقل النقدي

«في عالمٍ يعتقد فيه كثير من الناس أنهم يعرفون ما لا يعرفونه في الحقيقة، لا يوجد كثير من المهارات التي لها نفس أهمية التفكير النقدي ومراجعة التفكير، هذا هو الدليل الذي يحتاج إليه الآباء ليعلموا أبناءهم كيف يصبحون مستهلكين حكماء للمعلومات».

آدم جرانت، الكاتب رقم واحد بين كُتّاب نيويورك
تايمز الأكثر مبيعاً، صاحب كتاب «فكر مجدداً»

«التفكير النقدي ليس مجرد اختبارٍ يكشف ما هو الحقيقي وما هو المختلق، في هذا الكتاب التمهيدي الذي يأتي في الوقت المناسب والقابل للتنفيذ، تُعلّمنا جولي بوجارت كيف أن الخيال والوعي الذاتي والتعاطف والتأمل يجعلون التفكير النقدي الحقيقي ممكناً، هذه دروس محورية للآباء والأبناء على حدٍّ سواء».

زيمينا فيجنشويا، مؤلفة كتاب «أنصت كما لو كنت
تعني هذا»

«أنا في ذهولٍ، يحتاج كل والد ومعلم إلى قراءة هذا الكتاب، بصفتي طبيبة نفسية وأمّاً، أفهم أهمية تربية

المفكرين الناقدين، لكن بما أنه ليس من الواضح دائماً ما يعنيه ذلك حقاً يوماً بعد يوم، فإن الكتاب يستخدم أحدث النظريات التربوية والممارسات الملموسة للإجابة عن أسئلة، مثل: كيف نساعد الأطفال على فصل الحقيقة عن الخيال؟ ما الذي يمكننا فعله للحفاظ على فضول الأطفال وعلى رغبتهم في التعلم إلى مدى الحياة؟ ما الذي يعزز الوعي الذاتي والمرونة في تكوين وجهات النظر لدى الأطفال؟ دَع جولي بوجارت تقودك خلال الرحلة الجامحة لتربية العقل النقدي».

ديانا هيل، مؤلفة «الدفتر اليومي آكت»

«من خلال الأمثلة الرائعة والأنشطة المفصلة لكل مرحلة عمرية لمساعدة الأطفال على التفكير بعمق وإبداع وتفهم، تقدّم لنا جولي بوجارت دليلاً لتغذية التفكير النقدي في الجيل القادم».

يائيل شونبرون، أستاذ مساعد في الطب النفسي والسلوك البشري في جامعة براون

«أعجبت لعقود من الزمان بمساعدة جولي بوجارت الحكيمة والإنسانية للآباء الذين يشاركون في تعليم أطفالهم».

بيتر إلبو، أستاذ فخري للغة الإنجليزية، جامعة ماساتشوستس في أمهيرست

المحتويات

١١	- مقدمة باربرا أوكلي
١٥	- مقدمة الكاتبة
٢٥	الجزء الأول - من المفكر الناقد؟
٢٩	الفصل الأول: ومن قال هذا؟!
٥١	الفصل الثاني: فصل الحقائق عما حولها من روايات
	الفصل الثالث: مزيد من إثارة الفضول -
٧٩	التعليم المؤطر للمشكلة
١١١	الفصل الرابع: المراقبة الدقيقة - عبر الزجاج البلّوري
١٣٩	الفصل الخامس: التفكير النقدي يبدأ بالاهتمام
١٧١	الفصل السادس: الهوية - القوة الجديرة بالاعتماد عليها
١٩٧	الجزء الثاني - اقرأ، جرّب، واجه: التعلّم الحقيقي
١٠٣	الفصل السابع: القراءة بقربٍ وذاتية
٢٣٧	الفصل الثامن: القراءة - تحرّك ببطء لكي تصل إلى الأعماق
٢٦١	الفصل التاسع: التجربة - دخول منطقة أكثر حميمية

٢٩١	الفصل العاشر: المواجهة - أن تراوغ المراوغة
٣١٩	الجزء الثالث - الخيال البلاغي
	الفصل الحادي عشر: الدور المفاجئ للوعي الذاتي
٣٢٧	في التفكير النقدي
٣٦١	الفصل الثاني عشر: فن التأويل
٣٨٥	الفصل الثالث عشر: شجاعة تغيير رأيك
٣٩٥	شكر وتقدير

في ذكرى خالتي جون

«حياة واحدة، نحن فيها لا نشبه بعضنا، لكن كلاً منا
بإستطاعته حمل الآخر»

من أغنية لفرقة بونو

مقدمة باربرا أوكلي

سُئِلْتُ ذات مرة في أثناء عملي على تحضير مساق جامعي عما إذا كنت سأجعله يتضمن تعليم التفكير النقدي أم لا، فجاوبت قائلة: «هذا يعتمد بالأساس على ما هو تعريفكم للتفكير النقدي». واتضح من هذا أن الجامعة لم يكن لديها تعريفٌ محددٌ للمفهوم، كما أن مراجعتي لجميع المساقات المخصّصة لتعليمه في تلك الجامعة كشفت لي أن «التفكير النقدي» عندهم لم يكن يعني سوى ما يريد أحدهم، أيّا كان، للمفهوم أن يعنيه.

ولهذا، فهذه الجامعة، بالإضافة إلى كثير من المعاهد الكبرى في دولتنا، وبالإضافة إليك أنت بالذات أيها القارئ، في حاجة حقيقية إلى الكتاب الذي ألّفته جولي بوجارت.

«تربية العقل النقدي» هو كتاب يمنح أدواتٍ تساعد على الوعي بالذات، أدوات ستساعدك أنت وأبناءك أن تتبهاوا لأنفسكم حين تجدونها واقعة تحت سيطرة افتراضات تتصدى خفيةً لقدرتكم على التفكير بعقلانية ووضوح. هذه الافتراضات الخفية دائماً ما تكون السبب الذي يجعل كثيراً من العلماء المحايدون يميلون بما يظنونونه

«حيادية» ناحية الجانب الداعم لانحيازاتهم السابقة، مهما وُوجهوا بما ينافي ذلك من أدلة واستنتاجات. ودائمًا كذلك ما تكون السبب الذي يشكّل صعوبة اتخاذ بضع خطوات إلى الخلف، والنظر بترؤ إلى أي قرار قبل اتخاذه سواء عند القضاة أو السياسيين أو المديرين، أو عند أي أحد في الواقع.

بدأنا نحصل من علم الأعصاب على إمكانية تتبّع من أين تنشأ هذه الافتراضات، ووصلنا إلى أنها تبدأ مما يمكن تسميته بـ«نظام التعلم الإجرائي غير الواعي بالعقل». وهو نظامٌ يحدّد ويشكّل أنماطًا معينة للتفكير، وأهم ما يفعله أيضًا هو أنه يُصدر الأحكام. وهذه الأحكام التي من الممكن أن نطلق عليها «نتاج دالة الهدف» تتسلل في الخفاء داخل كل ما نعتقد به بصدق، وداخل كل قراراتك التي قد تقسم على أنها قرارات واعية وموضوعية بالكامل.

محاولة الكشف عن هذه الافتراضات المخفية قد تكون بصعوبة القيام بشيء خارق للطبيعة، وربما لهذا لا تتعمّق معظم كتب التفكير النقدي داخل ما يتعلّق بالانحيازات السابقة، وبدلاً من هذا تُركّز على ما يتعلّق بكيفية صقل حجّتك الخاصة، كأن تحاول تعليمك كيف تكتسب المرونة لتغيير رأيك إن قوبلت بحجج أكثر منطقية. وفي حالات أخرى قد تركّز على مناقشة الطرائق الموضوعية لتقييم المعطيات، من دون أن تتطرق إلى مناقشة كيف قد يخدع العقل نفسه ليبرر التعامي عما هو واضح تمامًا من المعطيات. في أغلب الحالات تركّز كتب التفكير النقدي الموجهة إلى الأطفال على تعليمهم كيف يكشفون الانحياز في

عالمهم الخارجي، من دون أن تعلّمهم أي مهارات لازمة لتحري ما عندهم هم من انحيازات.

تتطرق جولي إلى التفكير النقدي بطريقة جديدة كلياً، تماماً كلاعب بوكر محترف لا توجّه بصرها فقط ناحية الأوراق الملعب، لكن أيضاً ناحية ما تُفشي به حركات الأجساد كردود أفعال على هذه الأوراق، ربما لن تتمكّن مباشرة من رؤية كيف يؤثر النظام اللا واعي بالعقل في إجراءات التفكير، لكنك ستقدر على رؤية ما قد يخلّفه من آثار جانبية. وهذه الانفعالات الجسدية، وما حولها من أنماط واضحة في التفكير، هما اللتان ستقوداننا داخل درجاتٍ أعمق من الفهم الصادق لكل المحيطين بنا ولأنفسنا، واكتسابك لهذا الوعي بالذات هو ما سيساعدك في رحلة إرشاد أبنائك لاكتسابه بالتبعية.

هل من الممكن أن تعيد تدريب نظام التفكير الإجرائي ذي الانحيازات داخل عقلك ليصبح أكثر مرونة وأقل انغلاقاً على نفسه؟ جولي جاءت لتتولّى معك هذه المهمة، وتقتراح تحديداً أن تقرأ كثيراً من الهرطقات المضادة لرؤيتك للعالم، وهذا قطعاً ما يقترحه أيضاً علم الأعصاب، وهو ما لا يختلف كثيراً عن تدريب برنامج ذكاء اصطناعي على لعب الشطرنج بمهارة أكبر، عن طريق إعطائه مزيداً من المعطيات ليلعب على أساسها.

ستُرشدك جولي أيضاً فيما يخصّ كيفية خلق مساحة داخل عقلك لوجهات النظر المتعارضة، لذا يمكن ببساطة القول إن هذا الكتاب قد يعمل كدواءٍ لمشكلات البيئة الاجتماعية المستمرة في الخلاف التي

نجد أنفسنا نعيش فيها. كما أن هذا الكتاب ممتلئ بالأنشطة التي يمكن أن تلعبها مع عائلتك، والتي تتضمن التفكير بصورة نقدية في موضوعات كالقواعد النحوية والكتب المصورة وألعاب الفيديو والرياضة.

وكما تقول جولي: «معرفة كيفية تكوين رأي سليم وغير متأثر بأي كبرياء أو انحياز هي أحد أهم الأهداف الأساسية للتعليم، وأيضًا لهذا الكتاب»، لهذا أكمل القراءة واستمتع بهذا الدليل المدهش الذي سيعلمك كيف توجه نفسك وتوجه أحياءك من الأطفال ناحية حياة من التبصر الصادق والعميق.

مقدمة

«إنه يحبني بعنف يا أمي!».

ماري، من فيلم «إنها حياة رائعة» (It's a wonderful life)

نزلت إلى جانب صناديق الرسائل المفتوحة الخاصة بجدي وجدتي، والمبعثرة على سجاد غرفة المعيشة، تصفّحت سريعاً مع خالتيّ الاثنتين كل رسالة لنقرر أيها سنحتفظ بها وأيها سنتخلص منها، كان جدي العزيز قد مات وزوجته عاشت بعده لكنها عانت من الخرف. فتحت أحد الصناديق حديثة العمر نسيئاً، والتي كانت قد كُتبت خلال السنة الأخيرة، من دون طوابع. سحبت الصفحات الرقيقة من أظرفها غير المقفلة لأكتشف أنها رسائل حبٍّ غير مرسلة من جدي إلى زوجته من بعد عامهم الستين. كانت إيفا قد فقدت قدرتها على التحدُّث بشكلٍ سليمٍ، وكانت قد نسيت اسمها، اعتصر قلبي ألماً حين تخيلت جدي يكتب للمرأة التي أحبها لعقودٍ منتظراً منها أن تفهم، وهو يعلم أنها لن تستطيع قراءة كلمة واحدة. خط جدي الجميل صنع فقرات من الذكريات، كتب فيها: «إيفا، تتذكرين حين تسلّقنا قمة التلة الصغيرة معاً، حين مارست الحب معكِ لأول مرة؟».

فُغر فمي من الدهول؛ جدي الكاثوليكي يتحدث عن علاقته
الغرامية مع جدتي في الثلاثينيات قبل أن يتزوجا. أوقفتُ خالتيّ الاثنتين
عما كانتا تفعلان، «جون، شيفوان، استمعا إلى هذا!».

قرأتُ الفقرة جهرياً، لأجد خالتي الأصغر شيفوان تصيح قائلة:
«ورغم ذلك كانا يعطيانني محاضرات عن قداسة المحافظة على
عذريتي قبل الزواج، ما خطب ذلك؟».

خالتي الأخرى الأكثر جدية والأكبر سنًا، أستاذة الدين والأخلاقيات
والراهبة السابقة، أوقفت ضحكنا المتعالية في الحال قائلة: «هذا لا
يمكن أن يعني ما تظنان أنه يعني!». وتجنّبت أن تقول الكلمات وأنا لم
أتجنّب: «هل تعين الجنس؟ بربك يا جون! تخيلي إيفا وفيل ينتزّهان
على التلة حيث صرّحا بحبّهما لبعض لأول مرة، كم هذا مشهورومانسي
ورائع!»، مازحتها لألطف الأجواء.

لم تضحك، لكنّ شيفوان ضحكت بصوتٍ أعلى، بعد لحظة
ابتسمت جون ابتسامة بسيطة واضحة في اعتبارها الاحتمال الرهيب بأن
والديها مارسا الجنس قبل الزواج، وبهدوءٍ طلبت منّا أن نهذا، وأن لدينا
عملاً لننجزه، سمحت لنفسها باحتمالية تصديق تأويلي، للحظة من
الدهشة، لكن لم يكن ذاك ليلهيها عن مهامها.

استمتعت بهذه اللحظة الكوميديّة المرتجلة، أعرف مدى تعقيد
الأفكار المتصارعة، في الثلاثينيات كان «أن تمارس الحب» مع شخصٍ
ما معناه أن تعبّر عن مشاعرك للمرأة التي تحلم بها، لم يكن هذا معناه
ممارسة الجنس كما يعنيه اليوم. لكن هذه الرسالة وضعنا في منطقة

مثيرة للحيرة، لم يكتب جدي هذه الرسالة سنة ١٩٣٧، لقد كتبها سنة ١٩٩٧ مسترجعاً ذكرى من الثلاثينيات لكنه سجّلها في ضوء نهايات القرن العشرين. بالتأكيد كان يعلم الأزمنة المتغيرة والطريقة التي غيّرت بها التلميحات الجنسية معنى هاتين الكلمتين. لكن ربما كان يسترجع معنى قديماً عن عمدٍ، هل استخدم لغة الزمن القديم تلك ليساعد عقل زوجته المرتبك على استرجاع زمن أجمل من حياتها، أم أنه كان يعبر عن نوستالجيا ذكرياته القديمة مستخدماً مصطلحات اليوم، أم هل عثرنا على اعترافٍ على سرير الموت، وفضيحة احتفظ بها حتى يوم وفاته، أنه وإيفا، الكاثوليكين المخلصين، كانا عاشقين قبل الزواج؟

أرادت خالتي جون أن يكون والداها كاثوليكين مخلصين طوال حياتهما، لكن خالتي الأصغر شيفوان أرادت أن تراهما متمردين، كاشفين عن استعدادية مخبأة لزمن طويل أن يضعا قيمهما الشخصية قبل عقائد الكنيسة. كلا هذين التأويلين كان يناسب شخصيتي خالتي، ولم تكن له علاقة مباشرة بجدي، لكن كانت له علاقة بالقصة التي تودان إخبار نفسيهما بها. لاحقاً -في نهاية هذا الأسبوع- فاجأت أُمي بأن هناك احتمالاً أن والديها الكاثوليكين قد يكونان مارسا الجنس قبل الزواج، ضحكت وتجاهلت هذه الفكرة واعتبرتها سخيفة؛ ذكريات نشأتها مع هذين الوالدين شكّلت ما يمكن أن تصدقه، لا رسائل قد تغيّر ما تعرفه عن والديها.

بالأحرى أنت تتساءل: من معه الحقيقة؟ وهذا هو أساس التفكير النقدي هنا. نحن نأخذ البيانات والتجارب واللغة والذكريات ونخلطها

معاً لنكوّن الآراء، في هذه الحالة، عائلتي لم تتفق قط على تعريف واحد لمصطلح «ممارسة الحب» كما كُتب في الرسالة، وجدي مات، وأبنا كان المعنى فقد مات معه، ستبقى رسائل الحب كلغزٍ شهّي، وأحد التناقضات المبهجة لهذه التأويلات المتعارضة تذكّرني بأن التفكير النقدي لا يؤدي دائماً إلى استنتاجات قاطعة.

القدرة على تقييم الأدلة، وملاحظة الانحيازات حين تشق طريقها إلى التفكير في وجهات النظر المتعددة (حتى وإن جعلتك تشعر بعدم راحة)، ومن ثمّ للوصول إلى استنتاجٍ ما، تصدق أنه صحيح الآن، هو قلب مهمة التفكير النقدي، إنها مهمة شاقة وصعبة في القيام بها مع عائلتك بسبب أن قيّم طفولتك غالباً ما تكون مألوفة لهم، إلى درجة أنه لم يعد حتى في الإمكان ملاحظتها.

التفكير النقدي هو أكثر من مجرد انتقاد أفكار شخص آخر، إنه القدرة على مساءلة أفكارك أنت أيضاً. في مجال النشر لدينا تعبيرٌ شهير: «المحتوى هو الملك»، في المجال الأكاديمي أحب شعاراً آخر: «السياق هو كل شيء»، ماذا تعرف؟ كيف تعرفه؟ لماذا تعرفه؟ ما الذي لا تعرفه؟ لماذا لا تعرفه؟ هذه العوامل غير المرئية تشكّل ما نفهمه تحت الشمس. في هذا الكتاب سنستكشف كيف يصنع أطفالك المعنى لأنفسهم، وكيف يطوّرون جودة تقييماتهم.

يقيّم الأطفال كل يوم الأدلة، ويكوّنون المعتقدات سواء كانوا واعين بذلك أم لا، سيفكرون مجدداً وسيستبعدون بعضاً مما آمنوا به في السنين اللاحقة، طريقة تفكيرهم ستكون مسؤولة عن وجهات نظرهم

الدينية وغير الدينية، يومًا ما ستكون عندهم توجُّهات سياسية، ربما يغيِّرونها في سنواتٍ لاحقةٍ لأسبابٍ تهْمُهم. في الحقيقة نحن نستخدم التفكير النقدي حتى لنختار من قائمة طعام! نقرر أي الوجبات ستكون مُرضية وفقًا لمعايير شخصية، ما مدى جوعي؟ ما الرائج هذا الموسم؟ هل ستجعلني هذه الوجبة أستخدم يدي؟ (في أول موعد غرامي؟ لا، شكرًا!).

في الطبيعي، بعض سياقات التفكير النقدي ليست بأهمية كبيرة، يمكنك أن تطلب وجبة ثم لا يعجبك طعمها ثم تندم على اختيارك من دون أي تبعات سلبية أكثر. بعض الأحكام الأخرى التي نصدرها قد تملك تأثيرات أكثر استمرارًا، وقد تؤثر في أناس آخرين وليس فقط في أنفسنا. على سبيل المثال، قرار أن تذهب إلى الحرب له تبعات هائلة على جميع من لهم علاقة بالأمر لسنواتٍ ممتدة، لتصدر حكمًا جيدًا يجب أن يكون التفكير عميقًا وغنيًا وواعيًا وذًا غاية، ولهذا تربية مفكرين ناقدين ماهرين ضرورية، كيف يفكر أبنائنا هو ما سيصنع العالم الذي يعيشون فيه.

هل تساءلت يومًا عما يدور برأس أبنائك بعد أن تقرأوا، تذاكروا، تشاهدوا فيلمًا، تعلَّمهم معادلة حسابية أو تلعبوا معًا لعبة فيديو. ربما تتساءل لماذا تسخر أخت من أخيها، من دون أن تتخيل الألم الذي تسببه له، ربما بينما يعلن ابنك عن حلٍّ لمشكلة ما، تبدو فكرته وحشية بالنسبة إليك. ربما تلاحظ مراهقًا مهووسًا بألعاب الفيديو لتصل من ذلك إلى النتيجة المقلقة أن المراهقين يحبون العنف، لكن هل يمكن أن تتأكد

من ذلك؟ كيف نفهم المعنى الذي يصنعه الأطفال لأنفسهم؟ كيف نساعدهم على التفكير بشكلٍ أكثر فعالية وذكاء؟

هذا الكتاب عن تربية المفكرين الناقدين في عالم اليوم، في البيئة الرقمية، عن أطفال اليوم الذين يسبحون في عالم من التصريحات والهتافات والصراخ على الإنترنت.

معظم الآباء يريدون أن يحموا أطفالهم من المعلومات المغلوطة، ماذا يحدث حين يقابل طفل من دون إرشاد عرضاً منطقيّاً للمعلومات بشكلٍ يعارض معتقدات عائلته؟ ربما تتساءل كما تساءلت في أثناء تربية أبنائي: هل الأكثر خطراً هو أن تقرأ الرأي المعارض أم أن تُحمي منه؟

في كتابي الأول «المتعلم الشجاع» ألقيت الضوء على السياق البيئي والعاطفي الذي يساعد على التعلم، بمعنى السياقات الواقعية كإضافة الشاي والكوكيز إلى دراسة الشعر، وتوفير الدعم الحنون لمن يعاني من تعسرٍ في الدراسة. في هذا الكتاب أريد أن أُغيّر أماكن الأثاث في عقولنا، كيف نضبط الطاولة لنتّج تبصرات جديدة بدلاً من إعادة تدوير ما تعلمناه بالفعل؟ هل من الممكن أن نحافظ على «الاندهاش الطفولي» حتى ونحن بالغون، أم هل يلزم التخلي عنه في رحلة النضج؟ كيف نساعد الأطفال على استكشاف المزيد في المواد التي يدرسونها، وألاً يقتصروا على ما تطلب منهم الاختبارات عرضه؟ كيف يمكن تفعيل خيالات أطفالنا في مواد كالتاريخ والعلوم الاجتماعية وحتى الرياضيات والعلوم الطبيعية؟ ماذا نفعل حيال بحر المعلومات غير

المنتهي على الإنترنت؟ هل يمكن للأطفال أن يكونوا مفكرين ناقلين مع الأفلام والروايات وألعاب الفيديو التي يحبونها؟ بعبارة أخرى، كيف يمكن أن نقود متعلمينا نحو تفكير أكثر عمقاً وحساسية وسعة في الخيال حول أي شيء في العالم؟

إن أعطينا الطلاب أدوات التساؤل، يجب علينا أن نكون مستعدين للنتائج، سيتساءلون بشراسة حينها، سيطرحون أسئلة مستفزة، سيقفزون إلى استخدام التكنولوجيا والسوشيال ميديا من دون أن يفكروا في غرضها ومصادرها، سيتبنون وجهات نظر تتحدى وجهات نظرك الراسخة، ربما يكون من الثوري جداً أن نفسح الطريق للأطفال ليصنعوا المعنى بأنفسهم بالكامل. تمالك أعصابك، لأن الحقيقة القاطعة تقول بأن المفكرين الناقلين يصبحون قراءً متنوعين القدرات، وكتاباً ماهرين، وبالغين عقلاء، وطلاباً متفاعلين داخل الفصول وخارجها. إنهم يبدعون، ويتحدون السائد، ويصوّتون ويتطوعون، ويقومون بمشاركات مهمة في الأماكن التي يعملون فيها، ويجدون طرائق جديدة ليكتسبوا بها مهارات جديدة ليتفوقوا، ويُنشئون عائلات صحية، ويصبحون بالغين محبوبين ومسؤولين. أن تكون مفكراً ناقداً هو أن تكون شخصاً متبصراً متعاطفاً متواضعاً واعياً بذاته، حاد الذهن وصاحب فكر حي. حقاً إن تربية مفكرين ناقلين هي العمل الأكثر إثارة للحماس، والأهم الذي يمكننا القيام به كأباء ومعلمين. لقد قضيت العقود الثلاثة الفائتة أعمل مع جميع فئات المتعلمين الصغار، وعلمت أبنائي الخمسة منزلياً على مدار سبعة عشر عاماً، وبنيت شركة مع فريق من المحترفين المهرة

الذين درّبوا آلافاً من الطلاب من جميع الأعمار على التفكير والكتابة جيداً، ودرّست للطلاب حديثي الالتحاق بجامعة زافير. ما يسطع لامعاً في كل سنوات التدريس تلك، هو ما يحصل عليه الطلاب الرائعون حين يختبرون دفقة من التبصر بشيء جديد، إنهم ينبهرون بعبقريتهم حين يولّدون رؤى جديدة.

لقد استخلصت دروسي المفضّلة من سنين التعلّم في هذا الكتاب، في الفلسفة والممارسة، في الجزء الأول «من المفكر الناقد؟»، أضع الأرضية الأساسية لكيف يمكن -لأيّ منّا- أن يشكّل رؤية كونية، كيف يمكن أن ندرّس لأبنائنا كيف يفرّقون بين الانحياز والمعتقد وبين الحقائق والتأويلات؟ من أين تأتي الآراء المكونة بشكلٍ سليمٍ وعلى أي أساس نعتقد بها؟ كيف تؤثر تجارب المدرسة والبحث الإنترنتي في كيفية تفكير أولادنا؟ ما الدور الذي تلعبه هوياتهم في أثناء تعلّمهم؟ في معظم الفصول أضع نشاطاً لتجربوه مع كل الأسرة.

في الجزء الثاني «اقرأ، جرّب، واجه»: التعليم الحقيقي، أستكشف الطرائق الثلاث الرئيسية التي يتعلّم بها أيّ منّا، أتحدّى الفكرة القائلة بأن القراءة وحدها تكفي وأن من قرأ جيداً بالضرورة قد تعلّم جيداً. نلقي نظرة على الكيفية التي تبدّل بها الحياة الرقمية أدمغتنا وقدرة أطفالنا على القراءة بعمقٍ وتركيزٍ، أوفّر استراتيجيات لكيفية التقاط العمق أيضاً. قُم، ألقي نظرة على نوعيات التجارب العملية والمواجهات مع الناس التي قد تؤدي إلى اكتشافات مذهلة، وإلى علاقة أكثر قرباً مع أي مادة تدرسها أو أي مجال تهتم به.

في الجزء الثالث «الخيال البلاغي» يكمن الحكيم الكبير! بمجرد أن يفهم أبناؤك كيف يبنون رؤاهم الكونية، وكيف يستطلعون أي موضوعٍ بعمقٍ، فسيكونون جاهزين للتوسُّع في فحص أكثر من وجهة نظرٍ في وقتٍ واحدٍ.

سيكونون قد دخلوا إلى مستوى التطور المُسمَّى بـ«الخيال البلاغي» وهي القدرة على التفكير نقديًا وتخيُّليًا. في هذا الجزء سأعرض لك أدوات تساعد الطلاب في تأويل النصوص ومقاربة أكثر من وجهة نظر واحدة، ثم سأعرض لك كيف يمكن أن تساعد المراهقين على التأقلم مع زعزعة عاداتهم في التفكير. سأوفّر أيضًا إرشادًا لك، كأبٍ أو أم، لكيف يمكن توجيه ابنك خلال المياه العالية تحديدًا حين يكون لديك مراهقون مستعدون دائمًا لتحدي معتقداتك العزيزة، صدِّق أو لا تصدِّق، هذه مرحلة ضرورية لتطورهم، دعونا نستوعبها ونتعلَّم أن نؤدي فيها جيدًا، كل فصل يبني على ما قبله، لذلك يُنصَح بالقراءة بالترتيب، وفقًا لهذا ستعود مجددًا إلى هذا الكتاب، هذه التمرينات يمكن أن تعيدها مرارًا وتكرارًا، وربما تلاحظ أنك تحتاج إلى فصلٍ معين في مرحلة عمرية معينة في حياة طفلك.

باختصارٍ، هذا الكتاب لك إن كنت تتساءل عن جدوى كل هذا التعليم، بالتأكيد هناك ما هو أهم من اجتياز الاختبارات ودخول الجامعة، إنه خصيصي لك إن كنت ترغب في أن يمتلك أولادك تجربة تعليمية واسعة ومثمرة ومليئة بالتبصرات في كل المواد وما بعدها. لديك

الفرصة في تربية أشخاص جيدين قادرين على المساهمة في جودة حياة بعضهم وقادرين على استحضار إبداع حيوي لعملية التفكير، إنها رحلة مثيرة للحماس، ولك الفرصة أن تكون جزءاً منها، دعونا نبدأ!

الجزء الأول من المفكر الناقد؟

تخلّ عن اعتقادك بأن التعليم المدرسي قد يخلق مفكرين، تذكر ما قاله رجل التعليم الثوري بيل هوكس بقطعية أكيدة: «للأسف، شغف الأطفال بالتفكير غالبًا ما ينقطع عندما يواجهون العالم الذي يدرّبهم على القبول الأعمى والطاعة فقط لا غير، معظم الأطفال يتعلّمون من صغرهم أن التفكير أمرٌ قد يعرّضهم للمخاطر»، آخ!

الأطفال فضوليون بطبيعتهم منذ اللحظة التي يلتقون فيها أنفاسهم الأولى، لذا يأخذ الرضيع كل الأشياء إلى فمه، يقضم ويمضغ ويمص ويسيل لعابه على كل ما أوتي له أن يتعرّف منه على أي شيء. وحين يكبر قليلاً يتحوّل إلى عالم، يرمي ما يمكن رميه، ويقذف ما يمكن قذفه، ويأكل ما يمكن أكله (بصرف النظر عما إذا كان ينبغي له أكله أم لا)، ويوجّه بصره حوله وإلى الأعلى وإلى الورا وفي كل مكان.

يجمع الطفل في سنوات عمره الأولى ما يكون له نظرة مبدئية للعالم قد تعمل لاحقًا كحجر أساسٍ لكيفية تفسيره لكل شيء من حوله، كما أنه يطلق الأحكام بشكلٍ غير واعٍ طوال حياته اليومية. على سبيل المثال، فيما يتعلّق بما يرغب فيه في مقابل ما توفّره له بيئته المحيطة، أو

فيما يتعلّق بما هو قادر على أن يفعله بنفسه في مقابل ما سيحتاج فيه إلى المساعدة.

وبعد بضع سنوات ستجد هذا الطفل الصغير بدأ يرغب في إحداث الضجة، ربما سيرغب في الكثير، في العزف على الطبول، واستخدام الشواكيش، وركوب العجل، ورش المياه، والتأرجح، ورقص الجاز، واللحق، والخربشة، والتزحلق، والشم، ولمس الدرابزين المتسخ من بدايته إلى آخره، وتمزيق الورق، وسحق الصلصال، والدحرجة على أي منحدر مليء بالعشب، وكلما يكبر سيبدأ بتكليف نفسه بمهام أعقد، كالعثور على قطعة الليجو المطلوبة من وسط مئات القطع لتكوين سفينة القرصان، وسيتحرى عما هو موجود بالصورة ثنائية الأبعاد حتى يجد أصلها في العالم ثلاثي الأبعاد. عقول الأطفال الأكبر سنًا قادرة على تقدير المسافة التي يمكن قفزها بلوح التزلّج حتى يتمكنوا من تجهيز آخر ثلاث درجات من السلم لها، وقادرة على جعلهم ينظرون إلى طبق طعام غير مألوف مع استحضار ما عندهم من بيانات ناتجة عن خبرات سابقة مع أقرب طعام مشابه، ثم اتخاذ قرار حول: هل يستحق هذا الطبق أن يخضع لتجربة التذوق أم لا. أما المراهقون، فقد يقارنون كتابًا مع الفيلم المبني عليه لتحديد ما إذا كان الفيلم مخلصًا للرواية بما فيه الكفاية أم لا، كما يكونون آراءً حول قضايا اجتماعية ساخنة، ويصنّفون الفرق الغنائية وفقًا لمعاييرهم الخاصة. وبالتأكيد يعرف جميع الأطفال ما هو أنسب وقت لطلب قطعة كوكيز من أمهاتهم (بالأكيد في أثناء مكالمتها الهاتفية مع شركة التأمين).

إجمالاً، التفكير النقدي عبارة عن عدة أدوات يجب صيانتها باستمرارٍ لتساعدنا على الحياة بكفاءة. يشرح الخبير التعليمي آرثر كوستا أن التفكير النقدي يُفَعَّل حين يستخدم الطالب تلك الأدوات لحل مشكلة «المنطق الاستراتيجي، والتعمُّق، والمثابرة، والحرفية»، وهذا ما يشبه رؤيتي للتفكير النقدي، أراه كمصدر للحكمة وللتعامل بيسرٍ مع الأنظمة المجتمعية وللقدرة على التكيف مع الأزمات، يضع التفكير النقدي كلَّ قوَّته داخل نموك الشخصي، يجد دائماً حلولاً للأغاز. إنه ينبوع التبصُّر والبنية التحتية للإبداع، يمكِّننا التفكير النقدي من التدبُّر قبل الفعل، نستخدمه حين نقرر أن نشك ونكشف الانحيازات داخلنا، إنه المهارة التي توصلنا بالماضي والسياقات الأكثر اتساعاً وبالطبيعة وبالسرديَّة الأكبر. هناك لحظات نكون فيها على وعي بأننا نعيد التخطيط والخلق، وهناك لحظات أخرى لا نبحت فيها عن حلول المشكلات إلا باستخدام الحدس والبديهة والثقة التلقائية بالرأي الموروث فيما نقابله.

ينادي خبراء التعليم ذوو الثقل في مجالهم بأن نبدأ في تحويل الأطفال إلى مفكرين ناقدين، ومع ذلك ما زال ما يتلقَّاه معظمهم من مدخلات يومية قادراً على تعطيل أي عقلٍ يقظ. يتعرض المراهقون والأطفال لنطاقٍ شاسعٍ من المواد القادمة من دون فلترة، كمقاطع اليوتيوب، والقصص الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي، والمحادثات المباشرة في أثناء ألعاب الفيديو، ومسلسلات التلفزيون والأفلام، والكتب المسلية التي تنول إعجابهم والكتب الدراسية التي لا تنول نفس الإعجاب، والكبار الذين يحبونهم رغم امتلاكهم آراءً مختلفة

عن آرائهم، والمعلومات السليمة والمعلومات المضللة جنباً إلى جنبٍ في أي نتائج محرك بحث، وفي الغالب لا يعلم الآباء والمدرسون الأطفال كيف يصبحون ناقلين إلا لما هو بالخارج، من دون أن يسري ذلك النقد على ما يتلقونه داخل البيوت والفصول المدرسية.

لكن هل سنعتبر العقل قادراً على تنفيذ كل هذا؟ يعتمد التفكير النقدي في تلك النقطة على أن يُعدّل مسار نفسه بنفسه، يمكن للصغار والكبار -على السواء- أن يتعلّموا كيف يحدّدون ماهية تصوراتهم، وما الذي يجعلهم يثقون بمصدرٍ معين للمعلومات ولا يثقون بآخر، ولم قد يجدون بعض الأفكار مقبولة والبعض الآخر لا؛ يطلق الباحثون على هذا النوع من مراقبة الذات مسمّى «ما وراء الوعي» أو «التفكير بشأن التفكير».

أنا أفضل أن أطلق على هذا النوع من القوة الدماغية مسمّى «التفكير النقدي الواعي بذاته»، وفي الفصول القادمة سأستكشف كيف يمكن تدريس التفكير النقدي الواعي بذاته للمراهقين والأطفال بطريقة ملائمة لهم عمرًا، سيتعلمون كيفية مراقبة افتراضاتهم ومساءلتها، وسيتعلمون كيف يطورون مهارات لملاحظة الفروقات والتعقيدات على التوازي مع تكوينهم لعدتهم الخاصة من قيمهم الشخصية ذات المعنى؛ ستبقى هذه المهارات معهم طوال الحياة، وستعزّز من قدرتهم على الإحساس بالقيمة وبالدهشة وبالاتصال وبالرضا.

ما الأدوات التي ستساعدنا على تنشئة هؤلاء المفكرين الناقلين الواعين بذاتهم؟ هيا بنا نكتشف.

الفصل الأول

ومن قال هذا؟!

غمست رأس «نوح» ذي الأعوام الثلاثة في الماء الصافي لأغسل منه الصابون، وبمجرد ما رفعتُ رأسه أخذ يلفظ بقايا الماء من فمه قائلاً: «احكي لي قصة الخنازير الثلاثة مجدداً!»، فأذعنت كما أذعنت بالفعل مئات المرات السابقة. انسجم نوح مع جملة الذئب الشهيرة: «زمجرت ونفخت في البيت حتى اقتلعتة!». لم يكن نوح فقط يكرر معه الكلمات، بل كان يتنفس ساحباً الكثير من الهواء ثم يعيد نفخه محملاً بالبصاق والغضب ناحية بيوته الصغيرة المصنّعة من قشّات الشرب والأغصان والطوب، ثم يستكمل معي القهقهة والضحك.

بعد ذلك بشهور قابلني في إحدى المكتبات كتاب اعتقدت أن صغيري المهووس بقصة الخنازير الثلاثة سيستمع به، كان يُسمّى «القصة الحقيقية للخنازير الثلاثة»، من تأليف جون سيسزكا. تكوّرنا معاً على الأريكة، وبدأت في قراءته بصوتٍ عالٍ، لمعت عينا نوح في دهشة حين سمع منظور الذئب للقصة! هذا الذئب المسكين لم يُرد ببساطة سوى أن يستعير كوباً من السكر من جيرانه الخنازير ليخبز كعكة

عيد ميلاد لجدته، كم هو رجل لطيف! لكن للأسف عانى السيد ذئب المسكين من زكام شديد، هو ما جعل قوة عطاسه تطيح بأول طابقين في منزل جيرانه وتقتل الخنازير التي كانت تعيش فيها. ولأنه رجلٌ حكيمٌ لم يرَ من فائدة في إهدار ما يمكن أكله، ولذلك أكل الخنزيرة الصغيرة، وفي اللحظة التي وصل فيها الذئب بالفعل عند منزل جيرانه كان الخنزير المتبقي فيه قد أبلغ عنه الشرطة، شاكيًا أفعاله الشريرة. لقد أُدين السيد ذئب بتلك الجرائم خطأً، وعلى أساس هذا أُرسِل إلى السجن ليقضي فيه عشرة آلاف من الأعوام، أعلن الذئب عن مظلوميته من زنزانته قائلاً للقاضي في رجاء أخير: «صدقني، لقد حكيت لك القصة الحقيقية، لقد ظُلِمْتُ!».

ازداد هوس نوح سريعًا بالكتاب الجديد، ولم يكن هذا مثلاً لاعتقاده بأنه فعلاً يروي القصة الحقيقية للخنازير الثلاثة، ولكن لأنه بعد قراءة نسخة الذئب من الحكاية أصبح مدرّكاً لفكرة وجود أكثر من وجهة نظر للحكاية الواحدة. وقدرة نوح على الشك فيما يحكيه الذئب كانت موجودة بديهياً، وكانت هي ما جعل قراءة الكتاب ممتعة إلى هذه الدرجة، وحتى هذه اللحظة، نوح كان مصطفاً تلقائياً مع صوت الراوي العالم بكل شيء في جميع القصص الخيالية؛ لم يكن هناك من سبب يدفعه إلى مساءلة حقيقة أيٍّ من تلك القصص حتى سمع بنفسه من الذئب.

وبهذا تعرّف نوح -من دون قصدٍ- على الأداة الأدبية المعروفة باسم «الراوي غير الموثوق به»، والراوي غير الموثوق به هو من يكون

-بشكلٍ أساسي - المفكر غير الواعي بذاته، والطريقة الدفاعية المنحازة للذات التي حكى بها الذئب قصته كانت بمنزلة إعلان صريح للقراء بأن هذا الذئب لا يستخدم أيًا من مَلَكات التفكير النقدي. وبدلاً من ذلك، أخذ يستعرض دفاعاً مخصصاً للتمويه على آثامه، محرّفاً الحقائق ومعيداً صياغتها لتلائم ما يمكن أن يثبت به براءته. والذئب كراوٍ غير موثوق به أصبح هو أول أداة في يد نوح لفحص رؤية أي قصة قد نقرأها. ولقد بالغ سيسزكا في إظهار الادعاء في قصة الذئب باستخدام الفكاهة، ولهذا يشعر القراء بسخافة ما يُقال، لكن كيف يمكن لنا اكتشاف جوهر رؤية الراوي غير الموثوق به لأي قصة؟ ما الذي يجعل وجهة نظر الذئب النرجسية واضحة لنا نحن كقراء؟

وهنا وصلنا عند السؤال الأساسي فيما نتعلّمه، كيف نعلم أي مصدر سلطة ينبغي لنا الوثوق به، وأي جهات نظر للأحداث التاريخية على سبيل المثال هي الأدق؟ كيف نميز صاحب نظرية المؤامرة ممن هو آتٍ لنا بتنبيه حقيقي عن فسادٍ ما؟ كيف نخبر ممثلي الشعب المنتخبين في قولهم للحقائق في مقابل قولهم للأكاذيب الأنانية؟ أي النظريات العلمية جديرة بالتصديق؟ وأيها زائف؟ أي العمليات الحسابية أنسب لاستخدامها في سياق ما؟ أي الروايات يجب تقديسها؟ وأيها قد حان له التقاعد من مرتبة الكلاسيكيات؟

ستتوالى الأسئلة في اندفاعٍ في الدقيقة التي ستسمح لنفسك فيها بالانزلاق على هذا المنحدر، أي السياسات الحكومية قد تؤدي بالشعوب إلى الازدهار؟ أي قضية ظلمتها حقوق الإنسان؟ كيف نقيّم

ادعاءات الأديان؟ لأي معايير نُخضع أي ادعاءات للفحص؟ سواء أخضعناها بشكلٍ واعٍ أو غير واعٍ، نحن نطرح الأسئلة في كل مرة نقرأ فيها أو نسمع أو نتعرض لأي مدخلات، وفي أثناء تعليمنا لأطفالنا من المغري أن نظن أن في إمكاننا العثور على الحقيقة ومن ثمّ تدريسها لهم، لكن ومع ذلك، مَنْ يقرر ما الحقيقة؟

كل موضوع بحثي يمكن فهمه باعتباره حاوية قصص، تُحكى عبر الرواة، ورواة القصص في هذه الحالة قد يكونون (خبراء متعلمين، فنانيين، معلقين إذاعيين، علماء، شهود عيان، كذابين، ضحايا، مؤمنين، فائزين)، كل وأي حكاية منهم له زاوية للحكاية، ولنا أن نفكر حول أي موضوع بطريقة «من راوي هذه القصة؟»، سواء ما تم نقلها لنا عبر كتاب، أو فيلم، أو مسرحية، أو أسطورة، أو خرافة، أو مجموعة بيانات، أو عقيدة، أو قصيدة، أو إحصائية، أو ممارسة، أو نظرية، أو بيان إخباري.

حين سألت أُمّي وخالتيّ حول حياة والديهن العاطفية حصلت على نسخٍ متعددة من نفس الحقائق، ما الذي يجعل أياً من تلك التفسيرات جديرة بالثقة؟ هذا هو جوهر رحلة التفكير النقدي، ربما تكون قد اختبرت إحساس أن تستمع إلى شخصٍ يروي لك قصتك برداءة لأنه لا يمتلك الخبرة الكافية أو السلطة على ما يرويه، فكّر في الموقف الكلاسيكي فيما يخص الرؤية الذكورية لأمّ ما، وتخيل مشهد طبيب رجل يخبر امرأة كيف أن عليها التعامل مع منغصات الحمل والولادة. معظم النساء يستجبن لذلك مباشرة كما استجابت شخصية رايتشل من مسلسل فريندز: «ليس لديك رحم، إذن غير مسموح بإبداء رأي!».

وهذا نوعاً ما هو ما أعنيه هنا، رواية القصص يشكّلون فارقاً، وكل وجهة نظر تنبع من عينة بيانات معينة يمتلكها هذا الراوي، ونحن نقيّم موثوقية الراوي أوتوماتيكياً عن طريق تمريره على عددٍ لا نهائي من نقاط التفتيش التي غالباً ما تكون غير مرئية لنا.

التعليم ليس عبارة عن تمشية عبر المعلومات المحايدة بهدف إتقان حفظها لأجل اختبار، بل هو القدرة على التعرف على رواية القصص وتقييم المصادر ومساءلة وجهات النظر وتحديد مدى نفعية منظور ما في لحظة معينة من الزمن. في الواقع إن تأويلات الأحداث التاريخية، والأدب، والاكتشافات العلمية، وأكثر، تحدث فيهم التغيرات من جيل إلى جيل، وأحياناً بين العام والآخر وأحياناً خلال شهور، وهي ليست بالمهمة السهلة! إذن هل التفكير النقدي حكرٌ على خبراء الموضوعات البحثية الذين يحفرون الفجوات داخل النظريات، ويسيّمون مَنْ له أن يحظى بالثقة، ومن ستُسحَب منه؟ هل من المفترض أن نأخذ كلمتهم فقط من دون نقاش؟ إذا كان التفكير النقدي معنياً فقط بكيفية تقييمنا لاستنتاجات الآخرين، فكيف إذن سنحكم على وجهات نظرهم من دون خبرة وتعليم مناسبين؟

على سبيل المثال، معظم الناس غير مؤهلين لإصدار حكم على النظريات العلمية التي تخصّ موضوعات كالغازات الدفيئة أو نشأة الكون، أتذكّر قراءة محاجات مؤيدة ومعارضة لنظرية الانفجار العظيم، وحصلتُ في أثناء قراءتي على لحظة تنوير اكتشفتُ فيها فقط أنني غير مؤهلة لتقييم تلك الأدلة! لكن أليس هذا ما يتم فعله على كل حال؟ أي

المعايير قد تبرّر الآراء التي نتبنّاها حينما لا نكون نحن أنفسنا خبراء مؤهلين؟

أفكر في العدد اللانهائي من القرارات التي يتخذها الآباء من دون أي خبرة معرفية: ما إذا كان يجب التطعيم أو لا؟ أي نوع من تقويم الأسنان هو الأفضل؟ أي طريقة للولادة هي الأكثر أماناً؟ أي نوع من التعليم أنسب لهذا الطفل؟ يتخذ الوالدان هذه القرارات لأنفسهم دائماً من دون أي تعليم أو تدريب طوال الوقت، ويشعرون ببدء الواجب يدفعهم إلى القيام بهذا. في الحقيقة يعرض الناس من مختلف الخلفيات كثيراً من الآراء النقدية حول مختلف وجهات النظر فيما لا يملكون فيه تعليماً مناسباً، خاصة على الإنترنت، حين تأخذ جولة في تويتر لن تتمكن إلا من ملاحظة كم عدد التغريدات التي هي افتراضات من دون دعائم. القصص ذات الحجج الزائفة انتشرت بضراوة، نحن نضع التجارب الشخصية في محل خبرات المحترفين معرفياً طوال الوقت، ونستبدل بها ما نُجمّعه أحياناً من أدلة داعمة للموقف الذي نتبناه بالفعل، ثم نرتبك حين لا يعتد الآخرون بما اعتبرناه «حقائق» ويستبعدونه من حساباتهم فقط بضغطة زر «إلغاء». العالم الذي يوشك أطفالنا على دخوله هو عالم من المنتظر أن يحظى فيه المرء برأي واثق، وهذا الرأي (بصرف النظر عما بُني عليه) سيعمل كاختبار ولاء لمدى انتمائهم إلى مجتمع ما، ويتضح أيضاً أننا في الغالب ما نختار رواة القصص الذين يعزّزون انتماءنا إلى العضويات التي حصلنا عليها في مجتمعاتنا.

قل لي من راوي تلك القصة؟

في كل مرة نستهلك فيها معلومات كـ(البيانات، آراء الخبراء، الدراسات، التجارب الشخصية) نطرح سؤالاً بليغاً قائلين: «ومن يزعم هذا؟». كل مجال دراسة سواء كان تاريخاً، أدباً، علم اجتماع، رياضيات، نظرية سياسية، فنوناً، علومًا، تجارة، إحصائيات، دينًا، طبًا، دائمًا ما يُنقل إلينا من خلال عدسة، ينقل تلك الموضوعات راوي القصة الذي يفسّر بياناتها. أحياناً يختار راوي القصة أن يختبئ خلف عرضٍ «لا شخصي» للبيانات، على سبيل المثال، تُقدّم العلوم الطبيعية والاجتماعية بأكبر قدر ممكنٍ من «الموضوعية»، بحيث يُنزع منها الرأي الشخصي للباحث بقدر المستطاع، وفي أحيان أخرى يظهر رأي راوي القصة بوضوح، ككُتّاب المقالات، أو الأكاديميين في أثناء كتاباتهم للأطروحات بشكلٍ مقنع، أو الذئب في أثناء تبريره لأكل خنزيرين صغيرين. إحدى مهارات التفكير النقدي التي نودُّ أن يتقنها أولادنا هي القدرة على تحديد من يروي تلك القصة.

عندما يُكلّف الطلاب بمراجعة عمل أحد الباحثين، من باب تحدي رؤية الكاتب أو مقارنة التناقضات والتباينات بين استنتاجات الباحثين المتعارضة، يكون من المنتظر منهم تقديم تحليلٍ موضوعي؛ كيف لهم أن يقوموا بهذا؟ هذا ما يتحدث عنه هذا الكتاب، لكن قبل أن ينطلق الطلاب لتحليل الأبحاث، هناك خطوة في غاية الأهمية يجب اتخاذها.

السيلفي الأكاديمي

قبل أن يتمكن أي أحدٍ (سواء نحن أو طلابنا) من التفكير النقدي، نحتاج إلى معالجة منطقة تشوش مهمة، وهي طريقة تفكيرنا الخاصة! التحليل الأكثر عمقاً يأتي بعد أن نقلب عدسة الكاميرا على وجهها الآخر لنلتقط ما أحب تسميته بـ«السيلفي الأكاديمي»، لأننا نعيش داخل أجسادنا، وننتج الأفكار داخل عقولنا، قد نفقد الصلة أحياناً بكيفية صناعتنا للمعنى ولإصدار الأحكام، نستشير فقط إحساساً داخلياً «بما هو صواب»، إحساساً يجعل ما نختار أن نؤمن به يتماشى مع ما تشرّبهنا في المدارس وعلى الإنترنت وفي التلفاز وفي الراديو، نقارن ما نفكر به بما دُرّس لنا في جماعاتنا الدينية، نضع في الحسبان مكان معيشتنا وكيفية نشأتنا، وحتى ننتهي من كل هذا العمل تتأثر كلُّ تقييماتنا للآراء الأخرى بكل هذه الثوابت الشخصية من دون أن ندرك أنها تأثرت.

هل نتذكر أمي وخالتيّ في أثناء تفسيرهن لرسالة والدهن الغرامية؟ لقد فهمت كلُّ منهن مصطلح «ممارسة الحب» بشكلٍ مختلفٍ، لقد برّرت كلُّ منهن تفسيره من دون طرح سؤالٍ أساسي: «هل ما أؤمنه هو الحقيقة؟». قلب العدسة على وجهها الآخر يعني أن هناك الآن انحيازاً شخصياً على وشك أن يسيطر على قراءة الموقف بالكامل! والاعتراف بالانحياز لا يعني أن الاستنتاج الذي سيصل إليه الشخص خاطئ بالضرورة. ولكن على العكس، كونك مفكراً ناقداً هو ما سيخلق راحة في التعامل مع استجاباتنا ذات الاستعداد السابق ولن يدعها تطفئ على

تلقينا للتفسيرات المحتملة الأخرى، تحديدًا في المرحلة الأولى من البحث الدراسي. لذا فالتفكير النقدي يتضمن كلتا المهارتين: أن تكون «ناقدًا» للآخر، و«واعيًا» بنفسك، لذا في أثناء تعليمنا للأطفال، دعونا ندرّبهم أولاً على المهارة غير المقدّرة بما فيه الكفاية، مهارة أن تكون واعيًا بنفسك.

إذن من أين نبدأ؟ كيف يتسنى لأحد أن يكون مفكرًا ناقدًا واعيًا بنفسه؟ المتمرسون من المفكرين الناقدين الواعين بذواتهم هم من يحظون بالبراعة في التعرف على أثر تجاربهم وانحيازاتهم ورؤاهم ومعتقداتهم وأفكارهم وولاءاتهم وحدسهم على دراساتهم. ودعني أخبرك أن هذا عملٌ شاقٌّ، التفكير المتبصر الحقيقي يحتاج إلى وقتٍ ليتكوّن، لأننا غالبًا ما نبدأ التفكير بعددٍ كبيرٍ من ردود الأفعال الباهظة المحسوسة نسبيًا كالمذكورة في تلك القائمة:

- لا أريد أن يكون هذا حقيقيًا.
- لن أستجيب حين يكون عليّ تذكُّر أي أرقام.
- هذه الفكرة تجعلني متوترًا، ماذا سيقول عنها: والدائي، مرشدي الروحي، صديقي المقرَّب، معلمي، إذا سمعوا بها؟
- الشخصية الرئيسية تُذكّرني بعمتي الخبيثة.
- أليس هذا الكاتب من الحزب السياسي الذي يكرهه والدي؟
- هذه الحقيقة ستفسد أطروحتي، أليس في الإمكان أن أخطأها فقط وأكتب البحث من دونها؟

- ليتني أعلم المزيد حول (س)، ليت الكاتب أسهب في الحديث عن (س).

هذه الأفكار غالبًا ما تكون موجودة تحت سطح التفكير الواعي للطالب، لذا سيفيدنا أن ننتزعها، سيستطيع الطلاب أن يتعلموا التعايش مع عدم الارتياح الذي يخلقه وجود الأدلة المتناقضة، أو مع تقرير يكشف عن فجوة في نظرية علمية ما، أو مع الآراء المتعارضة للخبراء قبل أن يتمكنوا من التعليق عليها. هل خضتَ قبل ذلك تجربة أن تكتب منشورًا غاضبًا لمنصة تواصل اجتماعي متجنبًا -عن عمد- الأدلة المعارضة للنقطة التي تحاول إثباتها؟ هذا هو عقلك حين يحمي طاقتك الفكرية، وهي الطاقة اللازمة لاكتساب رؤية وتطويرها (وهي الوقت اللازم لتعيد التفكير في تفكيرك!). معظم النقاشات الإلكترونية تتحرك بسرعة شديدة، لأنه من الباعث على الطاقة أن تثور غضبًا، لكنه أمرٌ مرهقٌ أن تتوجه بتركيزك ناحية رؤية أو وجهة نظرٍ أنت لا تريدها أن تكون حقيقية.

حتى الكبار يعانون مع هذا، لأننا ندرّبنا على أن الاطلاع على ما هو خارج رؤيتك للعالم هو مشاركة في الهرطقة. وإليك، بلمحة من الشعور الذي يمكن أن ينتج عن مراقبة ردود أفعالك بصبرٍ، تخيّل قراءتك لمقالٍ متعارضٍ مع اعتقادٍ تؤمن به بشكلٍ مقدسٍ:

- ربما ستشعر بوخزة في معدتك:

لماذا أنا متوترٌ في أثناء قراءة هذا المقال؟ هل لأنني أفحصه سريعًا مفتشًا عن أخطائه؟

- ربما ستشعر بنشوة انتصار:

نعم! تلك نقطة يمكنني استخدامها لأثبت أنني على صواب.

- ربما ستشعر بالملل أو بالغضب:

- ربما ستشعر بتغيير ما فيما اعتدت أن تتمسك به بشدة، مما سيربكك.

- ربما ستمحي تاريخ متصفحك حتى لا يعرف شريكك أنك تصفحت هذا الموقع.

- ربما سينزلق عقلك بعيداً عما تدرسه متخوفاً من احتمالية أن يتبنى موقفاً معارضاً.

(أيًا كان مجال بحثك، دائماً ما ستوجد ثنائية الولاء والهزيمة).

- ربما ستتجاهل حجة ما ببساطة لأنك تعلم جيداً من أين مصدرها.

إنه من السهل أن تتجاهل المعلومة التي قد تتسبب في إحساس بالحزن، وعلى العكس، دفقة الأدرينالين التي تشعر بها حين يؤكد أحد ما تريده أن يكون صحيحاً، هي بالتأكيد مما له ثقل ليس بالقليل على الدماغ. وهذا هو ما نريد أن نصيبه، إثباتاً لأننا على الجانب الصواب رغم كل شيء، والمصطلح التقني المعبر عن ميكانيزم السعي إلى التصديق هذا هو «الانحياز التأكيدي»، كالميل ناحية تصديق تقرير ما لأنه يؤكد اعتقاداتك المبنية بالفعل، ردود أفعال جسدك وأفكارك واستجاباتك العصبية ليس من السهل أن يتم تجاهلها، فهي جوهر كيفية تشكيلنا لأرائنا الموجودة على مستوى حجر الأساس.

على نحو طبيعي، الأطفال كبار في مرحلة التمرين، إنهم حسّاسون أيضاً، لكن -وللعجب- يجلسون على طاوولات طعامنا لنحو عقدين من الزمن، منصتين إلينا نشكو حيناً ونتعالم حيناً، إن لم نتعلّم كيف نروّض نزوعنا نحو إمطارهم بكمياتٍ مما نعتبره «الحقيقة المطلقة»، فسوف نُخرَّب قدرتهم على التفكير بشكلٍ سليم. أن تكون مفكراً حكيماً هو أمرٌ يتطلّب السيطرة على النفس، التحكُّم في اندفاعاتنا هو أمرٌ صعب علينا جميعاً.

طبقاً لعالم النفس دانيال كانيمان، هناك ارتباطٌ وثيقٌ بين التحكُّم في النفس وجودة التفكير النقدي. يستشهد كانيمان في كتابه الممتاز «التفكير السريع والبطيء» بالتجربة الشهيرة التي أجراها عالم النفس والتر ميشيل، التي تختبر قوة إرادة طفل في الرابعة من عمره حين يُترك وحده في غرفة مع قطعة من الأوريو كوكيز، ما تعليماتها؟ فقط لا تأكلها حتى تمر ١٥ دقيقة وسوف تُكافأ على ذلك بقطعتين إضافيتين. لقد واجه الأطفال تلك المعضلة وحدهم وروّقوا من خلال مرآة عاكسة، لم يكن هناك أي كتب أو ألعاب في الغرفة لتشتيتهم، إذا أكل الطفل الكعكة أو أبدى علامات عدم ارتياح فستنتهي التجربة، نجح نصف الأطفال في الانتظار لمدة ١٥ دقيقة، هذا عظيم، أليس كذلك؟ ولكن المدهش حقاً هو أنه بعد متابعة هؤلاء الأطفال بعد نحو من عشرة أعوام إلى خمسة عشر عاماً من تعليمهم بعد تلك التجربة، كانت للصامدين قدرات أكبر على التحكُّم في التنفيذ في أثناء قيامهم بالمهمات الذهنية، هؤلاء الأطفال الذين أظهروا قدرات تحكُّم في النفس أكبر، وهم في الرابعة

من عمرهم، كانت أيضًا لهم درجات مرتفعة في اختبارات الذكاء. ودراسات مشابهة في ألعاب الكمبيوتر وحلّ الألغاز استنتجت أنّ من يسجّل علامات ضعيفة في تلك الاختبارات هم الميالون إلى إجابة الأسئلة بأول فكرة تخطر على بالهم، ومن ليست عندهم استعدادية لبذل المجهود المطلوب لمراجعة حدسهم؛ تلك اللااستعدادية لمراجعة الحدس هي ما يواجه الكثير منّا يوميًا في أثناء قراءة خبر أو تصفّح موقع، الأمر يتطلّب صبرًا وتحكُّمًا في النفس لتبقى على استعداد لاستقبال البيانات الجديدة.

وجدت هذه الدراسة متكاملة، لتكون مفكرًا ناقدًا سيتطلّب الأمر نوعًا من ضبط الذات، وبطريقة مماثلة يؤخّر المفكرون الحكماء نشوة أن تتأكد سريعًا من كونك على صواب. يختارون ألا يقعوا فريسة لحدسهم وانطباعاتهم المبدئية، الأطفال الذين لا يمتلكون صبرًا للسعي وراء بيانات إضافية غالبًا سيلتهمون «قطعة كوكيز» (الانطباع الأول)، بدلًا من انتظار العائد الإضافي لأخذ انطباعات أو أكثر في الحسبان.

لذلك لتتوقف وننظر مجددًا في القصة الحقيقية للخنازير الثلاثة من خلال عدسة مختلفة، ماذا إن قيّمنا القصة لا كنفادٍ، ولكن كمفكرين ناقدين واعمين بذاتهم أو لا؟ كيف سنتفاعل مع نسخة الذئب من قصة الخنازير الثلاثة؟

سأبدأ بطرح الأسئلة على نفسي:

- أي رسائل حول الذئاب توصّلها تلك القصة؟

الإجابة: أنا اعتدت تصوير الذئب كأوغادٍ في الحكايات الخرافية، أتذكّر الذئب في قصة ذات الرداء الأحمر، وفي قصة بيتر والذئب، وفي كلتا القصتين كان الذئب كبيراً وشريراً.

- كيف قد تؤثر تلك الخلفية في تحليلي لشهادة الذئب؟

الإجابة: أنا متشكّكة في الذئب الذي يتظاهر بمراعاته للذئاب، وهم اختياره المفضّل كوجبة، وأشك في زعمه أنه قتل اثنين بالخطأ، ثم من أجل ذلك اضطر إلى أكلهم، يا للبراءة!

- ما خبراتي السابقة مع الحكايات الخرافية؟

الإجابة: تعطيني الحكاية الخرافية موعظة حول الخير والشر، أبحث فيها عن العبرة الأخلاقية قبل أي شيء، وإن لم أجدها أشك في راوي تلك الحكاية. وفي القصة الحقيقية للخنازير الثلاثة لا يبدو أن هناك أيّ عبرة، هناك فقط دفاعٌ شخصيٌّ غير محبوبٍ لبعض الأفعال غير الأخلاقية.

- ما خبرتي مع تلك الحكاية الخرافية بالتحديد؟

الإجابة: لقد سمعتها تُحكى وتُمثلُ عددًا لا نهائياً من المرات حيث كان الخنازير هم الضحايا الأبرياء، والذئب هو الشرير صراحة، بالتأكيد هذه هي النسخة السليمة لأنها النسخة الأكثر شيوعاً.

- وأخيراً ما الذي أعرفه عن هذا الكاتب جون سيسزكا؟

الإجابة: أعرف جيداً أنّ حسّه الفكاهي رائعٌ.

وفقاً لهذه الخلفية بدأت قراءة الكتاب متوقعة أن يقلب سيسزكا الحكاية رأساً على عقب، مغيراً موضع الذئب من الجاني إلى الضحية. وعلى أي حالٍ لأنني كنت واثقة بأن النسخة التي تجعل الذئب هو الجاني هي النسخة الأكثر صدقاً، سرى مفعول النكتة عليّ، وكان لقصة سيسزكا أثرٌ سحريٌّ.

دعونا نتجه الآن ناحية وجهة نظر نوح، ما الذي دفع الطفل ذا السنوات الثلاث إلى الشك في نسخة الذئب من الحكاية بهذه السرعة؟ ما الذي جعله يرى تلك النسخة بشكلٍ مختلفٍ عن كل النسخ الأخرى التي قرأناها معاً لقصة الخنازير الثلاثة؟ (كل النسخ التي صدّقها تلقائياً) يمكنني التفكير في عاملين:

أولاً، أنني قرأت كتاب سيسزكا لنوح بنفسي، لذلك كانت رؤيتي مؤثرة في كيفية تلقي نوح للقصة، لم أستطع إخفاء ضحكاتي المكتومة على ما وجدته من سخافات، واستخدمتُ نبرة متهمكة في سرد أقاويل الذئب. باختصار، الزاوية التي أنظر منها إلى أي قصة هي ما تعمل كعدسة متحكمة فيما يتبنّاه نوح الصغير من تفسيرات وردود أفعال.

ثانياً، نوح اعتاد للغاية النسخة الأصلية من الحكاية، مما جعله بالفعل يقبل بكونها النسخة الصحيحة من خلال التكرار المستمر، ماذا لو كان ما سمعه نوح للمرة الأولى هو نسخة الذئب من القصة؟ ماذا لو كان سمعها بالفعل مرات لا تُحصى من العديد من الأفلام والكتب قبل أن يسمع النسخة المتعاطفة مع الخنازير؟

هل تظنون أن نوح (أو أي طفل آخر في هذه الحالة) كان ليكون قادرًا على تكذيب نسخة الذئب أوتوماتيكياً فور سماعه لها؟ إنه سؤال مثير للاهتمام، هناك إشارات في قصة سيسزكا تقول لنا إن هذا الذئب أناني ومختلق للأعذار، يشعر الأطفال بالارتباط مع فكرة اختلاق الأعذار، وهذا هو جزء من السبب الذي يجعل هذا الكتاب أحد التفضيلات الدائمة عندهم، يلعب الكتاب على وتر حساسٍ عندهم لأنهم يفهمون فكرة التغطية على الحقائق! لكن لو هناك طفل صغير بما فيه الكفاية وعلى غير دراية بالقصة الأصلية أو بالصورة النمطية التي نعرفها عن الذئب، هل سيكون من غير المحتمل أن يصدق هذا الطفل نسخة الذئب؟ هل من المستحيل أن يظن أحد الأطفال أن للذئب مبررات كافية لما فعله؟ هنا نصل عند مكنن التحدي في مهمة التفكير النقدي.

أنا ونوح كنّا نعاني مما يسميه العلماء «تأثير التعرض المحض»، كانيمان يفسر ذلك بأن التكرار يجبرنا على إلحاق سمات إيجابية بالشيء الذي يتكرر، أجرى الباحثون تجربة في صحائف الجامعة الأمريكية حيث وضعوا كلمات تركية (أو مصطلحات تبدو تركية) يومياً في مربعٍ يشبه الإعلان من دون أي سياق أو شرح لمعناها، بعد عدة أسابيع طُلب من قراء جريدة الجامعة أن يقيّموا تلك المصطلحات مع مصطلحات أخرى كُثرت أقل كمصطلحات إما تعني شيئاً جيداً وإما شيئاً سيئاً. فاجأت النتيجة كانيمان: «النتائج كانت مذهلة، الكلمات التي كُثرت أكثر كانت هي الكلمات التي حظيت بعدد أكبر من التقييمات الإيجابية، أما الكلمات التي وردت فقط مرة أو مرتين فحظيت بعدد

أقل». التكرار يوحى بـ«الصلاح» أو بموثوقية التقرير. ولهذا دائماً في موسم الانتخابات، اللافتات التي تحمل أسماء المرشحين تُوجد في كل مكان. الألفة في هذه الحالة تشكّل أساساً للثقة، يتابع كانيمان لشرح أن هذا الانحياز الذي يحدث تلقائياً له جذور بيولوجية، وهي حالة وجود محفزٍ ما له القدرة على توليد شعور لطيف أو إيجابي اعتاد المخ اعتباره «حميداً»، وما نترجمه نحن لـ«حقيقي» فلكي تكون النتيجة هي المرونة الإدراكية، وهي ما تستمتع بها أدمغتنا أشد الاستمتاع. عودة لِمَا سبق، كنت أنا ونوح كلما سمعنا وأعدنا سرد القصة الأصلية للخنازير الثلاثة وأزمتهم مرات أكثر صدّقنا أكثر وجهة نظر الخنازير ورأينا فيهم الطرف الطيب، هذا الذئب الكبير لم يكن لديه أي فرصة معنا. سيكون من الأفضل التعرّف على هذه العوامل قبل قراءة أي كتاب، لكن على أي حال، حتى لو أننا لن نلاحظهم إلا بعد القراءة، حينها سنعطي لأنفسنا أفضل فرصة لتصرّف كمفكرين ناقلين واعين بأنفسهم، في حين أن هذه القصة تبدو لنا جميعاً بوضوح محاكاة ساخرة للقصة الأصلية، فإنها ستشكّل تمريناً رائعاً لتمارسه مع صغارك ذوي الخبرة الأقل؛ طرح الأسئلة التي تحفز الوعي بالذات هو المفتاح لقراءة أي نصّ بدءاً من الوثائق التي أنشئت بها الولايات المتحدة وحتى الدراسات العلمية والدينية والأدب والروايات والشعر.

كل التفكير الناقد يُمرّر عبر ذاتٍ ما، بدءاً من اللحظة التي نغادر فيها الرحم، أدمغتنا أجهزة مهووسة بتوليد المعاني، تترجم كل ما يقع تحت يدها باستخدام أي قدر تمتلكه من الوعي في لحظتها، سيصر البشر

دائمًا على تحويل المعلومات إلى رؤية للعالم تحكي القصة التي يودون سماعها، دعونا نساعد أبناءنا في التعرف على من هم رواة القصص.

تنتهي الكثير من فصول هذا الكتاب بتمارين لتجربها مع أبنائك (وبين الحين والآخر دسست لك أنت أيضًا بعض التمارين)، معظم الأحيان ستجد هذه التمارين مرتبة على حسب الفئة العمرية:

- **ذوو الأعين اللامعة:** من خمس إلى تسع سنوات.
- **سريعو البديهة:** من عشرة أعوام إلى اثني عشر عامًا.
- **منطلقو التفكير:** من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا.

تمرين: ومن قال هذا؟

الأسئلة التالية تركز على كيفية تلقي أبنائك قصة ما، وماذا يفهمونه منها.

ملحوظة: لا تُطلق عليهم تلك الأسئلة الواحد تلو الآخر كأنك مدرب جنود، لكن اعرضها تلقائيًا على مدار الحوار بينك وبينهم، اقرأها أولاً ورددها مع نفسك في أثناء أخذك حمامًا ساخنًا، ثم دعها ترحل عن ذهنك، وبعد ذلك استخدمها بأريحية.

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات)

تخير قصة لتحكيها لأبنائك، يمكن أن تختار مما يندرج تحت واحدة من هذه التصنيفات الأربعة:

- حكاية خرافية.

- حكاية طويلة.

- حكاية شعبية.

- حكايات أيسوب.

اقرأها وحدك قبله لتكون على دراية بالنسخة التي اخترتها تحديداً،
ثم اقرأها بصوتٍ مرتفعٍ بصحبة ابنك، ثم اطرح بعضاً من الأسئلة التالية
(ما تجده منها مفيداً أو قد يساعد).

١- مَنْ يروي تلك القصة؟

٢- هل تعتقد أن راوي القصة يعرف كيف تفكر جميع الشخصيات؟
هل راوي القصة إحدى الشخصيات أم هل هو خارج القصة؟
كيف ستحدد ذلك؟

٣- هل أنت واثق بأن راوي القصة يقول الحقيقة؟ لماذا نعم؟
ولماذا لا؟

٤- مَنْ أحببته في القصة؟ ومن لم تحبه؟ هل إحدى هذه الشخصيات
من رواة القصة؟

٥- هل سمعت هذه القصة تُروى بأي طريقة أخرى قبل ذلك؟ أي
راوي قصة أحببت أكثر ولماذا؟

يمكنك أن تطبق هذه الأسئلة على ألعاب الفيديو، وألعاب التمثيل،
وبرامج التلفزيون، والأغاني أيضاً، إذا كنت تعرف نسخاً أخرى
بوجهات نظر أخرى لنفس القصة، اقرأها أيضاً واطرح نفس الأسئلة ثم
قارن الإجابات.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً)

وتلك مجموعة عمرية ذات قدرة أكبر على الاستنباط من مجموعة ذوي الأعين اللامعة، هذه المجموعة قد تلعب بالسردية ووجهات النظر، لذا اختر قصة مشهورة قد تكون مثلاً سلسلة أفلام كـ«حرب النجوم» أو سلسلة كتب كـ«الحائط الأحمر».

١- من يروي تلك القصة؟ وكيف لنا أن نحدد؟

٢- هل أنت واثق براوي القصة؟ لماذا نعم؟ أو لماذا لا؟

٣- أي شخصية تم إخفاء قصتها؟ هل تثق بهذه الشخصية؟ لماذا نعم؟ أو لماذا لا؟

٤- جرّب أن تروي القصة من وجهة نظر مختلفة، إلى أي مدى كان هذا صعباً؟ ما التغييرات التي قمت بها؟

٥- إن رُويت القصة من وجهة نظر الشرير، فهل سيتغير المغزى الأخلاقي منها؟ إلى ماذا سيتغير؟ وما رأيك في ذلك؟

منطلقو التفكير (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عاماً)

عند المراهقين استعدادية أكبر للتعمق في أثناء القراءة، اختر قصة مشهورة لتطبّق عليها هذه الأسئلة (كتاباً أو فيلماً)، يمكن أن تطرحها للحوار في أثناء جلسة احتساء قهوة أو عصائر، اجعل الأمر خفيفاً، هو ليس باختبار.

- ١- من يروي تلك القصة؟ هل ستُحكى من وجهة نظر أحد أطرافها، أو من وجهة نظر راوٍ عليمٍ؟ وكيف يمكنك أن تحدد ذلك؟
- ٢- هل أنت واثق بالراوي أو تصدقه؟ لماذا نعم؟ أو لماذا لا؟
- ٣- أي شخصية تم إخفاء قصتها؟ هل يمكنك أن تخمن لماذا؟
- ٤- أعد سرد القصة من وجهة نظر جماد ما (كأنك شجرة أو وردة أو منزل في الأحداث) كيف يمكن لهذا أن يغيّر في طريقة الحكى؟
- ٥- راجع جسدك، عندما تستمع إلى نسختين مختلفتين من القصة، هل هناك اختلاف ما في شعورك حيال القصتين؟ هل تحمّست أكثر لإحدهما؟ أو تشككت أكثر في الأخرى؟ أو شعرت بشيء مضحك تجاه أي منهما؟ تحدث لنا عن كل هذا.

والآن بعدما اختبر أولادك قوة وجهة نظر راوي القصة (سواء كان الشرير أو الضحية أو الشاهد البريء)، دعونا نأخذ حفنة من المصطلحات التي نستخدمها في أثناء حديثنا عن وجهات النظر تلك، هل يطرح راوي القصة رأيه؟ كيف يمكن لنا استخلاص الحقائق من انحيازات راوي القصة؟ أي الأدوار تلعبها رؤية العالم ووجهات النظر في عملية التفكير السليم؟ في الفصل القادم سنشرح قاموس المصطلحات الذي يتكرر خلال هذا الكتاب وخلال رحلتك لإنشاء مفكرين ناقدين.

الفصل الثاني

فصل الحقائق عما حولها من روايات

«أمثالنا هؤلاء الذين يحبون اليقين، يصابون بالصددمات كثيراً في هذه الحياة».

د. جون أوكونور، خالتي العبقريّة وأستاذة الأخلاقيات في جامعة كاليفورنيا ريفرسايد

«كيف يمكن لها أن تظل تصدق هذا! لقد أريتها الحقائق».

«هذا ليس صحيحاً، إنها منحازة».

«لدى الجميع ما يبرر رأيه».

«إن صحَّ الأمر مع شخص ما فإنه يصح مع الجميع».

«أنا لذيّ إثبات!».

«الله قال هذا».

«إنه صاحب توجه معين».

«أعلم لأنني كنت هناك».

«أنت متحيز!».

... إلخ، حتى الغثيان.

لقد تجولت قبل ذلك في وسائل التواصل الاجتماعي، صحيح؟ الناس يطلقون فيها جملاً كهذه على الدوام متمنين أن ينهوا بها النقاشات في طرفه جفن، ما الذي يدفعنا إلى إسكات الآخرين عن الكلام؟ لماذا نتنظر من الآخرين أن يتفقوا معنا؟ ما حاجتنا الفطرية، إلى أن نكون على صواب، التي قد تدفعنا إلى إبعاد محاولة شخص آخر للتفاعل معنا بوجهة نظر مختلفة عما نحمله؟

تكن تحت رغبتنا في أن نكون على صواب رغبة أكبر في التماثل واليقين اللذين يصاحبان الاتفاق في الرأي عوضاً عن عدم الراحة الذي يولده الاختلاف، وصدقاً هناك سببٌ وجيه جداً لهذه الرغبة في التماثل، حتى وإن كانت تؤرق مضاجعنا الآن، بدأ الأمر كله من عند تجربة صغيرة، لذا سأعرفكم الآن على تاريخ بعيد ومظلم لنظام الفصول التعليمية العامة حول العالم (ولا تأخذها بالمعنى الحرفي لكلمة تاريخ، أنت بالتأكيد تفهم). أريد أن أعود إلى تحليل التبعات الجانبية غير المقصودة التي نتجت عن واحدٍ من أنجح مشروعات البشر على مر التاريخ، وهو مشروع «تعليم الجميع».

مع تطور المجتمع البشري، ظهرت لنا رؤية بارقة: «دعونا نضع الجميع في المدارس، بدءاً من الملكيين ذوي التيجان المطعمة بالجواهر، إلى أصحاب الأراضي، إلى العوام الذين يعملون من أجل قوت يومهم». تطلّب الأمر وقتاً، ولم يعجب المشروع الجميع؛ شعر البعض أن التعليم العام قد يعرقل التدريب الديني، وبذل الاستعماريون ومالكو العبيد جهداً لحظر التعليم عنهم تحت استغلالهم وقمعهم،

وبدا تعليم الفتيات القراءة والكتابة كمضيعة للوقت لكثير من الرجال ذوي السلطة، كما استُبعد المعاقون بالمثل من المدارس.

في عام ١٦٣٥ افتُتحت أول مدرسة مجانية عامة مدعومة بأموال الضرائب في المستعمرات الأمريكية، وبعد أكثر من قرن، ناضل توماس جيفرسون من أجل نظام تعليمي عامٍّ وممتدٍّ من بعد حرب الاستقلال، ولم يحدث إلا سنة ١٨٣٧ حين افتُتح أول مجلس رسمي للتعليم (في ماساتشوستس). وتقريبًا في نفس التوقيت كان مناضلو حقوق الطفل يحاربون من أجل نظام تعليمي ممتد، مدعوم بأموال الضرائب في أوروبا، بهدف الحد من الممارسات المؤذية المصاحبة لعمالة الأطفال. ما بين منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين توسَّع النظام التعليمي الحديث في قارات أمريكا الجنوبية وآسيا وإفريقيا أيضًا، حتى وإن تطلَّب الأمر نضالًا جادًا من أجل التأكد من أن الجميع (كل الأعراق والأجناس والقدرات والطبقات) لهم نفس الحق في الحصول على تعليم مجاني مموَّل، وحتى اليوم؛ المساواة في التعليم ما زالت موضعًا للصراع المستمر.

النسخة الأفضل من حلم التعليم العام كانت تبدو هكذا: القراءة، والكتابة، والحساب لن يظلوا حكرًا على النخبة (هؤلاء الناس القادرون على تعيين معلمين مكرسين لهم، لكن بحلول نهاية القرن العشرين اتفق المجتمع العالمي بأكمله على أن الأطفال من جميع الخلفيات والمعتقدات، في كل مكان على الكوكب، لهم الحق في تعلُّم مبادئ الحساب واللغة إلى جانب بعض من التاريخ والعلوم. النظام المدرسي

العام للجموع كان مبنياً على نموذج تعليمي قادر على توفير عمالة لازدهار الثورة الصناعية. وفي النهاية أصبحت المدرسة هي المكان الذي يتعلم فيه الأطفال ما يكفيهم ليشاركوا في ثورات العلم والتكنولوجيا التي تحدث في عصرهم (والثورات في المجالات الأخرى).

لذا، جعلت الحكومات من التعليم ماكينة، عن طريق صناعة نظام مصمّم لإنتاج مخرجات محددة مباشرة، وظهرت النتائج بالفعل، انظر إلى هذا العالم المدهش الذي نسكنه! بدءاً من المعايير الموحدة لمكونات أي مجال، إلى الممارسات الطبية المتوقعة في أي مكان، تجد نفسك فيه سواء كانت برمنجهام أو مومباي، وحتى وسائل المواصلات الموحدة في جميع القارات، ونظم الزراعة التي تطعم البلايين، ومن نظم الكمبيوترات العالمية إلى السفر في الفضاء والتواصل عن بُعد حول العالم، تفوّق البشر على أقصى ما كان يحلم به المناضلون الأصليون للتعليم، وأقصى ما ظنوا أنه يمكن تحقيقه. باختصار؛ لقد نجح مشروع تعليم الملايين بهذا النظام، لقد خلقنا واقعاً مشتركاً، بنيناه معاً باستخدام قوة المعرفة، هل كان هناك قبل ذلك أي مشروع أنجح من هذا؟ لا أظن ذلك.

في محاولة للاستفادة من كل هذا التعلّم حول العالم، كان التماثل مفتاحاً، نحن نوحّد أبحاثنا لنتمكّن من التطور (والصعود إلى مستوى أعلى!) معاً، نحن ماهرون في خلق الأدوات التي تحوّل اختلافاتنا إلى تماثل، بدءاً من محولات التيار الكهربائية إلى وحدات القياس، والتغييرات من بلدٍ إلى بلدٍ توجد داخل نطاقٍ صغيرٍ ومحدّدٍ بعناية،

والهدف هو أقصى قدرٍ ممكنٍ من قابلية التبادل. لقد جعلنا الإنتاج الواسع للبضائع والخدمات بديلاً للفن الحرفي، وتوزيع جميع هذه البضائع بآلية موحدة هو -فعلاً- واحد من أهم إنجازات القرن العشرين، إنه شيء هائل إن فكرت فيه بإمعان؛ إمكانية السفر حول الكوكب لترى قوة التعليم تتجلى في العمل داخل أي مكان تذهب إليه، ولتحقيق هذا التماثل في المخرجات والرؤية، تُصمَّم المدارس حول العالم تقريباً بنفس الطريقة، النظام التقليدي ذو الاثني عشر مستوى يتحرك دائماً بمعايير ثابتة للتعليم، وطموحه دائماً ما يأخذ تلك الصيغة: لو أن الجميع حصلوا على قدرٍ كافٍ من التعليم، ستكون النتيجة هي الفهم المتبادل والالتزام المشترك تجاه السلام والرخاء العالمي.

لكن وللحسرة، خيبة الأمل وصلت مسرعة، القرن العشرون علّمنا أن الخبرة الإنسانية لها حدود، أذهلنا أينشتاين عندما كشف أن حتى الزمن يتحرك بمعدلات متغيرة تبعاً لتغيّر المنظور، وتساءلنا (بعدما تحطّم إيماننا بوجود مفهوم ثابت للفيزياء) ماذا أيضاً قد لا يكون عاملاً لا يعتمد عليه من الأشياء التي وثقنا بها قبل ذلك، تعلّمنا أن ليس فقط لمجرد أننا نعرف كيف نفعل شيئاً أنه ينبغي لنا أن نفعله، معرفة الشيء لا تفترض كونه أخلاقياً أو فاضلاً، وفي ذلك انظر في «الإبادة العرقية، والفصل العنصري، والصراعات الدينية، والأسلحة النووية، وتلوث الماء والهواء»، انحيازاتنا غير المنظور فيها تتدخل في كيفية تطبيقنا لما نتعلمه، ومعرفة ماذا تفكر لا تساوي معرفة كيف تفكر، حتى إن مارتن لوتر كينج جونيور، بطلنا الأمريكي المناضل من أجل الحقوق

المدنية، اغتيل من أجل رسالته المجتمعية ذات الطابع النبوي. يمكن فهم الأمر بهذه الصيغة: «وظيفة التعليم هي أن يُعَلِّم المرء كيف يفكر بكثافة وبنقدية. الذكاء، بالإضافة إلى الشخصية، هما الهدف الحقيقي من التعليم السليم»، لذا، فجزء من التدريس لأطفالنا يتضمن إدراك الماهية الأخلاقية لِمَا يتعلمون، وليس فقط حفظ المعلومات من أجل الاختبار.

كل حقل دراسة تيار يتدفق بشكلٍ جارٍ، فلا يمكنك أن تخطو فيه على نفس المكان مرتين، بالتأكيد هناك ممارسات محورية ومبادئ مرابطة تعمل كحجر الأساس لدراسة المجال، لكن يتطلَّب الأمر فقط بعضًا من التفكيك لتشاهد هذه الممارسات والمبادئ تتحوَّل وتتطور عبر القرون، على أي حال، يا إلهي! لقد كان هناك وقتٌ لم يكن يعرف فيه البشر حتى ما هو الرقم صفر! الفهم مؤقت حتى وإن كان مفيدًا. أيًا كان ما تتقبَّله في لحظة ما كواقعٍ بديهي قد اختبره قبل ذلك شخص آخر ألقى نظرة على نفس المعلومات من خلال أداة تحليلية، نتساءل عن كيفية استخدام الحقائق، ونتساءل عن حقيقة الحقائق نفسها! حتى حين نتفق حول الحقائق، إن ما نقوله عنها هو الذي يحدد كل شيء، ربما نتفق على أنها تمطر لكن واحدًا منّا سيكون سعيدًا والآخر سيكون منزعجًا!

يكتب طلاب الدكتوراه أطروحات حول موضوعات فُهِمَت بالفعل جيدًا، باحثين داخلها عن الأخطاء المنسية، والفروقات المخفية، أو الاكتشاف الباهر الذي لم يُعثر عليه سابقًا. الأديان لديها عددٌ لا نهائي

من الطوائف والمذاهب التي يكشف كلُّ منها عن تأويلٍ ما لمعتقدٍ لم تنتبه إليه باقي المجموعات، تنشق الأحزاب السياسية إلى فصائل يروج كلُّ منها تعريفات مختلفة لنفس المفاهيم: «الحرية، القانون، الحوكمة، الصالح العام، حقوق الإنسان». دراسة العلوم تستمر دائمًا في إثبات أن مقابل كل مكسبٍ سيتولّد لغز ما قد يستحق أن تُفنى أعمار من أجل حلّه أو ستكون هناك تبعات خطيرة غير مقصودة الحدوث (يا أهلاً بانقسام الذرة).

في أي وقت تظن فيه أنك على يقين، تأكد أن هناك شخصًا ما في مكانٍ ما يستخدم نفس الكلمات التي تستخدمها ولكنه يعني بها شيئًا مختلفًا بالكلية، حتى المصطلحات الأساسية كـ«الإله»، و«الدولة»، و«المدرسة»، و«الحب»، و«الجاذبية» و«الصحة»، كلها مصطلحات تستدعي نطاقًا واسعًا من الصلات والتعريفات، وهذا لا يعني أنه ليس في الإمكان أن نستقر على أي شيء صلب، ولكن التفكير المتبصر يعني إدراك أن حقيقة تعيش داخل قصة، ينبغي للتعليم أن يكون كالدمى الروسية المتداخلة؛ تعليمًا واعيًا بأن كل حقيقة هي حقيقة مركّبة داخل حقائق أخرى تؤثر في شكلها وحجمها: التعليم ليس أبدًا تحديد عدة جاهزة من الإجابات الصحيحة.

الحميمية فوق اليقين

البديل لليقين هو الحميمية، الحميمية تعني معرفة مزيد من موضوع ما بالتوازي مع مزيد من نفسك، تبدو كأنها إحساس بالألفة المتزايدة تجاه حقل معرفي ما، أو جوع إلى مزيد من الاقتراب منه، لتعرف مزيداً من حُججه القاطعة وثغراته التي لا يمكن تجنبها، إنها تعني القراءة لهواة الموضوع المتحمسين والاستماع بصبرٍ إلى منتقديه. الحميمية تقود لكل من الافتتان والرغبة في حماية قيمة الموضوع الجوهرية، هناك غموض وألغاز ما داخل كل موضوع، الحميمية في التعلُّم تعني تطوير علاقة مستمرة تجاه هذا الالتزام، سامحاً له بالتحول والتغيُّر، وهو ما يتطلب التواضع، الإتيقان مجرد خرافة.

ألا تصدقني؟ دَعني أعطيك مثلاً لأوصلك إلى منتهى هذه النقطة، ربما تعتقد أنك تقرأ بطلاقة، إذا وضعت أمامك لغة لا تتحدثها أو أبجدية جديدة أو قواعد تهجئة مختلفة كالأشكال أو الهيروغليفية، فجأة ستدرك عدم إتقانك للقراءة، حتى خلال لغتك الأم، ربما ستجد نفسك مصطدماً بحائطٍ أسمتي من المصطلحات التي لا تفهمها، أنا لا أجد نفسي قادرة على إيجاد معنى من المقالات الطبية في الصحف الأكاديمية بسبب كثرة المصطلحات غير المألوفة، في الواقع معظم متحدثي اللغة الإنجليزية يشعرون بالتحول من كونهم متقنين للغة إلى كونهم ليسوا كذلك بالضرورة عند قراءتهم لشكسبير. الإتيقان التام لأي موضوع ليس سوى وهم، التعلُّم على مدار العمر يُوصَف باعتباره علاقة وليس رتبة.

نعم، هناك حقائق، لكن الحقائق لا تعيش داخل عبوة مفرغة، بل يعبر عنها بشر في سياقات، والأطر المرجعية لتلك السياقات هي التي تؤدي إلى الصراعات التي نعيشها جميعاً، نصدق أننا نشارك حقائق، في حين أننا في الواقع (ها!) نشارك تأويلات لتلك الحقائق، الاتكاء على عدم اليقين قد يبدو خطيراً أو مغرياً، فكّر في منحدر تزلج، عندما تتعلم كيفية التزلج على الجليد ستبدأ في دخول مخاطرته على أبسط منحدر، وعندما تكتسب مهارة ستزيد من الميل وستكتشف توازناً جديداً وقوة للأرجل وحقيفاً مثيراً للحماس لجسدك، يأتي الخطر عندما تجمع مهارتك الحالية (غير الكافية) بمنحدر شديد الميل.

وعند الحصول على التعليم، يبدأ الطلاب بالمنحدرات الأقل ميلاً:

- يحددون علاقتهم بالموضوع.
- يتعرفون على القضية المطروحة فيه مباشرةً.
- يتعلمون كيفية استخدام أدوات الحقل المعرفي.
- يقابلون الخبراء الذين استثمروا حيواتهم في العمل خلاله.
- يستكشفون المدى الأوسع لكيفية وجود الموضوع في العصر الحالي.

ثم يصبح الطلاب جاهزين للتزحلق على المنحدر الأكثر ميلاً في التفكير الناقد من خلال النظر في:

- الآراء المتعارضة.
- الأدلة التي لم تعد تتوافق مع الفهم الحالي للموضوع.

- تحديات الفضيلة والأخلاق.

- كيفية تأثيره فيما يجاوره من موضوعات.

- كيفية تأثيره في المشهد العام.

حاليًا، مع سرعة الإنترنت، والقدرة على التلاعب بالمعلومات (الإحصائيات والدراسات والصور والاقتباسات)، يمكن أن يُسحب أي منّا داخل منحدرٍ زلّقيٍّ من نظريات المؤامرات والمعلومات المغلوطة، قبل أن نرشد أولادنا إلى بداية منحدرات التفكير الناقد؛ هيا بنا نراجع المصطلحات المهمة التي ستتكرر خلال هذه الصفحات (والتي هي بالتأكيد الثلوج والبودرة والألواح) على جانب الجبال الثلجية من التفكير.

القائمة التالية من عشرة مصطلحات محملة بالمعاني وبسوء الفهم قبل أن نتابع قراءة باقي الفصل، أدعوك لتكتب بشكلٍ حرٍّ لمدة دقيقتين حول كل مصطلح (أو اختر بعضًا منها إن كنت لا تملك وقتًا لها جميعًا)، خذ صفحة من الورق واقبلها إلى وضع المستطيل ثم اطوها إلى ثمانية مربعات، ضَع مصطلحًا على قمة كل مربع ومصطلحين في الخلف، اضبط عدّاد وقتٍ واكتب لمدة دقيقتين لكل مصطلح، أيًا كان ما سيطرأ في ذهنك، خريش كل تعريفاتك وتساؤلاتك حول تلك المصطلحات، ماذا تعني تلك المفاهيم في عقلك؟ أستخدم هذا التمرين مع طلاب الكلية حين نبدأ معًا أحد الصفوف، أجمع المصطلحات التي ستتكرر في لقاءاتنا ثم أحصل على انطباعاتهم الأولية غير المصقولة عنها قبل أن نبدأ في استخدامها معًا، وهذا يساعد كلاً منا في كشف الافتراضات المخفية التي نحملها تجاه المصطلح.

دعونا نبدأ هنا، معكم (وربما مع أبنائكم المراهقين!)، جرّبها مع شريك حياتك، تحدّث حول تلك المصطلحات مع أخ أو صديق مقرب عبر الهاتف أو عبر محادثات نصية طويلة، اطرق أبوابًا متنوعة للموضوع، كلما فكرت في هذه المصطلحات كان أفضل:

- حقيقة.

- تأويل.

- دليل.

- منظور.

- رأي.

- كبرياء.

- انحياز.

- معتقد.

- قصة.

- رؤية كونية.

الآن دعونا نلقي نظرة على تعريفاتي، أبقوا على كتابتكم الحرة في المتناول أيضًا في حين تقرأون باقي الكتاب.

حقيقة:

المثل الشهير الذي يقول: «الحقائق هي أشياء عنيدة»، غالبًا ما يُنسب إلى الأب المنشئ للولايات المتحدة جون آدامز، ولقد قاله

بالفعل لكنها كانت إحالة إلى مصطلح شهير صكّه الفرنسي آلان رينيه ليسيدج. حتى هذا الإسناد الصريح له طبقات أخرى من الحقائق التي تتطلب بعضًا من التحقيق للوصول إليها، مدهل؟ صحيح، لذلك ماذا يعني أن نصف حقيقة ما بكونها عنيدة؟ عندما نتحدث عن حقيقة فنحن نتحدث عن معلومات غير قابلة للتعديل ولا يمكن الخلاف عليها.

أمثلة:

- يغلي الماء عند ٢١٢ درجة فهرنهايت و ١٠ درجات سيليزية.
- هرب فريدريك دوجلاس من العبودية في يوم ٣ سبتمبر ١٨٣٨ عن طريق السكة الحديدية.
- أَلقت الولايات المتحدة أول قنبلة نووية على هيروشيما في اليابان يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥.
- مجموعات حيوان النمس تُسمّى بـ«البيزنس» (لكنك لم تكن تعلم هذا!).
- بطول يبلغ ٦٦ ألف ميل، نظام الدورة الدموية في الإنسان قد يلتفُّ حول كوكب الأرض أكثر من مرتين كاملتين ونصف (شيء يذهب بالعقل!).
- الهند لديها أكثر من ١٩٥٦٩ لغة ولهجة، ٢٢ منها تُعتبر لغات رسمية (مدهش!).
- وُجدت غانا كإمبراطورية ضخمة في القارة الإفريقية بداية من القرن السابع وحتى القرن الثالث عشر.

الحقائق هي أشياء فعلية، ليست بالاحتمالات أو التأويلات، يمكن للحقائق أن تثبت أنها سليمة بشكلٍ متكررٍ، العلوم والرياضيات بالتحديد تأتي لنا بالحقائق، والقائمون على هذه المجالات يستخدمون تجميع المعلومات وأدوات القياس ومنهجيات البحث المؤكدة ليتعرفوا على تلك الحقائق. الحقائق لا تحكي قصصًا، لا توفر إرشادًا أخلاقيًا أو مبادئًا، الحقائق لا تهتم بدينك أو توجُّهك السياسي أو أي الدرجات العلمية تحمل، وبأخذ هذا في الاعتبار فإن أيضًا معظمنا يريد أن يفعل شيئًا ما بالحقائق، نادرًا ما نقنع بأن نقول الحقائق من دون أن نحاول إثبات نقطة ما، دائمًا ما نريد شرحها.

التأويل:

اطرح تأويلك. الفلسفة، والتاريخ، والعلوم السياسية، والأدب، يتكئ كلُّ منها على التأويلات والأشكال المختلفة للحقائق، ولهذا قد يكون مربكًا للأطفال أن يفصلوا الحقائق عن التأويلات التي نعطيها لهم، انظر إلى اثنين من تأويلات واقعة تفجير هيروشيما:

- إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما في اليابان يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥ كان فعلًا حربيًا غير مبرر من قِبَل الولايات المتحدة.

- إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما في اليابان يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥ كان فعلًا حربيًا ضروريًا من قِبَل الولايات المتحدة.

إنها معلومات صريحة؛ «أن نوعًا معينًا من القنابل استُخدم، وأن هناك وقتًا معينًا أُلقيت فيه تلك القنابل، وأن المدينة دُمِّرت بالكامل»،

والتعليق الأول يرى أن إلقاء القنبلة كان «فعلًا غير مبرر»، وهذا تأويل للحقائق، إنها قصة ما يحكيها راويها، أما التعليق الثاني فإنه يؤول نفس الحقائق بشكلٍ مختلفٍ، إنه يستخدم عبارة «فعل مبرر» ليصف بها التفجير. إن قابل أطفالك إحدى تلك المقاربات في كتابٍ دراسي، فإن اختيارات تلك الكلمات تولّد انطباعات غاية في التباين في دماغ الطفل، إن وجود أحد تلك التأويلات لن يغيّر شيئاً في مدى واقعية تلك الحقائق، على أي حال، يمكنك أن تحصل على كعكة الحقائق الخاصة بك ثم تؤولها أنت، لكن من المهم أن تفصل الحقائق عن تأويلاتها عندما تقرأ أو تذاكر (انظر في نهاية هذا الفصل حيث ستجد تمريناً يساعد طلابك على القيام بهذا). أحد المخاطر المتأصلة في الكتب الدراسية هو أن رائحة السلطة غير المعلن عنها تفوح منها، عندما يُلخّص طالب فصلاً من كتاب أو إجابة أسئلة عن قطعة للقراءة، فإنه يتعلم أن يعامل تأويلات الحقائق الموجودة في الكتب الدراسية على أنها جميعاً حقيقية (التأويلات التي تكون ذكية أحياناً، وأحياناً أخرى ليست ذكية بالضرورة)، لهذا يحتاج الطلاب إلى التدريب على التفرقة ما بين التأويل والحقائق، هناك مقاربات أكثر (بمعنى الرؤى المتعددة لنفس المعلومات) قد تساعد على تقليل النزوع نحو خلط الحقائق بتأويلاتها أيضاً.

الدليل:

بعيداً عن دراما قاعات المحاكم، الدلائل هي المفتاح لدراسة التاريخ، والعلوم السياسية، وجميع العلوم الطبيعية، والقانون، وحتى

الأدب، الدلائل هي المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه الطلاب ليدعموا عرضهم لطرح ما حول حقائق أولوها، ما الذي يمكن اعتباره دليلاً؟ مصادر ومعلومات الأبحاث تعد أكثر أنواع الأدلة شيوعاً، المصادر الرئيسية تشمل نطاقاً واسعاً من الأدوات والتقارير: الأشياء، والرسومات، والمواقع الأثرية، والملفات (الخطابات، والسجلات، والمعاهدات، والمذكرات، والرسائل، والصحائف، والمخطوطات)، والأفلام، والمرصود من قبل شهود العيان، والمصادر الثانوية هي المصادر التي تعطي تعليقاً ما على المصادر الأصلية؛ ك مقال في جريدة يستشهد بدراسة بحثية، أو كتاب دراسي يصف مرحلة تاريخية ما، أو تعليق حول عمل أدبي، يمكن أن تُرتب المصادر وفقاً لمدى موثوقيتها، ومدى ثباتها عبر النسخ المتعددة، ومدى موثوقية كاتبها/ صانعها/ شاهدها/ إلخ. تُستخلص الأدلة أيضاً من البيانات البحثية، يمكن للأبحاث أن تُقدّم في شكلها الخام (من دون تأويل)، وعندما يشرحها الباحث فإنه هنا يؤول البيانات، وهذا ما يحدث في قاعة المحكمة؛ يؤول خبير البيانات التي تعمل كأدلة في المحاكمة، لذا فالأدلة تعني نفس ما نسميه بـ«الحقائق» بعدما نشرح كيف تدعم تلك الحقائق افتراضاً أو زعمًا ما.

المنظور:

عندما نتحدث عن تبني رؤية، فهذا يعني أننا جمّعنا الحقائق، والأدلة، والتأويلات المتاحة لنا في الوقت الحالي، والآن نرى الأمر من خلال إطار مرجعي ما، من حيث أجلس؛ هذا ما أراه حول هذا الأمر،

في هذه اللحظة، باعتبار من أكون وما أعرفه وكم ما قرأته ودرسته، هذا ما عندي لأقوله حول الأمر. إحدى الأفكار المقنعة التي استمتعت بها فيما يخص الاطلاع على مفهوم «الرؤية»، قدمها جلين باري في كتابه «التفكير الأصيل»، وهو يعتقد أن فكرة أن رأيي الشخصي (رؤيتي) يُشكّل أهمية بدأت من عند الفنون منذ أكثر من نصف قرن، يوضّح باري أن هناك انتقالًا عاصفًا حدث خلال عصر النهضة: «المنظور كما يعرفه أي طالب فنون، هو تقنية رسم لوحة من خلال نقطة ما تنحسر فيها خطوط الإبصار بعيدًا بقدر ما عن الشيء المرسوم، الأشياء الأقرب للناظر دائمًا ما تكون أكبر، ولهذا تكتسب أهمية أكبر، في حين أن الأشياء الأبعد غالبًا ما تتضاءل أهميتها»، في هذا النمط من الرسم؛ تُوضع الزاوية التي ينظر منها الفرد في بؤرة الاهتمام في أثناء التصميم، يشير باري بيقينٍ قاطعٍ إلى حدوث نقلة مهمة في الطريقة التي يفكر بها البشر كنتيجة للثورة الفنية، بعد «المنظور»، بدأ التفكير في العين البشرية والوعي كشيئين منفصلين عن باقي الأمر، أصبح البشر هم المراقبون المنفصلون لِمَا أصبح يُعتَبَر العالم المهمش والمستبعد، وقبل «المنظور» كان البشر جزءًا لا يتجزأ من العالم وليسوا منفصلين عنه، انتقل البشر إلى دور المحلل، لينقروا ويستحثوا ويستكشفوا ويفحصوا ويفهموا العالم، عوضًا عن مجرد الاكتفاء بالمشاركة فيه، الأداة المسماة بالمنظور في الرسم غيّرت أيضًا ما كنّا نعتبره مهمًّا.

لقد أعطانا المنظور القدرة على رؤية أنفسنا كـ«مراقبين منفصلين»، لقد منحنا أنفسنا الحق عبر السنوات في أن نتبنّى أي رؤى بثقة لمراتٍ

كثيرة من دون تفكير في كيف يرى الآخرون العالم. في هذا الكتاب الثوري «تأثير النظرة الشاملة»، يشرح فرانك وايت كيف يمكن للمنظور أن يتطور أو يتحطم وفقاً لتغيّر موضع الشيء محل الرسم. قبل السفر عبر الفضاء، زاوية النظر الوحيدة التي عرفنا بها كوكبنا الأم كانت هي الزاوية التي رأيناها منها أرضاً مسطّحة ومنبسطة كما نقف عليها، حتى حين أقنعنا العلماء أن للأرض شكلاً دائرياً فإن تجربة معيشتنا على الكوكب لم تعطينا هذه المعلومة بطريقة مباشرة. عندما تخطّى رواد الفضاء الغلاف الجوي واطّلعوا على الأرض ككلّ من الفضاء، والتقطوا صوراً لكوكبنا الأزرق الرخامي، فإنهم أكّدوا ما استنتجته العلماء. وفجأة تغيّرت رؤية رواد الفضاء «لكيف يرون ويفهمون كوكب الأرض»، مايكل كولينز، أحد رواد فضاء رحلة أبوللو ١٣ وصف هذا التغير: «الشيء الذي فاجأني حقاً هو الكشف عن وجود من الهشاشة، ولا أعلم... لا أعلم... حتى هذا اليوم كان دائماً لديّ إحساس بأنها صغيرة، لامعة، جميلة، كالبيت، وأيضاً هشة»، الكوكب العملاق فجأة بدا هشاً من زاوية رؤية أكثر وضوحاً، لذا المناظير هي عبارة عن لقطات خاطفة تعتمد على كمّ محدودٍ من المعلومات، وتجعل ما هو قريب منك يبدو أكبر مما هو على مسافة أبعد أو مما لم يظهر بعد في مجالك البصري، المنظور متعلّق بالنظر إلى ما تراه، وبكيف تراه، ولماذا تراه، وبالطريقة التي تراه بها، وبما لم ترّه بعد.

الرأي، والتحامل، والانحياز:

أن تملك رأياً هو شيء آخر غير أن تكون منحازاً، (المزيد حول الانحياز آتٍ خلال ثوانٍ) الرأي الذي تشكّل بعناية هو الرأي الذي شكّلته بعدما أخذت في اعتبارك أكثر من منظور (وليس فقط منظورك بالكاد) وبحوثاً تم اختبارها، ثم وصلت منها إلى استنتاج (فقط للحظة الراهنة). الرأي هو ما تزعم به بعد تأويلك لمجموعة بيانات، حكم مبني على حقائق، كثير من الناس يعبرون عن تحامل وانحيازات، مطلقين عليها آراء، وهي ليست كذلك.

التحامل لا يُبنى على البيانات، إنه يُبنى على افتراضاتٍ مغلوطة غالباً ما تنتج عنها صورٌ نمطية، على سبيل المثال، «الأولاد يحبون اللعب في الطين، أما الفتيات فلا»، لتكوين رأي عاقل سيتطلّب الأمر دراسة سلوك عينة كبيرة من الأطفال في ظروفٍ مختلفة من وجود الطين ثم الحصول على نتيجة بناء على البيانات التي جُمِعت ثم يتبع ذلك تأويل الحقائق.

الانحياز هو حين تستخدم تجربتك الخاصة كنقطة مرجعية للرأي الذي تبنته، على سبيل المثال، إن سألتني حول الطين والأطفال فسوف أخبرك في الحال عن أطفالٍ الخمسة، وعن أن كلا الجنسين منهم يستمتع بإغراق نفسه في الطين، هذا لاستثنائي الشديد، لذا سوف أكون ميّالة إلى افتراض أن أولاد الجميع يحبون الطين كما يحبه أولادي، بصرف النظر عن الجنس، وهذا لانحيازي. جميعنا ذو انحياز (وهذا غير قابل للتجنب إن كنت تعيش في جسدٍ، وهذا ما نعيش فيه جميعاً). أن تعي كونك منحازاً هو نصف الطريق للتفكير النقدي الواعي بذاته،

يمكننا التغطية على تحاملاتنا والانفصال عن انحيازاتنا حين نصبح واعين بها، ثم يمكننا أن نختار أن نأخذ في الحسبان المعلومات الكائنة أمامنا، معرفة كيفية تبني رأي سليم التكوين، رغم التحامل والانحيازات، هي أحد أهداف التعليم (وأهداف هذا الكتاب).

في المرة القادمة التي يقول لك أحد فيها «هذا هو رأي فقط»، اكشف عما إذا كان في الحقيقة رأياً أم تحاملاً أم انحيازاً عن طريق سؤالهم عن الدليل، فإن أجابوك بإجابة نمطية أو بتجربة شخصية، إذن فهذا ليس رأياً، هل فهمت؟ أراك الآن وأنت متجه مباشرة إلى لوحة المفاتيح وإلى خانة التعليقات على السوشيال ميديا، أليس كذلك؟

المعتقد:

المعتقد يختلف عن الرأي وعن التحامل وعن الانحياز، المعتقد هو قناعة يؤسسها الدين والهوية والثقافة، المعتقد لا يعتمد على الأدلة، لكنه يتبلور عن طريق تشكيلات من الأفكار التي تختارها لنفسك. مثال عظيم على المعتقدات المتصارعة حدث في الهند في أثناء الثورة الهندية سنة ١٨٥٧، بدأ التناوش حين قُدم مخزون طلقات جديد لأسلحة المجندين، الجنود الهنود من الخلفيات المسلمة والهندوسية كانوا مدربين على استخدام أسنانهم لفتح العبوات الحاوية للبارود، ومن ثم سكب محتواها داخل بنادقهم، انتشرت الشائعات حول أن حاويات البارود زُيّنت بدهون لحم الخنزير ولحم البقر، نتيجة لذلك رفض المسلمون تعبئة بنادقهم بسبب اعتقادهم بأن تناول لحم الخنزير حرام، ورفض الهندوس بناءً على أسباب شبيهة، لاعتقادهم بأن البقر

كائنات مقدسة، ولهذا لا يمكنهم ابتلاع دهون لحم البقر. البريطانيون الذين لم يقبلوا تلك المعتقدات وكانت لهم معتقداتهم الخاصة التي تنص فقط على وجوب طاعة الجنود لأوامر قائدهم الأعلى، حاكموا الجنود محاكمة عسكرية على عصيانهم، وسُجن الجنود وحُكم عليهم بالأعمال الشاقة.

يرى كثير صراع المعتقدات هذا على أنه الشرارة التي أشعلت الثورة الهندية، حتى رغم وجود كثير من العوامل الأخرى في الصورة. نشعر بالمعتقدات كشيء شخصي، بطريقة قد لا نشعر بها حيال الآراء، كما أن المعتقدات أكثر هشاشة أيضًا؛ فهي تركز على حيزٍ من التشابكات.

ما بين الإيمان، والمنطق، والثقافة، والقناعة الشخصية، وهوية المجتمع، المعتقدات الشائعة تتضمن كيف ننظر إلى النصوص الدينية، وماذا نتبع من أكواد حين نأكل، وكيف نُشكّل أخلاقيتنا، وماذا نتصور أن يكون حقيقياً حول حلفائنا ومعارضينا المتوقعين، كثير من نقاشاتنا الأكثر سخونة تتأجج من عند اختلاف المعتقدات، المعتقدات عنيدة وغالبًا ما نضعها في المقدمة، نُقلّب الحقائق من أجل أن تدعّم معتقدًا ما، وليس العكس، وغالبًا ما يتطلّب الأمر تجربة أو مواجهة قهرية لتغيير مسار معتقد، (سيُسهب في ذلك في الجزء الثاني)، معتقداتنا يمكن أن تكون مقاومة للحقائق التي تتعارض معها.

القصة:

القصة في سياق التفكير النقدي لا تشير إلى الروايات والكتب المصوّرة، يضع البشر الحقائق والتجارب والعقل والمنطق جميعها معاً لتوليد القصة التي تدعّم مكانة أحدهم في هذا العالم. القصة هي الخيال أو السردية التي نخلقها لنضع في قالبٍ واحدٍ كلّ تلك الأجزاء المتشابكة من البيانات والآراء والمعتقدات والمناظير لنفسِ الواقع كما نراه. في الثقافات التقليدية، السرديات هي الأدوات الأكثر فعالية لحفظ الحقائق التي تحافظ على بقاء تلك المجتمعات، الثقافة العصرية غالباً ما تخطئ في تسمية هوسها بالعلم والبيانات، لتعتبر أن ذلك هو الموضوعية، متناسية أن الخبراء يضعون الأبحاث داخل قصص طوال الوقت، حتى في التاريخ والعلوم، كيفية فهمنا للمعلومات تتأثر بالقصص الأكثر شمولية التي تعزز ثقافتنا وجودها، كثير من الكتب غير الأدبية الحديثة (من تأليف مالكوم جلاذويل، وجيم كولنز، وبرينيه براون، وإيزابيل ويلكرسون على سبيل المثال) مبنية على هذا الطرح بالتحديد، ومن ضمنهم هذا الكتاب.

ومثالٌ مألوفٌ على كيفية عمل القصة في ثقافتنا يمكن أن نراه في برامج فقدان الوزن، كل منهجية تقوم على دراسات تعرض كيف يمكن اتباع نظام غذائي معين أن ينتج خسارة في الوزن، وفقاً لهذه المعطيات فإن هذه البرامج تعتمد على التدقيق في حساب السعرات المحروقة في مواجهة السعرات المستهلكة، وغالباً ما تكون هناك قصة عن الصحة والجمال واللياقة موجودة ضمن شرح مزايا اتباع هذا النظام الغذائي.

تحديد «الحبكة» التي يقوم عليها التأويل هو ما يكشف أهداف رواية القصص، سوف نستمر في فهم الدور الذي تلعبه رواية القصص في التفكير النقدي عبر هذا الكتاب.

الرؤية الكونية:

آخر مصطلح في قاموسنا لمصطلحات التفكير النقدي هو الرؤية الكونية، الرؤية الكونية تعني تحديداً ما يتكوّن منه المصطلح «كيف ترى الكون من حولك؟».

الرؤى الكونية مفهوم أشمل من مفهوم وجهات النظر، وجهة النظر لقطة خاطفة، لكن الرؤية الكونية تشمل مجموع ما تعرفه وما لا تعرفه، وغالباً ما تعمل كمصفاة غير واعية حين تقرأ معلومات جديدة. الرؤى الكونية أكثر صعوبة في التعرف عليها لأنها تشبه الجلد، طبقة الحماية غير المرئية التي تسمح لعقلك بالاصطدام مع عقول الآخرين مع البقاء منفصلاً عنهم، رؤيتك الكونية تحدّد لك كيف تولّد المعنى من كل تفاعل، ومن كل جزء بسيط من البيانات، ومن كل لمحة مما تظن أنه الحقيقة.

واحدة من أمثلي المفضّلة على صراعات الرؤى الكونية حدثت عند إطلاق فيلم ديزني الكرتوني «مولان»، سنة ١٩٩٨، شخصية الفيلم الرئيسية فتاة تتحل شخصية رجل، لتشارك في الخدمة العسكرية حتى تجنّب والدها المسنّ غير القادر خطر أن يفقد حياته كجندي. نسخة ديزني من الفيلم كانت تتضمن أغاني تدور حول بحث مولان عن أن تكون مقبولة ومفهومة لما هي عليه بذاتها الحقيقية، من دون خضوع

للصور النمطية البطيركية. تحمّس الأمريكيون للقصة وهم يرون رؤيتهم الكونية حول الحرية والفردانية يُحتَفَى بها، لكن على أي حال، حين صُدِّر الفيلم إلى الصين، كان الجمهور الصيني في حالة من الارتباك، مولان هي قصة تخصُّهم، والعظة من القصة كما يرونها هي أن الأخيار في المجتمع التقليدي هم من يضعون مصلحة عائلاتهم ومجتمعاتهم كأولوية قبل طموحاتهم الشخصية. لذا مع الوضع في الاعتبار أن هذه القصة نشأت في الصين، فهذا يخبرنا أن نسخة ديزني منها قد تعثّرت كثيراً في رؤيتها، وسبب حدوث هذا ليس لغزاً، لقد أُعيد تخيُّل القصة لتلائم الرؤية الكونية الأمريكية.

الحالة الأكاديمية

تبدو كل هذه المصطلحات واضحة بما فيه الكفاية حتى تجد نفسك في مناظرة مع شخص ما تحبه لكنه ينظر إلى نفس الأمور بطريقة مختلفة، فجأة ستتساءل عما إذا كان فقط وببساطة يُظهر انحيازه، أو ما إذا كان يسرد رأياً ما، أو ما إذا كان يقذف في وجهك بحقائق أنت لا تريد أن تسمعها، ربما كنت مسترسلاً بطلاقة في التعبير عن معتقداتك ثم فجأة... بوم! ما كنت تثق دائماً بأنه الحقيقة حُطِّم بدلائل مباشرة غير قابلة للالتباس. ربما ارتكبت «خطأ» قراءة ما يوجد على الجانب الآخر ثم فجأة وجدته منطقياً بالنسبة إليك، ثم الآن أنت لا تعرف أين يمكنك أن تضع هذه المعلومات الجديدة، خلخلة وجهة النظر غالباً ما تكون مؤلمة تحديداً حين تكون تكلفتها هي مجتمعتك أو زواجك أو أفراد

أسرتك، لا عجب أننا نحرص على وجهات نظرنا الشخصية، الجميع يريد استقطاب أعضاء جدد لـ«فريق الأفكار الصحيحة»، ونحن أكبر أبطال لوجهات نظرنا الشخصية!

لكن التعليم يعتمد على القدرة على أن تكون فضوليًا مع الحفاظ على شغفك محايدًا، ألا ينبغي لنا أن نكون شغوفين حيال آرائنا ومعتقداتنا؟ نعم، علينا، من أجل أنفسنا، لكننا أيضًا نحمل مسؤولية تعليم أولادنا وأنفسنا كيف نكون فضوليين من دون دفاعية، الأخبار الجيدة هي أن العمل الأكاديمي يمكن أن يكون مكانًا آمنًا للاستكشاف والتفكير، الحالة الأكاديمية تحمي الطالب إن تبناها، لأن مهمة المعلم فيها ليس أن يصدر الأحكام في كل مرة يقابل فيها وجهة نظر جديدة، وبعبارة أخرى قراءة وجهات النظر التي لا يتبناها المعلم لا تعتبر تحديًا لنزاهة أي أحد، القراءة ليست تصويتًا، مهمتك الوحيدة هي أن تمرر عينيك عبر الصفحة أو الشاشة، هذا كل ما في الأمر.

يمكن التعبير عن الحالة الأكاديمية بهذه الطريقة:

- كن مراقبًا للكاتب.
- كن على علم بأن وجهة نظر الكاتب موجودة، اعرف كيفية وجودها بالنسبة إلى الكاتب.
- اسمح لوجهة نظره بأن توجد بجانب وجهات نظرك الحالية.
- اصنع الشاي، اجلس بهدوء، اقرأ، كن فضوليًا، استوعب.
- طوّر فهمك أولاً، ثم لاحقًا طوّر نقدك.

عندما نفسح مساحة لوجهات النظر المتعارضة، فإن فهمنا يتفتح، كأنا نعيد رسم لوحات عصر النهضة من عدة نقاط مراقبة بدلاً من نقطة واحدة، تعلم أولاً ثم ولّد ملاحظاتك، وعاود التقلب في هذه الصفحات في أي وقتٍ تمر فيه على أيٍّ من تلك المصطلحات في الفصول القادمة إن كنت في حاجة إلى إعادة تذكير.

تمرين - مصفاة الحقائق

هذا التمرين عظيمٌ جدًّا لتُجربَه على نفسك أولاً، ثم بعد ذلك ادعُ مرافقاً لينضم إليك، إن كان عندك بالفعل واحدٌ في البيت، عندما تبدأ في اعتياد هذا التمرين، سيكون في إمكانك أن تستخدم فهمك ليرشدك في محادثاتك مع الأطفال الأصغر أيضاً، لنصف الحقائق من السرديات المحيطة بها سنبداً بتحديد ما لا يمكن استبعاده، دعونا نجرب مع الأخبار المنشورة، ابحث عن الأسماء، والتواريخ، والأحداث، والأفعال المؤكدة، والأماكن، والأشياء المتضمنة في الحدث.

١ - اختر أحد الأخبار.

٢ - اعر على مصادر أخرى لنفس الخبر، اطبع منها عدة مرات إن كان في إمكانك (٣ أو ٤).

٣ - حدّد كلّ الحقائق الموجودة في إحدى تلك المقالات.

٤ - اذهب إلى المقال التالي، وحدّد الحقائق كما هي موضّحة فيه مجدداً، ثم كرّر هذا مع كل ما جمعته من مصادر.

٥- راجع مرتين لترى ما إن كانت أي حقائق محذوفة من أيٍّ من الأخبار (إن كان هناك ما هو محذوف) (تذكّر أن الحقائق هي ما لا يمكن استبعاده).

٦- لاحظ أين تقع الحقائق في كل مقالة (في المقدمة أو المنتصف أو النهاية أو موزعة عبر المقالة).

٧- ضع الحقائق في قائمة على صفحة بيضاء جديدة، وقرأها بالترتيب الذي سُرِدَت به في المقالة من دون أن تعطيه أي تأويل، ثم كرّر هذا مع كل مقالة.

٨- هل ترتيب الحقائق يخبرك بأي شيء عن أولويات كل مقالة؟
٩- هل أيٌّ من الحقائق التي حددتها تبيّن في الحقيقة أنها تأويلات وليست حقائق؟ (بما أنك الآن قرأت صيغاً عديدة لنفس الموضوع) على سبيل المثال، إن كنت تقرأ حول حادثة إطلاق نار، فهل دوافع الفاعل سُرِدَت على أنها حقيقة أم على أنها محتملة؟ إن كنت تقرأ حول حريق غابات، فهل وُصِف سبب نشوبه على أنه حقيقة أم على أنه نظرية؟

تحديد الحقائق أولاً يساعد في تحديد تأثير تأويل الكاتب، وقراءة نفس الخبر عدة مرات يجعل من الأسهل تصفية الحقائق عن تأويلاتها.
نصيحة محترف: قراءة خبرٍ يتبنّى انحيازاً ما أنت لا تتبنّاه سيسهّل عليك تمييز الحقائق فيه، لأنك ستري التأويل بشكلٍ أوضح بما أنك واعٍ لما فيه من انحيازٍ.

دعونا نأخذ قاموسنا للتفكير النقدي إلى الفصل القادم لنفكر في
الطرائق التقليدية التي تتعامل بها الدراسة مع الحقائق، والانحياز،
والتأويل، وأكثر.

الفصل الثالث

مزيد من إثارة الفضول - التعليم المؤطر للمشكلة

«أظن أن ما تعلمته من تريكس كان هو القدرة على طرح الأسئلة وتحجيم حاجتي إلى الإيمان بأني بالفعل أملك الإجابات».

مو ويليامز، كاتب ورسام قصص أطفال

من الصعب التعايش مع الأسئلة التي تطرق الباب من دون أن نكون جاهزين بإجابة، رغم أن التعلم الأكثر فاعلية على الإطلاق هو الذي يأتي عن طريق التساؤلات الملحة.

هل تعرف من الذي يتفوق علينا في التعامل مع هذا الإلحاح؟ نعم، أنت على حق، طفلك ذو السنوات الثلاث وأيضاً طفلك ذو السنوات الخمس، في الواقع أي شخص تحت سن العاشرة، عند سن العاشرة نكون قد استأصلنا تلك الطبيعة الاستجوابية من داخل أطفالنا. بحلول الصف السادس يخسر معظم الأطفال «اندهاشهم الطفولي»، ويصبحون إما خاضعين متعاونين للاختبارات، وإما ننزلهم إلى مرتبة أدنى ليدخلوا في تصنيف «الطالب غير الجيد بما فيه الكفاية». عند سن السادسة عشرة

يصل معظم المراهقين إلى مرحلة التعجرف، والاعتزاز بالذات، وادعاء معرفة كل شيء بطريقة قاطعة أحادية الرؤية، كيف حدث هذا بحق السماء؟

مرحلة التحول إلى «المراهق ذي الرأي الحاد» يجب ألا تُعتبر بالضرورة مرحلة حتمية مزعجة في سلم التطور.

لكن نظامنا التعليمي قد عمل بأقصى جهدٍ على إزالة الاندهاش الطفولي واستبدال إعطاء الإجابات الواثقة لمدة عقد كامل به.

بشكلٍ متكررٍ، مع وصول الأطفال إلى الصف الثالث يبدأ حسُّ الاندهاش الذي دخلوا به الروضة، وما يتبعه من تفكير أصيلٍ ومستقلٍّ، في الانسحاب تدريجيًّا، ثم يختفي تمامًا عند الوصول إلى الصف السادس.

تفكير الأطفال يركز على ما يتوقعه منه المدرس، أحد العوامل الرئيسية المسؤولة عن خسارة هذا الحس هو الفشل في تغذية الأصوات الحقيقية لهؤلاء الأطفال بشكلٍ سليم.

الأصوات الحقيقية للأطفال؟ هل تقصدين تلك الأصوات المرتفعة الصاخبة التي تتبعنا إلى داخل الحمام؟ نعم، أقصد تلك الأصوات.

في يومٍ عيسٍ، صُمِّم التعليم التقليدي ليرَوِّج لإتقان المنهجيات والإجابات الصحيحة، إنه ليس متددى للمثابرة على الفضول، وليس مكانًا لتنسى نفسك داخل متاهة من التشابكات التي تهم الطفل. في الواقع، في معظم الوقت، يختار المدرسون المشكلات التي ينبغي

للأطفال الاهتمام بحلّها، لذا من المتوقع أن يزدهر الفضول الطبيعي
للأطفال خارج الساعات المدرسية، شكرًا جزيلًا لذلك.

طرح الأسئلة من النوع التفكيكي الاستفزازي المثير للفضول هو
الطريقة الأكثر إثارة في التعليم، والأقدر على الإيصال إلى نتائج فكرية
خارقة، كما أنها تؤدي إلى الشعور بالسعادة كعرض جانبي.

السعادة، والابتكار، والتفكير الإبداعي، والطلاقة، هذه هي العملة
(ومصدر البهجة) للإنسان المتعلم بشكل سليم.

كيف خسرنا (كمجموعة من البشر المتخرجين في المدارس)
رغبتنا الدائمة في المعرفة، وبدلاً من ذلك اكتسبنا سمة ادعاء معرفة كل
شيء؟

لا تعتمد عليها - المهمة الأكاديمية

معظم المدرسين يستخدمون الاختبارات والتكليفات الكتابية
كإثباتات على التعلم، «أداء الاختبارات، التسميع الشفوي، الكتابة
التفسيرية» تركّز على ما سمّاه المصلح التعليمي باولو فريري «المفهوم
البنكي للمدرسة»، حيث يودع المدرس العالم بكل شيء المعلومات
التي يراها مناسبة للاستقرار داخل المساحات الفارغة من عقل الطالب،
ثم على الطالب بعد ذلك أن يسرد تلك المعلومات عبر الكتابة أو
الاختبارات أو العروض الشفهية، ثم يُقيّم الطالب بعد ذلك على حسب
الأجندة التعليمية للمدرس، من دون النظر إلى المعنى أو المقصد وراء

ما سرده الطفل . وهذا لا يُقصد به أن سرد المعلومات لا يمكن أن يكون ذا قيمة في حياة الطالب، لكن فريري يطلب منّا أن نفكر في كيف أصبح ما يخسره الطالب حين يسرد المعلومات هو -أساسًا- الهدف الرئيسي من عملية التعلم.

هذا النمط من التعليم يفترض أن هناك معلومات صحيحة يلزم حفظها (بالضرورة يتم الحصول عليها عبر كتاب أكاديمي، أو معلم، أو طاقم عمل مدرسي)، مدرسو التاريخ يتفقون «اعتاد الطلاب -في العادة- العمل من كتاب أكاديمي، ورؤية التاريخ كمجموعة من الأجوبة الصحيحة»، يصف فريري هذا النوع من التعليم بهذه الطريقة: «التعليم هو المعاناة بسبب إعياء السرد»، ثم يشرح: «يتحدث المدرس عن الواقع كما لو كان استاتيكيًا عديم الحركة، قابلاً للتجزئة وقابلًا للتوقع».

ثم نتساءل لماذا تُشعرنا المدرسة بالضجر، يُذكرنا فريري أن أطفالنا يأتون إلى الفصول ممثّلين عن آخرهم بالتجارب والمعتقدات الحاضرة بالفعل في حيواتهم، والتي ترشدتهم بالفعل في كيفية تفاعلهم مع أي مادة تُدرّس لهم، لديهم أجسام يريدونها أن تشارك في التعلم وليس فقط عقول، لديهم ثقافات وعائلات وعادات تؤثر جميعها في المعاني التي يصنعونها لأنفسهم.

في الغالب، فقدان الطفل للشغف يكون خاضعًا لِمَا يُسمّى بـ«إعياء السرد»، وما يمثّله من محاولات مستمرة لإثبات أن أجوبة المدرس هي الأجوبة الصحيحة، وأن التعبير عنها يتم بطريقة صحيحة، هل تذكر

تسميع جداول الضرب؟ أربعة ضرب أربعة يساوي ستة عشر. نتعلم دائماً «أصوات» الكلمات (إيقاع السرد) من دون أن نتعلم فهم المعنى معظم الوقت.

مارسي كوك، إحصائية الرياضيات والتعلم تقول في ذلك: «لو كان المطلوب من الطلاب فقط هو حفظ المعلومات والحقائق والقواعد التي يقولها لهم المدرس، فإنهم بذلك يُعاملون كأوعية فارغة تُملأ بالمعرفة بدلاً من التعامل معهم كأفرادٍ مفكرين وصانعي قرار قادرين على النجاح في مواقف جديدة ومختلفة وإشكالية».

قابلت نفس هذه الإشكالية في الرياضيات، حيث خذني الحفظ والسرد حين صعدت إلى مستويات أعلى، كالجبر ٢، والحقيقة هي أنني كنت أُغذّي بالقواعد والأصوات من دون فهم. هل تذكر هذا القول المأثور حول قسمة الكسور؟ «ليس لك أن تسأل لماذا، فقط اقسم واضرب»، يا له من استهزاء بالعقل! أردت أن أعرف لماذا، هكذا يعمل عقلي، من دون معنى يستحيل أن نتمسك بالعملية كهدفٍ في حد ذاتها، بعد ذلك بعقودٍ حين ذهبت لتعليم الكسور لابني الأكبر كان عليّ أن أختبئ في جراج وأذاكر من كتاب الرياضيات وحدي أولاً، في محاولة لتعليم نفسي، لم تكن أي معلومات موجودة في مكانها.

جنون الخيارات المتعددة

«إعفاء السرد» الذي يتحدث عنه فريري يمكن التعرف عليه بوضوح في واحدة من أكثر أشكال الاختبارات التي تُستحسن في المدارس:

أسئلة الاختيار من متعدد (أكمل من الموجود، ولا مكان لأي كلمات أخرى لتُضاف).

روت لي إحدى الصديقات أن ابنها مرَّ بوقتٍ عصيبٍ مع أسئلة الاختيار من متعدد، وفي مرةٍ أعطى إجابةً مثيرةً للحيرة لدرجة أنها دفعت ناظر المدرسة إلى الاتصال بصديقتي ليناقشها. «الخطأ» الذي قام به هذا الطالب يشرح النقطة التي أتحدث عنها بشكل ممتاز، ها هو السؤال الذي أساء فهمه ابن صديقتي، رغم أنه -موضوعيًا- لم يكن فقط محققاً بل السؤال نفسه كانت له إجابتان صحيحتان، انظر إن كنت تستطيع تمييز ما يحدث هنا:

أي وحدة قياس ستستخدمها لقياس هذا؟

- القدم.
- السنتيمترات.
- الكيلومترات.
- الأرباع.



اختر ابن صديقتي الإجابة الثانية «السنتيمترات»، في حين كانت الإجابة الصحيحة هي الإجابة الأولى «القدم».

لقد افترض أن الطلاب يعرفون أن المقصود من السؤال هو كيفية قياس شجرة حية في الغابات، لقد رأى الطالب الرسمة على الصفحة وافترض أن الاختبار كان يسأل عن وحدة القياس التي يمكن استخدامها لقياس صورة الشجرة على الورقة، منطقي جدًا! في هذه الحالة فإن

«الستيمترات» ستكون إجابة أفضل من الأقدام كما أنها صحيحة تمامًا.

رغم ذلك دعونا نتوقف ونأخذ خطوة أبعد، ماذا لو كان ابن صديقتي قد فهم أن المقصود من الرسمه هو تمثيل شجرة حية تتنفس على الورق؟ وقتها كانت الستيمترات والأقدام كلتاهما، ستكون إجابتين صحيحتين، تقنيًا كلتاهما وحدة لقياس الارتفاع، البعض قد يفضل استخدام القدم لقياس شجرة طويلة، ولكن قد يكون هناك سبب للقياس بالستيمترات، ليس من الخطأ أن تقيس شجرة بالستيمترات، لكن في الحقيقة هل ستوضح لنا الرسمه ما إذا كانت الشجرة التي يتم تمثيلها هي شجرة طويلة في غابة أم هي شجرة بونساي صغيرة موضوعة على طاولة؟ إن كان هناك طالب يعيش في الغابات وطالب آخر يمتلك شجرة بونساي على طاولة، فإن الرسمه غالبًا ما ستحفز صورًا ذهنية مختلفة تمامًا في عقل كل منهما، لتعطي إجابات مختلفة عند كل منهما (كلاهما صحيح)، ولأن القدم والستيمترات (كلتيهما) وحدتا قياس أطوال، فإن كلتيهما تعمل كإجابة صحيحة، في هذه الحالة فإن المطلوب من الطالب كان تخمين ما هي الإجابة المحتمل أكثر أنها كانت في عقل صانع الاختبار، وهذه مهارة قراءة عقول، بعض الأطفال لا يطوّرونها أبدًا بما فيه الكفاية ليعتبروا طلابًا عظماء، الأمر يتطلب جهدًا وعناية لصناعة اختبارات اختيار من متعدد فعالة وقادرة على تفعيل نوع التفكير النقدي الذي يحفز الطلاب بدلًا من أن يحيرهم.

الإجابة الصحيحة في اختبارات الاختيار من متعدد هي غالبًا ما تدفع بعيدًا بالتفكير الذي يهتم بالسؤال، وليس فقط تخمين الإجابة التي

وضعها صانع الاختبار في عقله، الأمر غير عقلاني، في رأيي افتراض أن الطفل ينبغي له الدخول إلى عقل واضع الاختبار ليستنتج هذه الحقيقة: إن الاختبار ينتظر مني أن أقول له ما هي وحدة القياس الأكثر شيوعاً لقياس شجرة طويلة حية، في الحقيقة إن كانت تلك هي عملية التفكير، ألم نعتز منذ قليل أن التعليم أصبح يتمحور حول التخلص من رؤيتك الخاصة لتتعلم كيف تصبح أكثر مهارة في تخمين آراء الخبراء وذوي السلطة بدلاً من ذلك؟

من خلال فرض إجابات محددة داخل وقت ضاغط، يُمنع الطالب من التفكير بتمعن في السؤال وكل احتمالاته المتغيرة، وبدلاً من ذلك فإن المتوقع من الطالب هو تخمين الإجابة الصحيحة التي كانت في عقل واضع الاختبار في أسرع وقت ممكن. والأسوأ أن هذه الإجابة من الممكن أن تكون الأقل خيالاً والأكثر نمطية من بين بقية الإجابات، ولهذا فهي مناسبة للتعرف عليها سريعاً من دون تأمل وقبل أن يرن الجرس، أتساءل عما إن كان هذا النوع من الاختبارات هو ما يؤدي إلى التلهف الشديد في محادثات العصر الحالي الذي يشعر فيه الجميع بالحاجة إلى الحصول على تأييد الجميع في الحال، وخصوصاً خلال محادثات الإنترنت. نحن نفترض أن هناك إجابة واحدة صحيحة سيعطيها لنا من نختاره أياً كان كسلطة، وسنجدها سريعاً وسننفذها سريعاً وسنحصل على موافقة الجميع! هذه الممارسة شائعة جداً في التعليم إلى درجة أننا بمجرد مغادرتنا له نكون قد نسينا أن أماننا احتمالات تعد ولا تُحصى حين نواجه أموراً معقدة، وبدلاً من ذلك نشعر بضغط أن علينا اتخاذ

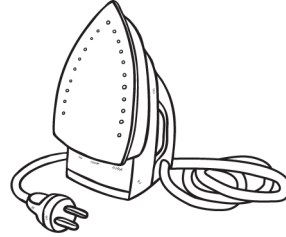
جانب ما، وعلينا البقاء فيه لنثبت أننا على حق، لقد دُرِّبنا على تجاهل تأثير التأويلات الشخصية وتجارب الماضي.

في الغالب، اختبارات الاختيار من متعدد تتمحور حول الفعالية في الوقت والأحكام الخاطفة والسلطات غير المرئية والإجابات التصريحية، إنه من المُلح أن نتساءل لماذا يهتم التعليم المعاصر بالسرعة أكثر من التفكير.

الآن جرِّب ذلك: فكّر في سؤال الاختيار من متعدد التالي:

اختر الصفة التي تناسب هذه الصورة:

- حار.
- بارد.
- حديد.
- أزرق.



معظم مؤدي الاختبارات ذوي الدهاء سيستبعدون كلمة «حديد» ويتجاهلون كلمة «أزرق»، لأن الرسمة محايدة من دون أي ألوان واضحة، هل اخترت «ساخن» أم «بارد»؟ معظم الناس سيختارون «ساخن» بدلاً من «بارد»، لأن المكواة غالباً ما ترتبط بالحرارة، لكن إن كنت مفكراً دقيقاً فربما ستلاحظ شيئاً غريباً بخصوص هذه المكواة؛ أنها غير موصولة بمكبس كهربائي، ولهذا هل من الممكن أن تكون ساخنة؟ إن أخذت بعين الاعتبار الرسمة بشكل كامل فغالباً ما ستختار «بارد» كإجابة، لأنها تصف حالة المكواة الحالية، هذا منطقي جداً، رغم

ذلك فإن الإجابة في الغالب خاطئة، معظم الاختبارات تريد من مؤديها أن ترتبط عندهم الحرارة بالمكواة، وهذا هو الارتباط الأكثر شيوعاً، من دون أي فرصة لشرح لماذا قد تكون «بارد» هي الإجابة الأنسب في هذه الحالة، العلامة التي ستحصل عليها حين تقوم بهذا الخطأ ستُعرفك كشخصٍ غير ذكي بدلاً من تعريفك كمفكر حريصٍ ونابه العقل كما أنت بالفعل.

الفنانة والمعلمة بيتي إدواردز التي ألهمتنا بهذه المعضلة الفكرية في كتابها «الرسم على الفنان بداخلك»، أوضحت لنا بشكلٍ مؤلمٍ أين تُجرى تلك الاختبارات: «إن هذا التعسف يثير الجنون! وأنا مؤمنة أن أثرها في مؤدي الاختبارات من الطلاب ذوي الأدمغة السليمة هو ما جعلهم غير قادرين على رؤية ما يوجد أمام أعينهم، وبدلاً من ذلك الوصول إلى مفاهيم حرفية مجردة، والتي في الحقيقة من الممكن أن تتعارض مع تصوراتهم المرئية». وبعبارة أخرى، يُكافأ الطلاب بالعلامات المرتفعة حين يدربون أنفسهم على عدم الرؤية، بمعنى إعادة تشكيل رؤاهم المباشرة لتطابق الترميمات الأكثر قبولاً، المكواة دائماً ساخنة.

يا للخسارة! منهج إدواردز للرياضيات يوضح كيف يعمل كثير من التعليم على استبعاد المتغيرات المرئية، لأن -على سبيل المثال- من الطبيعي أن العمليات الحسابية المجردة تكون أسهل في تقييمها عن طريق الاختبارات. يشرح منهج إدواردز أن «اثنين زائد اثنين يساوي أربعة، بعيداً عن الكيفية التي تغيّرت بها أشكال الأرقام».

وفي ذلك يُقال إن: الأشكال الرقمية ليست سوى رموز للكميات، وليست عناصر مطلوبة لذاتها، لكن بالنسبة إلى الأطفال فإن المفاهيم المجردة لتلك الرموز من الممكن أن تحدّ من قدرتهم على استيعاب الرياضيات (وهذا يعود بنا إلى استنكار فريري لحفظ جداول الضرب بدلاً من الفهم الحقيقي)، في جميع الأحوال إن أخذنا هذا الرقم المجرد ثم عيّنا له مجموعتين من العناصر، كإضافة ريشتين إلى ريشتين، فسيكون لدينا أربع ريشات، وليس فقط الرقم أربعة بشكلٍ مجرد، إن وضعنا الريشات الأربع في يدينا فإننا سنشعر بنعومتها، إن حاولنا وضعها جنباً إلى جنب فربما سنلاحظ عدم تطابقها في الحجم، رغم ذلك فإن أي ريشتين مضافتين إلى ريشتين سيعطينا بالضرورة أربع ريشات، ماذا إن أضفنا بعد ذلك مقلاتين حديديتين إلى مقلاتين حديديتين آخرين؟ بالطبع سيصبح عندنا أربع مقلات حديدية، هذه المقلات ثقيلة في التجميع ولها إحساس مختلف تماماً عن الريشات، ومع ذلك فحصيلتها تظل أربعة.

الأوزان والأبعاد لهاتين المجموعتين ذواتي العدد «أربعة» مختلفة بعضها عن بعضٍ تماماً، ووعينا بتلك الخواص له تأثير لا مفرّ منه في كيفية تفكيرنا في تجميعها، على سبيل المثال، بينما الحصى أربعة في كل عمليات إضافة اثنين إلى اثنين، فإن في حالة قياسها بالوزن سنحصل على إجابات مختلفة تماماً، أجسامنا وحدسنا يشعران بهذا الاختلاف، وقد يكون من المهم تعريف ذلك لأطفالنا. التجميع من أجل العدّ ليس كتجميع عنصرين من أجل الوزن، بمجرد أن نتحدث

عن ريشتين مع ريشتين آخرين أو مقلاتين لمقلاتين آخرين، فإننا لا يمكننا تجنب تفكير إن كان من الجيد الوصول إلى أربعة منها، وإن جمعنا ريشتين مع مقلاتين فسنصبح بذلك أكثر ارتباطًا، ما الهدف من كل هذا التجميع؟

من الطبيعي أننا لن نتمكن من استخدام عناصر تُمسك بالأيدي لحل جميع مسائل الرياضيات المتقدمة، لكن على أي حال، فإن المفتاح للتفكير النقدي هو تكوين تلك الروابط بين المجرد والعملي بأكبر قدرٍ مستطاعٍ ومبكرًا قدر المستطاع، تحديدًا عند بداية أي رحلة أكاديمية جديدة، بهذه الطريقة سنرسي أساسًا لمهارة وتعقيد أكثر، وسندع طلابنا يدركون أن هناك دائمًا مزيدًا للأخذ في عين الاعتبار، حتى حين نستخدم ممارسة أو عملية تقليدية، اتخاذ القرار بشكل أخلاقي يعتمد على الدافع المستمر للتأكد من توابع أي عملية حسابية أو أي تأويل للعلوم والتاريخ أو أي تطبيق لنظرية ما، هناك سؤال ربما قد تطرحه الآن، إن لم تكن الاختبارات والتمارين الورقية هي الطريق السليم، إذن فما هو؟

التعليم المؤطر للمشكلة

لحسن الحظ، يقترح فريري منهجية مختلفة للتدريس، التعليم الذي «يؤطر المشكلة»، حيث لا يتعلم فيه الأطفال كيف يفكرون من قبل أساتذتهم، بل يصبح الأطفال شركاء موثوقًا بهم في أثناء حل المشكلات المهمة بالتعاون مع قدرات البالغين.

المفكر التعليمي بيل هوكس يشرح أن: «كمدرسين، دورنا هو أخذ طلابنا في مغامرة التفكير النقدي، من خلال التعلّم والتحدّث معًا، لتُغيّر في التصور القائل بأن تجربة اكتساب المعرفة هي تجربة خاصة وفردية وتنافسية».

مارسي كوك ترسم نفس الاستنتاج: «فن التساؤل قد يصبح مفتاح التفكير داخل الفصل، ينبغي للمعلمين أن يتساءلوا، وليس أن يرشدوا الطلاب إلى التفكير على نفس خطهم، بل إرشادهم إلى شحذ تفكيرهم واستكشاف ما يعرفون وما يفهمون».

التفكير النقدي ينمو في البيئة الداعمة والمستقرة عاطفيًا، والتي يستكشف فيها المشكلات الحقيقية الطالب والمعلم جنبًا إلى جنب.

في مادة كالرياضيات، فإن مهارة التفكير النقدي الذي يود معظمنا إنماءها هي «طرح الأسئلة الجيدة، وإعطاء مشكلات جيدة ومثيرة للتحدي ومستفزة أيضًا لتفكير الطالب»، كنت في حاجة إلى معرفة كيف ستعمل هذه المقاربة في حصة رياضيات في مدرسة عامة. ابني الأكبر كان يدرس الجبر ٢ في مدرسة ثانوية محلية، في حين كان يحصل على تعليم منزلي في المواد الأخرى، عندما قابلت معلمته في مؤتمر الآباء والمدرسين، عرفت أنها كانت تبدأ كل يوم بمعضلة حسابية على السبورة ثم تنتظر من الطلاب أن يقترحوا مدخلًا ما لحلّها، قالت لي إن الأمر تطلّب بعضًا من الجهد لدفعهم إلى اتخاذ المخاطرة وإلى إعطاء تخمين حول كيفية حل المسألة. كان هدفها هو تنشئة عقول تفهم المنطق الرياضي، وليس فقط مؤدي اختبارات ماهرين،

رغم ذلك فقد كان الطلاب مقيدين جدًا بانتظار معلمتهم لتخبرهم ماذا يفعلون، وكيف يفعلونه، وتطلب الأمر محاولات إقناع عديدة في بداية العام الدراسي لجعلهم يتخلَّون عن ذلك، بحلول نهاية العام كانوا قد أصبحوا متشوقين للمشاركة. خبراء التعليم المعاصرون يتفقون على أن هذه الطريقة في التدريس ستؤدي إلى أفضل النتائج من الطلاب، خصوصًا إن اعتمدت كطريقة اعتيادية مصحوبة بالشرح الواضح للمسائل الرياضية، منها سيتعلم الطلاب كيف يفكرون كموجدين للحلول وليس فقط كحافظي إجابات.

الآباء والمدرسون الأذكى قد يطرحون أسئلة كهذه:

- هل هناك طرائق أخرى لمقاربة هذه المشكلة؟ هل يمكن أن تريني؟

- فيم قد يحتاج العالم الواقعي إلى هذه العملية الحسابية؟

- لماذا تعتقد أن هذه العملية ستنتج؟

هذه النوعية من الأسئلة تساعد الطلاب على تذكُّر أن هناك غاية من هذا التعلُّم، وأنه في الإمكان تكوين روابط بين الأفعال والتأملات، أتذكر عندما تعلمت حصيلة ضرب الصفر مع الواحد، تشوشت وتعلمت الحيلة بطريقة مقلوبة، ظننت أن $0 \times 3 = 3$ وأن $1 \times 3 = 1$ ومن الواضح أنني لم أعلم ما كان المقصود تحقيقه من عملية الضرب، اعتمدت فقط على توجيهات العملية ولم أجد تذكُّر الإجابات. الحصول على علامة متدنية لم يساعدني على تخطي الجسر، لم يسأل أحدٌ عماذا كنت أظن أنني أفعل، بدلًا من ذلك تُركت لإعادة حفظ

مزيد من تتابعات الأرقام عديمة المعنى. تشرح كوك: «نحن لا نريد أن تتحوّل الحياة الفكرية داخل الفصل إلى ملعب تمرين لتحضيرات الاختبار»، الرياضيات التقليدية ضلّلت كثيرًا منّا للاعتقاد بأسطورتين: أولاً أن الرياضيات تحكمها قواعد محددة بالخطوات لإيجاد الإجابات الصحيحة، وثانيًا أن الكتب الأكاديمية والمعلمين هما السلطانان اللتان تعلمان تلك الإجابات.

يمكننا تحفيز فضول الطلاب عن طريق إعطائهم مشكلات ذات معنى لحلّها، لطالما أعلنت تقديري لقيمة ما أسميه بـ«المحاورات الطويلة ذات المذاق»، وهي المحادثات التي تتجول وتخلق مساحة للتبادل الحر للأفكار. كما يؤكد لنا بيل هوكس: «النقاشات ليست شيئًا ذا بُعدٍ واحدٍ فهي دائمًا تضعنا أمام طرائق مختلفة للرؤية والمعرفة»، تربية طفل ناقد تعني إعطاء أطفالنا الفرص لاستكشاف ما يعرفون بحميمية، وما هي حدودهم في الفهم، استكشاف حدودهم واستكشاف ما يعرفون، صدقوني... كِلا الأمرين.

الحكمة من أجل الدمج

الخبر الجيد هو أن في إمكاننا توجيه مسار التعليم بأنفسنا نحو الأسئلة، اقترحت في كتاب «المتعلم الشجاع» أن نبني «حائط الأسئلة العظيم»، حيث يمكن للآباء تدوين كل سؤال يطرحه أبنائهم لمدة أسبوع على أوراق لاصقة ومن ثم لصقها على هذا الحائط، وفي نهاية الأسبوع أقترح أن ينزعوا هذه الملصقات، ومن ثم يناقشون محتواها

على العشاء. عبر التمعن في هذه الأسئلة، وعدم الرد عليها فوراً، فإننا نلهم هؤلاء الأطفال والمراهقين بالصبر على الفضول بدلاً من الضغط للحصول على تصريحات واضحة بالإجابات الصحيحة، الخطوة القادمة هي أن تُنمّي جودة الأسئلة، كيف يمكننا فعل هذا؟

فحوصات الرنين المغناطيسي الأخيرة على المخ تؤكد ما يُعرف بـ«نظرية فجوة الفضول» التي طوّرها جورج لوينشتاين من جامعة ميلون كارنيجي في التسعينيات، اكتشف الباحثون أن فضولنا يتخذ شكل حرف U معكوساً، إن فضولنا يكون في أوجه عندما لا نعلم سوى قليل عن موضوع ما (حين يُستثار فضولنا) (وحين نكون غير متأكدين من الإجابة). يشرح لوينشتاين أننا عندما نشعر بوجود فجوة بين ما نعرفه بالفعل وما نريد أن نعرفه، تكون لهذا عندنا تبعات عاطفية، إنه يُشعرنا بالحكة الذهنية كما لو كانت قرصة ناموسة في عقلنا، نسعى حينها للمعرفة لأنها هي الطريقة التي سنحك بها تلك القرصة.

الأب الروحي للتعليم الحديث جون ديوي، يعيّن دوراً ما للفضول في النموذج التعليمي الخاص به الذي يسميه بتعليم «حل المشكلات»، إخصائي التعليم البريطاني دكتور مايكل لانتلي يفترض أن المشكلات بالنسبة إلى ديوي هي تلك التي تُشعرنا بالحكة، الارتباك في التوقعات الطبيعية للأطفال هو ما يؤدي إلى تلك الحكة. وعند هذا فإن البحث يصبح حول: «كيف يمكن لهذه المعلومات الجديدة أن تجد لها مكاناً وسط ما أعلمه الآن بالفعل؟»، يسمي لانتلي نموذج ديوي بممارسة «الحكة من أجل الدمج».

مهمة المدرس الرئيسية في هذه الحالة هي خلق التوزيع في التوقعات الذي في إمكانه استفزاز «الحكمة»، أو الحاجة إلى المعرفة، تعلّم كيف تستفز الحكمة وسترى الفضول يزدهر. إنها تجربة أشبه بوضع قطعة ليجو داخل بناء، بعد محاولات عديدة لوضع القطعة الصحيحة في المكان الصحيح ستجد قطعة الليجو المنشودة مكانها فجأة. الحكمة؟ هُرِشَتْ بنجاح، كما يشرح لانتلي: «التعلّم مناسب لزمّنه وليس عابراً للأزمان»، ما تعلّمته الآن هو ما يناسب الآن، وما يناسب سؤال اللحظة الحاضرة.

نشاط: قواعد الحكمة لأجل الدمج

جَرِّب تلك الأنشطة مع أولادك لتفهموا كيف يعمل التعليم المؤطّر للمشكلة، والتعليم المعالج للمشكلة، على استخدام استراتيجية «الحكمة من أجل الدمج».

دعونا نبدأ بالمادة الأقل تفضيلاً عند الجميع (عدا أنتم أيها البارعون في الكلمات): القواعد النحوية، النحو له سمعة شديدة السوء، إنه الرحلة الأكثر إبهاماً والأقل متعة وسط مجموعة الكلمات والمصطلحات عديمة الحياة.

يتم تعليم النحو كقائمة من الكلمات المجردة التي تُوظف كل منها لصالح كلمة أخرى، وفي الغالب يُدرّس من خلال كتب عملية، والمشكلة هي أن متحدثي اللغة الأصليين لا يعتمدون على فهم محدد للقواعد لينبؤوا على أساسه جملاً ذات معنى، إنهم يتكلمون أيّاً كان ما

يبدو صحيحًا للأذن، وآلية «ما يبدو صحيحًا» تعمل بلا أخطاء تقريبًا عندما يعمل بها من يعرف اللغة عن ظهر قلب، يمكن اختبار النحو كمواجهة شائعة مع بنية اللغة، من الممكن أيضًا اكتشاف قوته الكامنة لإنعاش الكتابة، كلا هذين الهدفين ممكن إن دخلنا إلى النحو كمفكرين ناقلين، الأنشطة التالية مصممة لتشرح لك كيف يمكن أن تستخدم نمط «الاحتياج إلى الدمج» مع المواد المملة في العادة لتستدعي عن طريقه الاهتمام والفهم. نفس هذه المبادئ يمكن تطبيقها على بقية المواد المدرسية أيضًا، جاهز؟ ثق بي... إن الأمر ممتع.

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات) :

كلمات مرحلة

هل لاحظت كيف يلعب الأطفال الصغار بسهولة باللغة؟ «حادي بادي كرنب زبادي»، لاحظت طريقة محاكاتهم للأنماط؟ «نام الخراف على التل». إنهم يخمنون جيدًا، باستمرار، في أثناء تعلّمهم واختبارهم لقدراتهم اللغوية، وحتى عندما يخطئون فإن الكبار ينبهرون، ونادرًا ما يقلقون حيال إمكانية عدم اكتسابهم لنمط التحدث المتقن الذي يستخدمه الكبار.

تقديم مصطلحات كـ «الصفة» و«حرف الجر» للأطفال تحت سن ثمانية، له شعورٌ قاتلٌ للبهجة، وفي الحقيقة، إنه فعلاً كذلك. الأطفال يغرمون تحديدًا بالتلحينات، إنهم يحفظون الأغاني والكتب المصورة والشعر البسيط بسهولة.

اللعب بالكلمات:

اختر أي مقطع صوتي يمكن أن تنتهي به عدد من الكلمات، كرّر مع أبنائك أكبر عددٍ من الكلمات التي لها نفس السجع (حتى وإن كانت كلمات لا معنى لها)، عدّها وجرب أن تحطم الرقم القياسي الذي أحرزته باستخدام مقطع صوتي آخر.

- كم عدد المصطلحات التي اختُلِقَت لأجل المرح؟ وكم عدد الكلمات المستخدمة بالفعل في الإنجليزية؟

- جرب أن تضعها في جمل، حتى الكلمات التي لا معنى لها، ما معناها الآن؟ وكيف عرفت؟

- هل بعض الكلمات تصف أشياء؟

- هل بعضها أشياء تملكها في منزلك؟

- هل بعضها أفعال يمكن أن تقوم بها؟

الآن صنّفها على حسب طريقة عملها داخل الجمل، جمّع الأشياء الملموسة معًا، جمّع الكلمات الوصفية معًا، جمّع الأفعال معًا، صنّفها في مجموعات على حسب عدد المقاطع الصوتية، صنّفها في مجموعات على حسب الأكثر والأقل تفضيلاً لك، اكتبها على أوراق لاصقة والصقها على الأشياء في منزلك لتراها كل يوم، خذ وقتاً طويلاً في هذا النشاط، إن به فوائد لا تُحصى. لا تقلق كثيراً إن قال أحد الأطفال إن إحدى «الصفات» هي فعل نقوم به، التصنيف الرسمي الآن أقل أهمية من التعرف على ماذا تمثله الكلمات، يمكنك أن تقضي أسبوعاً تلعب

بالمقاطع الصوتية على الغداء كل يوم، ثم بعد ذلك ابدأ باللعب مع السجع في الشعر.

أغنية روضة الأطفال:

- اختر إحدى أغاني روضة الأطفال التي يعرفها طفلك جيدًا،
اقرأها معه واستمتعا بالكلمات ذات نفس السجع، على سبيل المثال
يمكن أن تختار:

ضوي ضوي يا نجمي

وخلي نورك يودي

بالعالي فوق كل الكون

زينة تلمع أحلى لون

لمّا الشمس تروح تنام

بالبحر وتحلم أحلام

ضوي ضوي يا نجمي

وخلي نورك يودي

٢- حدّد مقطع السجع، «نجمي/ يودي»، «كون/ لون» في هذه الحالة.

٣- قم بعصفٍ ذهني للعثور على كلمات تنتهي بنفس المقطع الصوتي (الكلمات التي لا معنى لها مَرَحَب بها أيضًا).

٤- ثم اكتب الأغنية كاملة مع ترك مساحات فارغة حول كل كلمة،

اكتب الكلمات الإضافية ذات نفس السجع التي أوجدتها خلال
العصف الذهني واستخدم خطأً أكبر حجمًا واترك مساحة
لثلاث كلمات أخرى.

٥- قص كل كلمة داخل مربع، ثم اكتب مجددًا كل كلمة على
بطاقة منفصلة، اخلط الكلمات بعضها مع بعض ثم اعرضها
متراسة على طاولة فارغة أو على الأرض، ثم ابدأ بتكوين
جمل بها بعض اللعب، وليست بالضرورة ذات معنى، أعد
ترتيب اللحن عدة مرات مجددًا، جرّب أن تضيف بعض
الكلمات الجديدة داخل الأغنية، كيف تُبدّل الكلمات
الجديدة في المعنى؟ حاولوا التغيير في قصة الأغنية عبر إعادة
كتابة كل سطر ليتضمن كلمات العصف الذهني. (يمكنك أن
تفعل ذلك عن طريق كتابة السطور الجديدة على ورقة جديدة
أو عن طريق تجميع الكلمات من البطاقات إن كان عندك ما
يكفي).

ضوي ضوي يا نجمي

شايف نورك من أوضتي

بالعالي فوق كل الكون

تطير عندك البالون

ضوي ضوي يا نجمي

باغني اسمع صوتي

ستقوم بعملٍ شاقٍّ هنا فيما يتعلق بإعادة كتابة أغنية روضة، لكن الفكرة تكمن في توسيع نطاق ما يمكن معرفته، اللحن والسجع وكيف تتغير المعاني وفقاً لتجميعة السطور، ورغم ذلك، يمكن الحفاظ على النمط المتناسق.

سريعو البديهة: من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً

(الإمساك بقواعد النحو)

في لغاتنا الأصلية، نستشير آذاننا للتأكد أن الجمل التي نكوّنها تبدو صحيحة، وفي لغة لا نتحدثها لا بد لنا من معرفة عملية بأجزاء اللغة من أجل تكوين جمل لها معانٍ، لذا لتدريس القواعد النحوية فإن الأمر يتطلب مدخلاً يساعد الأطفال على فهم الصلة الديناميكية بين المسمى وبين الدور الوظيفي لكل كلمة في جملة ما.

أن تطلق على كلمة ما مسمى «صفة»، وعلى كلمة أخرى مسمى «فعل»، فإن هذا لن يكوّن أي رابط في عقل طفل، المتحدث الأصلي يعلم بالفعل الكلمة التي نطلق عليها «فعل»، أين تكون في مكانها الصحيح؟ مسمى الكلمة لا يشكّل فارقاً في احتمالات استخدام الكلمة بشكلٍ صحيح بالنسبة إليه، لذا فإن المصطلح النحوي لا تبدو له أهمية، الأمر يشبه حفظ جدول الضرب من دون فهم فكرة أنه اختصار لعمليات الجمع المتكررة، إذن من أين نبدأ؟

عبر القيام ببعض أعمال العنف على تكوين الجملة الأصلي طبعاً!

تعليمات:

ستحتاج إلى سبورة وورقة بيضاء.

اكتب على السبورة:

الكلب الأسود نبج عاليًا على شاحنة قمامة.

قسّم الورقة إلى عمودين وهي في الوضع العرضي.

قُم بتسمية العمودين «ضروري» و«غير ضروري»، في الخطوات التالية ستصنع مجموعات من المصطلحات المتشابهة مع أولادك تحت تصنيف إما ضروري وإما غير ضروري.

في الخطوة القادمة اطلب من طفلك أن يحذف ثم يعود لإضافة مصطلحات في الجملة ليحدّد الدور الذي يلعبه في جعل الجملة ذات معنى.

١- احذف كلمة الكلب مع ألف ولام التعريف من الجملة عن طريق جعل طفلك يحذفها من كل مكان يجدها فيه.

«نبج أسود عاليًا على شاحنة قمامة».

اجعل طفلك يقرأها جهرًا.

اسأله: هل تبدو لك صحيحة؟

اسأله: هل هناك أي كلمات يمكن وضعها في الجملة لتجعلها صحيحة؟

انظر إن كان في إمكانهم اكتشاف الخيارات الأخرى.

٢- احذف كلمة «أسود» هذه المرة، اقرأ الجملة، هل تبدو

صحيحة؟

«نبح الكلب عاليًا على شاحنة قمامة».

إنها سليمة! ضع كلمة «أسود» في العمود الثاني تحت تصنيف «غير ضروري»، ثم عاود إضافتها مجددًا في الجملة.

٣- ثم احذف كلمة «نبح».

«الكلب الأسود عاليًا على شاحنة قمامة».

كيف تبدو؟ تبدو غير مكتملة، أليس كذلك؟ ما نوع الكلمة المفقودة؟

هل من الممكن أن نضع أي كلمة أخرى بدلًا من «نبح»، جرّب كلمة ليست فعلًا مع أطفالك، احشر كلمة «فم» وانظر، هل ستصلح بدلًا من نبح؟

«الكلب الأسود فم عاليًا على شاحنة قمامة».

كيف كان رد فعلهم؟ هل يمكنهم الإحساس بأنها ليست صحيحة، لقد حفزت الآن «الحكمة من أجل الدمج»، أدمغتهم الآن مشغولة بالعثور على مصطلح يمكنه أن يجعل الجملة سليمة، وعقولهم تود أن تعرف «ماذا فعل الكلب؟»، هذا هو المفقود؛ ما فعله الكلب.

اسأل: هل يمكن لأي كلمة مشابهة أن تستبدل «نبح» لتجعل للجملة معنى؟ ربما يفكرون في كلمة أو أخرى من تلك الكلمات:

١- بكى.

٢- تدمر.

٣- عوى.

أيُّ من هذه الأفعال يمكن أن تُستبدل بـ«نبح» وستظل الجملة لها معنى، رغم أن المعنى سيتغير بالطبع، وهذا يستحق الملاحظة، ناقش بعض الأسئلة الأخرى: هل تعمل أيُّ من تلك الكلمات مع وصف «عاليًا»؟ هل هناك ما هي أفضل من الأخرى؟ ضع كل تلك الكلمات تحت تصنيف «ضروري»، وأضف كلمة «نبح» مرة أخرى إلى الجملة على السبورة.

٤- الآن احذف كلمة «عاليًا».

«نبح الكلب الأسود على شاحنة قمامة».

ما زالت الجملة سليمة، صحيح؟ هل يمكن أن تضيف كلمات أخرى بدلًا من «عاليًا»؟

من الطبيعي أن هناك عددًا من الكلمات بنفس النمط «هادئًا»، «راضيًا»، «فزعًا»، ضع عددًا منها في مجموعة تحت تصنيف «غير ضروري».

٥- غيّر موضع «عاليًا» في الجملة، هل تصلح في أي مكان آخر؟

«عاليًا نبح الكلب الأسود»، هذا جيد.

«الكلب الأسود نبح على شاحنة القمامة عاليًا»، أيضًا جيد.

«الأسود عاليًا كلب نبح»، ليس جيدًا.

اطرح أسئلة :

لماذا تصلح «عاليًا» في أماكن وليس في أماكن أخرى؟
ما الكلمات التي تصلح مع «يعدّل، يغيّر، يبذل، يحسّن»؟
٦- ثم احذف كلمتي «كلب» و«شاحنة».

هل هما ضروريتان للجملة؟ اقرأ الجملة من دونهما أولاً.
«الأسود نبه عاليًا على القمامة».

ملاحظة: كلمة «القمامة» استقلت بذاتها ولم تعد وصفًا لكلمة «شاحنة» بعدما أزلنا كلمة «شاحنة»!

هل يمكن استبدال أيّ من الكلمات التالية بـ«كلب» و«شاحنة»؟

- قطة.

- سلحفاة.

- جميلة.

- جدًّا.

- أخت.

- عجلة.

- مشى.

لاحظ أيّا من هذه الكلمات تصلح أن توضع في الجملة حتى وإن لم تعطي معنى دقيقًا، يمكنك استخدام كلمة قطة أو أخت وستكون الجملة غير منطقية بشكلٍ كافٍ لكنها لن تبدو خاطئة.

لا يمكنك استبدال كلمات: «جميلة» أو «جداً» أو «مشى» بكلمتي «كلب» أو «شاحنة»، هذه الكلمات ستلقي بالجملة خارج نطاق المنطق. من الممكن أن تسألهم ما المشترك بين «قطة» و«سلحفاة» و«أخت» و«عجلة»، وبين «كلب» و«شاحنة».

ثم اسأل: ما المختلف في «جميل» و«جداً» و«مشى»؟ ماذا أيضاً يمكن اكتشافه حيال الكلمات في هذه الجملة؟ كلمة «قمامة» تصف كلمة «شاحنة» في هذه الجملة، لذلك هي ليست ضرورية، في جمل أخرى قد لا تكون مجرد صفة، ولهذا ستكون ضرورية، جرب أن تلعب بكلمات أخرى وتضعها كصفات:

٧- حدّد أنواع المكونات اللغوية من المجموعات التي كوّنتها. هذا ليس اختباراً، لكنه فرصة لإطلاق المسميات على أنواع الكلمات التي استخرجناها من هذه الرحلة.

بعد ذلك، يمكنك أن تنتقل إلى استخدام جملٍ من الكتب التي يقرأها أطفالك لتخلق منها قاموساً من المصطلحات التي يمكن فهرستها ضمن أي مجموعة من المكونات اللغوية المصنّفة كضرورية أو غير ضرورية، وخلال الوقت سيتمكّن النحويون الصغار من التعرّف على أي الكلمات يمكن إدراجها تحت كلا التصنيفين.

النحو تحديداً هو مادة تصلح جداً للممارسة مهارات التفكير النقدي، لأن الجميع تقريباً يجدون كلمات ثقيلة وصعبة في التذكّر، رغم ذلك، فالجميع واثقٌ بطلاقة في لغته الأم. معظمنا لم يتعلّم القواعد النحوية

بطريقة تجعلها تتقاطع مع أحاديثنا اليومية، تعلّم كيفية التحقّق من كيف ومتى يكون الشيء «سليماً» هو حجر الأساس في الوعي بالذات، وعندما يأخذنا الذهول حين نكتسب بصرًا جديدًا، على سبيل المثال، حين نكتشف أن «قمامة» تصلح كاسم وكصفة!

منطلقو التفكير

(من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا)؛ جابرووكي.

ذات مرة قرأت مع أبنائي قصيدة «جابرووكي» للويس كارول، وافتتنت بكل كلمة اخترعت فيها، دراسة هذه القصيدة أصبحت أحد أقوى دروس النحو التي اختبرناها على الإطلاق، لقد عيّنا تعريفات ومكونات لغوية للكلمات التي لا معنى لها، يمكنك أن تعمل خلال القصيدة كلها بنفس الطريقة.

على سبيل المثال، ألقي نظرة على البيتين الافتتاحيين.

في المقطع الأول من القصيدة نقابل كلمات جديدة بالكامل اخترعها كارول، هذه الكلمات تبدو إنجليزية ولكن ليس لها أي تعريف مألوف أو محدد، لقد رأيت درس قواعد نحوية يختبئ أمام عيني! عندما فحصت الفقرة مع أبنائي بدأنا في طرح الأسئلة حول الكلمات، ما الذي تظن أن تعنيه هذه؟ ولماذا؟ أفكار كثيرة تدافعت من أفواههم.

كلما استمررنا في استكشاف القصيدة اخترعنا معاني محتملة لكل كلمة مختلفة، تاركيين الأصوات والجمال المألوفة ترشدنا في

هذه الرحلة، كان علينا أيضًا أن نضع في الاعتبار الاختيارات السابقة التي اخترناها، كيف يمكن أن تؤثر في سير خط القصة، لقد جربنا كل أفكارنا لنقيّم كل الاحتمالات، وليس لنحدد المعنى بشكلٍ صحيحٍ.

لقد كوّنّا قاموس مصطلحات من التعريفات التي وضعناها (كل طفل حصل على نسخته المطبوعة من القصيدة، وفي النهاية تحوّلت كلّ منها إلى نسخ من المعاني المفترضة للقصيدة بناءً على التعريفات التي وضعناها)، أحد المنتجات العظيمة المصاحبة لتلك العملية كان إدراك أن نفس المصطلح يمكن استخدامه كأكثر من مكون لغوي واحدٍ على حسب التعريف الذي وضعته له، ولكننا غالبًا ما ننسى ذلك بسبب طلاقتنا في اللغة.

الآن جرب!

١- اترك مسافات فارغة، واطبع نسخة من قصيدة جابرووكي لطفلك، استمر في العمل على القصيدة مقطّعًا بمقطع، جزءًا في المرة.

٢- وجود كتاب أو مرجع للنحو بجانبك سيساعد كثيرًا، أبقه على طاولة أو في مكان قريب لتستشيرَه في أثناء تحليلك للقصيدة.

٣- أعط أطفالك أقلام تحديد، واطلب منهم أن يُحدّدوا أي كلمة لا يعرفونها حتى إن كانت كلمة إنجليزية مألوفة، لا مشكلة في ذلك، إنهم سيطبقون نفس المهارات على اللغة الأصلية وعلى اللغة المختلقة الخاصة بلويس كارول.

٤- ثم تكلم عن المعاني المحتملة للكلمات التي اختاروها، ربما لا يعرف أطفالك المسميات النحوية لهذه الكلمات بعد، لكن يمكنهم أن يخبروك بما الذي يظنون أن هذه الكلمات قد تعنيه.

٥- بعد أن تحصل على مقطع كاملٍ من المصطلحات.

٦- ربما بعد ذلك تتساءل: ما كذا؟

٧- اسأل: كيف كان إيقاع الكلمات هو أحد العوامل التي وُضعت على أساسها تعريفات الكلمات؟ هل يذكرك الإيقاع بكلمات أخرى؟

٨- في أثناء استكشافك لكل كلمة، استخدم المرجع النحوي ليساعدك، قارن الكلمة المختلقة بكلمة إنجليزية معروفة ثم حدّد ما هو المكون اللغوي، بنهاية التمرين سيعمل أطفالك كمنحويين محترفين.

٩- عندما تنتهون من تصنيف وتعريف كل الكلمات، جرّب أن تكتب مقطعاً أو اثنين كتكملة للقصيدة باستخدام اللغة المختلقة، كان شيئاً جامعاً أن يؤلف كارول قصيدة كاملة باستخدام لغة غير مفهومة ثم تنتشر وتخلد، بل وأيضاً نظن أننا فهمناها لأننا وضعنا المعاني لها أوتوماتيكياً بناءً على ما نعرفه من كلمات شبيهة، من دون أن نحتاج إلى أن نسأل، التبخر عميقاً في «جابرووكي» هو نقطة بداية عظيمة لاستكشاف أن انحيازاتنا تلعب دوراً في كيفية قراءتنا لكل شيء، انطباعاتنا تُشكّل تأويلاتنا.

في الفصل القادم سنأخذ قوانا التجريبية إلى خطوة أبعد، ما الذي يمكننا أيضًا معرفته حول أي شيء نقرأه أو ندرسه أو نشهده؟ أطفالنا قادة رائعون في فن مراقبة العالم من حولهم، كل ما نحتاج إلى فعله هو أن نشير لهم إلى الاتجاه الصحيح عبر طرح الأسئلة الصحيحة، ومن ثم نعطهم الأدوات لاكتشاف ما سيجدونه!

الفصل الرابع

المراقبة الدقيقة: عبر الزجاج البلوري

«في العادة نرى ما ستوقع أننا سنراه».

بيتي إدواردز، من رواية «لون»

سقطت أليس ليدل عبر الزجاج البلوري لتجد نفسها في عالم غامضٍ به حلزونات تتكلم، وصانع قبعات مجنون، وأرنب يقول لك كم الساعة الآن، دوروثي جيل تشعبت في طريقها لتصل إلى عالمٍ غريبٍ مليء بالألوان وبه ساحرات طيبات، وطريق من الطوب الأصفر والقروذ الطائرة. تريستان سترونج نبش ثقبًا في السماء ودخل إلى عالم له بحر حارق، وسفن مسكونة بالأشباح ووحش حديدي. في كل مرة تغادر فيها منطقة الراحة الخاصة بك ستتوسّع لتحصل على طريقة جديدة لتوجد بها في العالم وتكتسب منها المعرفة. الارتباك يمكن أن يكون بقدر ما مرّت به أليس أو دوروثي أو تريستان، لكن الأثر الذي ستركه التجربة لن يُمحى، لن ترى العالم بنفس الطريقة القديمة مجددًا، القدرة على استيعاب وجهات نظر جديدة لا يغذيها فقط طرح الأسئلة الجيدة، لكنها تحتاج أيضًا إلى الرؤية بطريقة مختلفة، تحتاج إلى تغيير مدى بصرك.

عندما كان عمري ٢١ عامًا، سنة ١٩٨٣، زرتُ برلين بعد الحرب العالمية الثانية، ألمانيا كانت منقسمة إلى جزأين، قوات الحلفاء تحكّمت في الجزء الغربي من الدولة وسَمّته ألمانيا الغربية، والاتحاد السوفيتي تحكّم في الجزء الشرقي وسَمّاه ألمانيا الشرقية، وبرلين عاصمة ألمانيا كانت تقع فيما كان يُسمّى وقتها بألمانيا الشرقية، على بُعد مائة ميل من الحدود مع ألمانيا الغربية، وكما كانت الحال مع بقية الدولة، برلين نفسها كانت منقسمة إلى قسمين، قسم يحكمه الحلفاء وقسم يحكمه الاتحاد السوفيتي. الجزء الغربي من برلين كان قد أصبح جزيرة للديمقراطية الرأسمالية الصاعدة المحاطة بألمانيا الشرقية الشيوعية. لنصل إلى المهم، كان على الزوار السفر بالطائرة أو القطار ليصلوا إلى ألمانيا الغربية.

في عقلي، الدول في مجموعة الاتحاد السوفيتي (كل الشيوعيين كانوا تحت الإدارة السوفيتية) كانت أماكن كثيفة وباهتة، السياسيون الأمريكيون، والأولمبياد، والصحف، والأخبار المسائية على التلفاز، وأحاديث العشاء مع والدي الجمهوري، ومراسم الكنيسة، وخطابات الرئيس رونالد ريجان، ومحاضرات الجامعة؛ جميعهم نجحوا في خلق انطباع قوي. حجزت تذاكر قطار مع صديقي كريج إلى ألمانيا الغربية وكانت مواعيده ليلية، النوافذ الحاجبة للضوء منعنا من أن نرى ما مررنا عليه في ألمانيا الشرقية، وصلنا عند الساعة السادسة صباحًا وكان صباحًا مشرقًا، ألمانيا الغربية أبهرتنا بقلب المدينة الممتلئ بالناس من الصباح الباكر. قررت مع كريج أن نزور الجانب الشيوعي من برلين في

هذا اليوم، مما يعني أننا سنمرُّ بمراحل عبور متعبة للأعصاب عن طريق نقطة تفتيش تشارلي (البوابة سيئة السمعة بين الشرق والغرب)، أظهرنا جوازات سفرنا ثم أُرشدونا من غرب برلين المشمسة عبر نفقٍ مستطيلٍ مؤقتٍ، خرجنا منه لاحقاً بعد مائة ياردة في ألمانيا الشرقية، ولدهشتي كانت الشمس ما زالت ساطعة! بشكلٍ غير متوقع مشينا بجانب بنايات ونوافذ لامعة، عبرنا جسراً ساحراً فوق نهر الشبري حيث كان النور ساطعاً إلى درجة أنني احتجت إلى تغطية عيني، خلعت العدسة الحامية عن كاميرتي لألتقط المشهد الرائع فانزلقت من يدي لأضعيها للأبد داخل الماء المتلألئ تحتي، كانت حواسي مرتبكة، لم أتخيل قط الدول الشيوعية في نور النهار، ولم أكن أعرف أنني لم أستطع تخيل ذلك حتى اصطدمت بالنور الساطع في النهار الصيفي في ألمانيا الشرقية، أدركت كيف كنت محتفظة بصورة ذهنية عن ألمانيا الشرقية لا تتناسب أبداً مع الحقيقة، إذ إن الطقس لا يعكس لي على الإطلاق التأويل الأمريكي للظروف الشيوعية الصعبة. رد فعلي غير العقلاني تجاه ضوء الشمس أشار إلى شيء أعمق، في عقلي، ألمانيا الشرقية كانت بالكاد تستحق الزيارة، لقد اختلطت عندي المدينة (بشعبها وثقافتها وطقسها وجغرافيتها) بالنظام الشيوعي القمعي، واعتبرتهم شيئاً واحداً. لقد بنيتُ صورة سلبية غير واعية عن المدينة يمكن فهم جذرها من سردية «الإمبراطورية الشريرة»، بعد ثلاثين عاماً، أخذت رحلة نهريّة مع أمي عبر ألمانيا الشرقية التي أصبحت حرة الآن، زرنا بلداناً كانت شيوعية يوماً ما، كانت أماكن لا يستطيع زيارتها سوى قليل في الثمانينيات، عندما

زرنا براتيسفالا في سلوفاكيا، استمتعنا بصحبة شابة سلوفاكية تُدعى «صوفيا»، استضافت عديداً منّا على القهوة في شقتها الصغيرة ذات حوائط الأسمنت في الدور العاشر من بنائها، هذا المعمار البروليتاري المُسمّى «بانيلاكس» مشهور عالمياً بكونه مثلاً على الإسكان الشيوعي الأساسي. دهن السكان تجمعاتهم السكنية بألوان مبهجة ليكسروا حدة شكل البنايات الشبيه بالصناديق. نشأت مضيفتنا في منزلٍ ذي لون أخضر ليموني، ولكن ليس تحت الحكم الشيوعي، أبواها (اللذان كانا في سني) كانا يملكانه، لذا سألتها حول ما كان يشغلني منذ قدومي إلى ألمانيا الشرقية، هل أحبّ والداك الشيوعية؟ هل هما سعيدان لأنهما تحرّرا منها الآن؟ إجابتها زادتنني حماساً، في البدء شرحت لي صوفيا أنها تحب حريتها في السفر وفي الحديث بحرية، وفي الحصول على الإنترنت والاطلاع على التلفزيون الأمريكي، لكنها أقرّت أن والديها على أي حالٍ يجدان طريقة الحياة الجديدة صعبة بالنسبة إليهما في هذه السن؛ من الصعب العثور على وظائف جيدة، والتقاعد غير آمن، في الزمن الشيوعي كان لديهما عملٌ كافٍ، وإجازات وطقوس عائلية ومنزل أحبّاه. استنتجت صوفيا: «كانا سعيدين». لم أتوقع أن يعيش أحدٌ في بانيلاك ويكون سعيداً، عقلي لم يكن ليفرق بين نوستالجيا الحياة العائلية وبين الظروف السياسية القمعية في تشيكوسلوفاكيا. تساءلت: هل لدى البشر احتياج إلى تقدير اليد التي تعاملت معهم رغم الإساءات التي سجّلها التاريخ تجاه هذه الحكومات؟ كم من الصعب أن تفكر بشكلٍ نقدي في حياتك الخاصة وثقافتك وبلدك! كنت أريد أن أتجاهل

ما قالته صوفيا (وهو ما فاجأني) وأردت أن يعترف والداها بسيادة نظامنا
وبفضل نظامهما، وددتُ هذا جدًا.

ماذا كنت أريد؟ وماذا توقعت أن تقول ولم؟ كان هذا هو السؤال
المُلح الذي بقي معي.

أفلام صامتة

إحدى الطرائق التي تتشكّل بها وجهات نظرنا هي ما أدعوه
بـ«الأفلام الصامتة»، الصور غير الناطقة (المصمّمة من دون وعي)
التي تتجوّل باستمرار داخل عقولنا. استحضر عقلي أفلامًا صامتة من
الحياة كان يعرضها باستمرار في خلفية تفكيري في أثناء فترة الحكم
الشيوعي، عندما كانت تنطق كلمة «شيوعية» كان الأمر أشبه بالضغط
على زر التشغيل، وفجأة كانت الصور والمسميات والمشاعر التي لم
أطلبها تندفق داخل عقلي.

لقد رفضت أوتوماتيكياً فكرة أن السعادة أو نور النهار قد يكونان
مرتبطين بالشيوعية، ما نعرفه يأتي من هذه المساحة التخيلية داخلنا،
لأن الصور غالباً ما تكون انطباعات أو لمحات، إنه من السهل أن نقلّل
من قيمة دورهم في تشكيل أفكارنا، الصور التي نبنيها لا إرادياً لتعمل
كمنزّل لأفكارنا تحفّز أحاسيس جسمانية فينا وتغذي مشاعرنا. اللغة
المستخدمة في وصف الشيوعية تحت حكم الاتحاد السوفيتي أثّرت
في خيالي، لا توجد «إمبراطورية شريرة» على أرض واسعة ومشمسة،
الباحثة المتخصصة أليس براند أصدرت بحثاً يشرح ما كان يحدث معي:

عالم النفس ليف فيجوتسكي رأى أن الفكرة اللغوية تتطور مع تحرك الخطاب الاجتماعي نحو الأعمق، بناء الخطاب يصبح مختصراً بشكلٍ متزايد، تختفي المقالات والأوصاف، وأدوات الإشارة تسقط، وجملة المفعول به تنقلص فقط إلى الفعل، حتى لا يتبقى في عقلنا سوى كلمة التسمية الوحيدة، لتستوعب داخلها - كاملاً - معظم المعلومات، وتقترب من أن تكون هي المعنى الصافي في حد ذاتها.

المعنى الصافي يحمل معه الصور والدلالات، المعنى الصافي مشبع بالقدرة على التأثير.

بمعنى آخر، المعنى الصافي يحرك عواطفنا الأكثر قوة، الأفلام الصامتة التي نصنعها لأنفسنا ليست عروضاً سينمائية مدتها ثلاث ساعات ولها معضلات أخلاقية معقدة، إنها تنطلق من صوت أحادي بسيط يتكون من انطباعاتنا، نفعلها أوتوماتيكياً، «بنية الذاكرة مركزية بالنسبة إلى الوعي، لكن استقبال مجال رؤية كامل أو استعادة ذكرى ما بكل تفاصيلها هو شيء مستحيل بالنسبة إلى الإنسان، إننا نختار»، بعبارة أخرى: «إننا نختار الصور التي توضّح الانطباع الذي احتفظنا به من اللغة»، تفضّل عقولنا النسخ البصرية الملخصة عن الأفكار المتداخلة المعقدة التي قد نكونها إن كنّا أكثر صبراً في التفكير.

على أي حال، ماذا قد يحدث إن قضينا وقتاً في إيقاظ وعينا بهذه الانطباعات التي تتحكم في ردود أفعالنا قبل أن نستمع إلى الأخبار، أو نحضر محاضرة، أو نشاهد فيلماً، أو نسافر إلى دولة أجنبية؟

تلك هي مكونات التعليم الحقيقية، وهي المنهج المخفي المصنوع ذاتياً الذي يتحكم في كل مرة تقرأ كتاباً لطفلك أو تعلّمهم بعض التاريخ أو تشاهد معهم فيلمًا، هذه الانطباعات غير المكتشفة هي نظام التشغيل الخلفي الذي يحرك كيفية فهم أطفالنا للسياسة والقضايا الاجتماعية والدين والتاريخ، وما يصنع الحياة الطيبة وكيفية تعلم الرياضيات، رغم ذلك، كم مرة يتاح لأطفالنا إعادة النظر في انطباعاتهم ووضعهم في طابور للفحص والمراقبة؟

التفكير الأعمق يعتمد على القدرة على توسيع مجال الرؤية لملاحظة انفعالاتنا العاطفية، ولتقييم الأحكام التي نطلقها بناء على هذا، هيا نتدرب الآن، أريد أن أبدأ بك يا قارئ، خُض رحلة معي بعين عقلك لنلاحظ ولنرى كيف يتوتر جسمك أو يرتخي بناء على التجارب المقترحة والصور التي تستدعيها في خيالك، بينما ما زالت هناك أنشطة لأولادك، فإن هذا النشاط لك أنت، إنه يوفر لك طريقة لتغوص في المياه المترقرة التي يعكس عليها عقلك الصور والانطباعات التي يكونها في الحال.

نشاط : أفلام صامتة

اجلس بهدوء، واقرأ التعليمات التالية، أغْمِض عينيك (إن استطعت) لتخيّل كل مشهدٍ قبل أن تنتقل إلى المشهد المقترح التالي.

ممشى التنزُّه:

١- تخيل أنك تمشي على أحد ممشي الحدائق العامة التي تألفها في الظهيرة الدافئة، ماذا ترى؟ أعطِ نفسك وقتًا لتكون دقيقًا:

سماء، أشجارًا، طريقًا، بحيرة، محيطًا، طيورًا، حشرات. والآن
دَع جسمك يتناغم مع ذلك، بماذا تشعر؟ باسترخاء أم توتر؟
دفع أم برودة؟ راقب سطح جلدك، وفكّك ورقبتك، تخيل
قدميك تخطوان على الممشى، بماذا شعرت أو سمعت؟
وماذا أيضًا؟ قُم بتسمية التجربة ككل؟ مؤثّرة أم مهدئة؟ آمنة أم
خطيرة؟ ممتعة أم مثيرة للضيق؟

٢- بعد ذلك، تخيّل أنك تمشي على نفس الممشى في المساء من
دون إضاءة كشّاف، تَفَقّد جسمك الآن، ما الذي لم يُعد ممكنًا
رؤيته؟ ما المشاعر التي تراودك في المساء؟ كيف يؤثر الظلام
في ثقتك بالمشي؟ هل تفكر في الحفر؟ هل تتعثّر في جذر
شجرة ينمو فوق الممشى؟ هل تعثّرت في أوبسوم أو ظربان
بعد فوات الأوان؟ ثعبان على الأرض؟ خفاش فوق رأسك؟
اصطدمت بصبارة؟ مذهول ببحر النجوم المفروش فوقك؟
هل تشعر بالارتياح أم الضيق من الظلام؟

٣- سجّل ما سيأتي في عقلك، الآن تخيّل أنك تمشي على نفس
الممشى مع كشّاف ضوئي، كيف غيّر دخول الضوء استجابة
جسمك؟ كيف يختلف الأمر عن المشي في ضوء النهار؟

٤- ثم تخيّل أنك أحضرت أحد محترفي رياضة المشي معك في
أثناء رحلتك على الممشى من دون كشّاف ضوئي؟ هل أنت
أكثر أم أقل راحة؟

زقاق المدينة :

١- الآن دعنا نغيّر المكان، تخيّل أنك تمشي في زقاق صغير بين صفّين من البنايات الطويلة في قلب إحدى المدن الكبيرة، تخيّل هذه التمشية في نور النهار، ماذا ترى؟ أعطِ تفاصيل، اسم المنطقة إن كنت تعرفه، توصيفات للبنايات، نوعية الأرضفة، ماذا يحدث في جسمك الآن؟ بماذا تشعر بالمقارنة بالمشي على ممشى في ضوء النهار؟ صف التجربة بشكلٍ شاملٍ، موثّرة أم مهدئة؟ آمنة أم خطيرة؟ ممتعة أم مثيرة للضيق؟

٢- تخيّل أنك تمشي على نفس الممشى مساءً وحدك، ماذا تغيّر بالنسبة إليك؟ أي شيء؟ ماذا يريحك أو يقلقك؟ ماذا يحدث إن وضعت مصباح شارع في المشهد؟ هل يغيّر هذا كيفية شعورك؟ بأي طريقة؟

٣- ثم تخيّل أنك تمشي في الزقاق مع أحد سكان المنطقة، كيف تؤثر الصحبة في ردود أفعال جسمك؟ توقّف وفكّر في الطرائق التي تغيّرت بها أنفاسك وخيالك وفقًا للصور التي تم استدعاؤها.

هل يختبر جسمك تغيّرات في أحاسيسه تبعًا للمكان الذي وُجد فيه؟ في جميع أجزاء اليوم؟ ومع أو من دون إضاءة أو صحبة؟ في هذه التجربة التخيلية البسيطة، أنت كنت قادرًا على إرشاد جسمك ليدع نفسه يشعر بأحاسيس لم يستدعها عن عمدٍ لمشاهد صنعها بعقلك في

خيالك، الآن توقّف واذهب بالفعل إلى هذه التمشيات في كلا المكانين وفي كلا الوقتين من اليوم، ومع ومن دون إضاءة ومع ومن دون صحبة، هل صدمتك هذه الخطوة؟ تخيّل الكم الذي ستتعلمه إن قمت بالفعل بهذه التمشيات.

الأماكن التي مشيت فيها في عقلك الآن هي حقيقية لك، الموقف الذي تتبنّاه تجاه ما تشعر أنه آمن أو غير آمن في كل سيناريو هو موقف اتّخذ بناءً على حقائق أنت تعرفها، ومخاوف من الاحتمالات ومعتقدات جمعتها من خلال التجارب والأخبار والقصص التي تناقّلت في عائلتك ومجتمعك، تمامًا كرد فعلي التلقائي تجاه أوروبا الشرقية.

استجاباتك الجسمانية هي الأكثر إخلاصًا لما تعتقده بحقّ، سواء كانت معتقداتك مستمدة من حقيقة مؤكدة أو مما تظن أنه يجب أن يكون الحقيقة، على سبيل المثال، ربما تعرف أن ممشى التنزّه آمن، ورغم ذلك فإن تقديمه لخيالك من خلال الليل يغيّر ما تشعر به نحوه (لأن الليل غالبًا ما يرتبط بالخطر)، ربما تود أن تشعر بالأمان في زقاق المدينة لكن جسمك يصعب عليه تخطي البرمجة التي اكتسبها من أخبار المساء التي تعامل هذا المكان دائمًا على أنه خطير.

وبعكس ذلك، إن كنت تعيش في منتصف المدينة فربما تجد أن ممشى التنزّه هو الأكثر غدرًا، وأن الزقاق هو ما تشعر أنه آمن تمامًا لأنه المكان الذي تعيش فيه.

فكّر لحظة في دوروثي من كنساس حين نزلت على أرض أوز، تذكر كيف ضحكت عليها كل كائنات المانشكن حين وجدوها

متفاجئة أن جليندا ساحرة طيبة. تحطمت فجأة تصورات دوروثي عن أن الساحرات سيئات وشريرات ويرتدين الأسود، برمجتها كانت هي من أخبرها بكل هذا، الصورة في عقلها لم تتماثل مع ما رآته من الجميلة اللامعة المرتدية الوردي التي وصلت في فقاعة مع عصا سحرية لتنقذها بالأفعال الطيبة.

يجب أن نعرف مرونتنا العقلية والعاطفية (طريقة تلقينا للمعلومات) لنتمكن من أن نصبح مفكرين ناقدين واعين بذاتهم، وأحد الأماكن التي سنبدأ من عندها هو استدعاء الصور المبرمجة في أذهاننا لنطرح عليها الأسئلة لنكشف ما فيها من انحيازات ومعلومات غير مكتملة، بينما تكتسب براعة في التعامل مع هذا النوع من مساءلة الذات ستصبح أفضل في إرشاد أطفالك إلى ذلك بالتبعية، تعلم كيفية توجيه أسئلة إلى أنفسنا (التعليم المؤطر للمشكلة الذي ناقشناه في الفصل الفائت) هو إحدى الوسائل التي نستخدمها لكل من الأطفال والكبار للتبصر وللكشف عن المعلومات غير المكتملة. المثير للاهتمام هو أن الأطفال بطبيعتهم فضوليون وأكثر استعدادية كثيرًا للتخلي عن تصوراتهم السابقة، وما داموا صغارًا فإنهم بالفعل لا يملكون تصورات سابقة ليحاولوا التخلي عنها! هذه أحد الأسباب التي تجعلنا مبتهجين دائمًا بالرضع وحديثي المشي؛ أنهم يجلبون تصورات جديدة طازجة لما نراه نحن قديمًا وروتينًا.

كالمحققين المهرة، يجب على الأطفال أن يرتدوا نظاراتهم المكبرة مباشرة في أثناء نظرهم إلى الشيء محل الشك، وهذا ما

أدعوه بـ«الملاحظة الدقيقة»، أن تلاحظ بدقة هو أن تهتم بوجهات نظرك اهتمامًا حريصًا (وفي أثناء إصدارك للأحكام). حين يكون أطفالنا صغارًا «ذوي أعين لامعة»، فإننا نساعدهم على التواصل مع تجارب حواسهم أولاً، نعطيهم ألعابًا وأدواتٍ ومذاقات تساعد على الإحساس بالرؤية والسمع واللمس والشم والتذوق، نعطي مسميات لما يختبرونه كـ«لامع» أو «مرتفع» أو «طيب» أو «لاذع»، بينما يكبر الأطفال فإنهم يتعلّمون تأويل هذه المستقبلات بمهارة أعظم وأعظم وبمعانٍ مصنوعة ذاتيًا، «لامع» ربما تعني أن الضوء يؤدي أعينهم، أو ربما تعني أن المساحة المظلمة قد أضيئت الآن جيدًا.

يتعلّم الأطفال أن يربطوا «طيب» برائحة العطور و«لاذع» بمذاق الليمون، حين يصبح الأطفال مراهقين فإن خبرات حواسهم تقودهم إلى تأويلات أكثر شخصية، ربما يربطون عطرًا بشخصٍ، ومن الممكن أن يتم الإحساس بالعطر كخطرٍ إن كان الشخص الذي يضعه قاسيًا، ومع ذلك فإن لدوغة الليمون يمكن اختبارها كإحساسٍ مريحٍ حين تُذكر مراهقًا بزياراته لجذته في منزل فلوريدا حيث كانت تزرع أشجار الليمون في الباحة الخلفية، الملاحظة حين تجتمع مع الخبرة الشخصية ستؤدي إلى التأويل.

نشاط : ملاحظات دقيقة

أنشطة الملاحظة الدقيقة القادمة ممتعة للغاية! انظر إليها كتجارب لا إجابات صحيحة لها، آه، هذا مريح أكثر، أليس كذلك؟ نحن لسنا هنا

لنُلزِم أنفسنا بقبضة الرؤى الكونية الجاهزة، نحن هنا لنستكشف مزيداً من الثراء والجمال، سنبدأ من عند حواسنا الخمس المدهشة، دعونا نضيع وقتنا (بإنتاجية!) بسعادة في الملاحظة وفي أن تصبح حميمياً أكثر مع موضوع دراسة.

الأرضية الأساسية للتفكير النقدي إذن هي تعلُّم الملاحظة والتسمية والتعرُّف والتأويل، استخدم هذه الخطوات الأربع، تذكر دائماً أنها أربع مهارات تتكوّن منها عملية الملاحظة الدقيقة.

الملاحظة: كُن حذراً بشأن الانطباعات وردود الأفعال الشخصية.

التسمية: ما الانطباع الآخذ في التشكُّل؟

التعرُّف: استكشف مصدر المعلومات.

التأويل: أعطِ معاني تمهيدية لانطباعاتك.

بينما تعمل على هذه الأنشطة، ذكّر نفسك أن هذه معانٍ مصنوعة بشكلٍ شخصي مستمدة من كل ما يلاحظه الطفل ويسميه ويتعرّف عليه ويؤوله. بعبارة أخرى، إن كنت تعتقد أن العطر رائحة جميلة وناعمة ثم تجد طفلك يعرّفه كرائحة لاذعة وبشعة فإن هذا مقبولٌ تماماً.

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات):

البحث الحسي عن الكنز

كيفية فهمنا لتصوراتنا الحسية التفصيلية هي الأساس الذي يقوم عليه تأويلنا للعالم من حولنا، «الدماغ هو المختزل النهائي، إنه يختزل العالم لعناصره الأولية، فوتونات الضوء، جزيئات الشم، أمواج

الصوت، اهتزازات اللمس، جميعها ترسل إشارات إلكتروكيميائية إلى خلايا المخ التي تخزن معلومات حول الخطوط، والتحركات، والألوان، والروائح ومدخلات حسية أخرى، إننا نجتمع هذه المعلومات عبر حواسنا ثم ندعها تُشكّل معنى ما و«إحساسًا»، ها! هذه التجارب الحسية تخلق أفلامًا صامتة تعيش في أذهاننا وتحرك ردود أفعالنا، المدخلات الحسية هي مصدر غني للكتابة الشخصية وللتفكير أيضًا، الآن دعونا نبدأ.

اللمس:

أرسل طفلك للبحث عن خمسة أشياء في المنزل متنوعة في القوام والأوزان والروائح والألوان، أحضر الأشياء إلى طاولة المطبخ، دوّن ملاحظات طفلك في حين تسأله هذه الأسئلة:

لاحظ

- أي الأشياء تحب لمسها أو إمساكها؟
- أي الأشياء تجعلك تتعامل معها بعناية؟
- أيها يُشعرك بشعورٍ غريبٍ في يدك؟
- هل أيٌّ منها يسبّب تغييرًا في درجة الحرارة؟ أيها يجعل يدك أكثر برودة أو سخونة؟ أيها يسبّب ذلك وأيها لا؟
- ضع الأشياء في قائمة مرتّبة على حسب الوزن (احمل اثنين في وقتٍ واحدٍ وقارن بين وزنيهما إن أمكن ومن ثم رتّبها) أي

ترتيب اخترت ولماذا؟ جرّبها في ترتيب آخر (من الأخف إلى الأثقل ومن الأثقل إلى الأخف)، كيف يبدو هذا لك؟ هل بعض الأشياء الأثقل أصغر في الحجم من الأشياء الأخف؟ هل أيٌّ من الأشياء متماثلة في الوزن؟ هل هناك فرقٌ كبيرٌ بين أثقل الأشياء وأخفها؟ اكتب الترتيبات كلها ثم التقط صورة!

- الآن رتبها وفقاً للحجم، هل بدأت بالأصغر أم الأكبر؟ التقط صورة.

هل تقيس بالارتفاع أم العرض حين تقارن الأحجام؟ جرّب الطريقة الأخرى، كيف يغيّر هذا الترتيب؟ ما مدى اختلاف تلك الترتيبات عن الترتيب وفقاً للوزن؟ قارن الصورتين.

التسمية

- صف قوام كلٍّ منها: ناعم، خشن، شائك، أجعد.

- أي نوعٍ من الروائح تشم من كل شيء؟ جميلة أم كريهة؟ ناعمة أم قاسية؟

- ما ألوانها؟ عدّها.

- ما اللون الذي تُظهِره في النور؟ وفي الظل؟ من الأعلى أم من الأسفل؟

- كم عدد مرات ظهور اللونين الأصفر والأخضر في الإضاءة أحادية اللون؟

- قارن الألوان بألوان علبة من أقلام شمع كرايولا، وانظر هل من الممكن أن تجد أسماء ألوان جديدة للأشياء في حوزتك.
- كم عدد الألوان الجديدة التي وجدتها بعد تلك الملاحظة الدقيقة؟

التعرُّف

- ضَع الأشياء في مجموعات منطقية لك على حسب (الألوان، القوام، الأشكال، الروائح).
- عد عدد الأشياء الموجودة في كل مجموعة.
- رتِّبها وفقًا لأي الأشياء تحب إمساكها أكثر.
- رتِّبها وفقًا لأي الأشياء تحب النظر إليها أكثر.
- ما المشترك بين هذه الأشياء؟ ماذا يجعلها مختلفة عن بعض؟
- حدِّد الأشياء الأكثر تشابهاً مع بعضها والأشياء الأقل تشابهاً.

التأويل

- ما الذي جذبك إلى هذه الأشياء في أثناء بحثك في المنزل؟ هل هناك أي أشياء فكرت فيها ثم قررت ألاَّ تحضرها إلى الطاولة؟ لماذا؟
- ما الذي يجعل الشيء الثقيل ثقيلًا؟ ولماذا هناك أشياء أخرى خفيفة؟ هل يمكنك أن تحدد؟

- فكّر في الألوان مجدداً، في رأيك، لماذا نرى لوناً واحداً حين ننظر إلى شيء واحد سريعاً، ونرى أكثر من لون حين ننظر إليه بتركيز أكبر؟

- ما الفارق بين الرائحة الطيبة والرائحة الكريهة؟

- ماذا أيضاً يمكن أن تقوله حول تلك الأشياء وتجربتك في استكشافها؟

- أضف أسئلة طفلك إلى هذه الأسئلة، واطلب منه أن يوجّه إليك أنت نفس هذه الأسئلة أيضاً، قارن أجوبتكما.

الهدف هو إدراك كيف يمكن للتحقيق باستخدام الأسئلة أن يؤدي إلى وعي أفضل بتفاصيل إدراك وجود الأشياء.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) :

حقيبة المفاجآت

بيتي إدواردز، مؤلفة كتاب «الرسم على الجانب الأيمن من المخ»، تشرح أن السبب الذي يجعل كثير منّا يشعر بأنه لا يستطيع الرسم هو أننا لم نتعلم كيف يمكننا الرؤية، حين نأخذ أقلامنا للورقة نظن أننا نعرف ما نراه ثم نحاول أن نرسم الصورة في أذهاننا، على سبيل المثال، لأننا في حياتنا اليومية ننظر إلى الناس في أعينهم وليس في جبهاتهم فإن أذهاننا تتخيّل الأعين تشغل مساحة في الوجه أكبر من المساحة التي تشغلها في الحقيقة. حين يذهب طفل ليرسم وجهاً فإنه غالباً يرسم الأعين كبيرة جداً وفي مكانٍ عالٍ من الرأس، حين نأخذ خطوة إلى الخلف

لنقيّم رسمتنا، فإنها لا تبدو صحيحة، لكن نجد الأمر صعباً حين نحاول تحديد الخطأ، ماذا يحدث إن استخدمنا أداة موضوعية كالمسطرة لنكتشف بها أين الخطأ؟ سنرى أن الأعين تقع في المنتصف تماماً بين أعلى الرأس عند الشعر وبين أسفلها عند الذقن، الجبهة أكبر كثيراً من المتوقع والأعين أصغر كثيراً بالنسبة إليها. لترسم جيداً فإن الأمر يتطلب نوعاً من «النسيان» لافتراضاتنا، وتفعيل استعداداتنا لحدوث نوع من التغيير الجذري فيما نظن أننا نعرفه من بيانات دقيقة. سنحتاج إلى خداع أدمغتنا وأعيننا لترى حقيقة العلاقات والنسب (وليست النسخ التي نظن أننا نعرفها)، في كتابها تطلب بيتي من الطلاب أن يقلبوا الصورة التي يرسمونها رأساً على عقب حتى تُربك افتراضات الفنان، بطريقة مشابهة فإن التفكير النقدي يعتمد على الأعين المنطلقة للعقل، إننا نتخلى عما نفترض أنه معلومات دقيقة، ندع أنفسنا نفتح على فكرة جديدة أو وجهة نظر تقول بأن هناك معلومات قد نكون قدمناها لأنفسنا بشكل خاطئ، نصل إلى هذه الدرجة من الانفتاح عبر تخريب توقعاتنا عمداً، لأن أعيننا تُشكّل أعظم مصدرٍ للبيانات التي نأخذها بيقين، النشاط الأول سيُخلّصنا من سلطة الرؤية.

تعليمات:

اجمع مختارات من الأشياء من منزلك، كهذه:

- زجاجة عطر

- مخروط صنوبر

- فاكهة النجمة
- دمية
- فرشاة تنظيف
- صدفة بحر
- ريشة
- غليون
- وسادة ناعمة
- حجر نهري
- وهكذا، أعطِ لنفسك الحرية في اختيار أي شيء قد يحمل أكثر من بُعد لوجوده.
- ثم ضع كل شيء على حدة داخل حقيبة ورقية (يجب أن تكون الحقيقية سميقة وغير شفافة).
- ضع الحقائب في «محطات» على طاولة مطبخك أو على طاولة قهوة.
- اربط رباطاً لتغطية أعين طفلك (يمكنك أن تستخدم قناع نوم، أو رباط رأس في ذلك).
- سيعمل طفلك على كل حقيبة على حدة في المرة، لكن لكم الحرية في العمل على جميع الحقائب (لأن الأمر ممتع).
- ا طرح الأسئلة التالية ثم اكتب ردود طفلك على السبورة في حين

يتفحصون الأشياء، دعهم يأخذون في الاعتبار أنهم، وإن كانوا يعرفون ما هذه الأشياء، فإن عليهم تجنب تسميتها حتى ينتهوا من «ملاحظتها».

الأسئلة:

اقرأ الأسئلة جهرًا لأطفالك بطريقة فيها إثارة فضول، ومن الطبيعي تمامًا أن ينتج عن ذلك حوار يسير في الاتجاهين.

الملاحظات

- افتح الحقيبة وضع يدك على الشيء، ما أول ملاحظة حسية يمكنك أخذها؟

- حرّكه في يديك، هل يمكنك أن تصف انطباعًا عن تأثيره المباشر عليك؟ هل من الممتع أن تمسكه؟ هل الأمر سخيّف؟ هل غير مريح أم مهدئ للأعصاب أم شائك أم دافئ أم بارد؟

- إلى أي حد هو ثقيل أو خفيف؟ إلى أي حد هو كبير أو صغير؟ كم عدد أجزائه؟ ما نوع حوافه (ملساء أم حادة أم قائمة أم منحنية)؟ - أخرج الشيء من الحقيبة لتشّمّه، هل من اللطيف أن تشّمّه؟ أم مزعج؟ أم ربما محايد؟

- هل يمكن هزّه لإحداث صوت؟ ما نوع الصوت؟ لطيف أم مزعج؟

- دَع الطفل يحدّد إن كان يمكن تذوق الشيء، وإن كان، فما مذاقه؟

التسمية

- ما قوامه؟ كيف يمكن وصفه؟
- ما شكله؟
- كم عدد الجوانب أو الأبعاد؟
- ما شكله الهندسي؟
- قم بتسمية الرائحة والمذاق (إن كانا محسوسين)، هل هناك أي مقارنات بينها وبين مذاقات أخرى تعرفها؟

التعرُّف

- هل يمكن أن تتعرَّف على ما الذي يعطيه قوامًا ووزنًا وشكلًا؟
- هل يمكنك تسمية أجزائه؟ ما هي؟
- هل يمكنك تخيُّل ما هو استخدام الشيء؟ (هل يؤكل أم أداة أم ديكور أم جزء من الطبيعة أم...؟).
- هل يمكنك أن تخمن ما هو الشيء؟

التأويل

- انزع رباط تسمية العين، افحص الشيء بعينيك.
- بالنظر في إجاباتك السابقة، ما الذي فاتك حين لم يكن مسموحًا لك استخدام بصرك كأداة ملاحظة؟ ما الأبعاد الجديدة للشيء

- التي يمكنك ملاحظتها الآن؟ (كاللون على سبيل المثال).
- هل توافق ملاحظاتك الغرض من الشيء؟ (على سبيل المثال، إن قلت إن الرائحة كانت كريهة لكن تبين أنها رائحة عطر، فهل هذا يجعله شيئاً لا يؤدي غرضه؟).
- هل يمكنك شرح غرض الشيء؟ كيف يمكن لوزنه وشكله وقوامه ورائحته ولونه ومذاقه أن يساعدوا الشيء في تحقيق غرضه؟ وما الصفات التي لا تساعد في ذلك؟
- هل أنت متفاجئ بأيٍّ من ملاحظاتك؟ أي الملاحظات ولماذا؟ تذكر أن ليست هناك إجابات صحيحة، كل الملاحظات لها معنى، وحتى إن لم تكن جميعها واضحة أو مشروحة بما فيه الكفاية.
- التحري الدقيق من دون وجود إجابات صحيحة معتقد بها سابقاً هو الأساس في البحث النقدي الممتع ذي الجودة.

منطلقو التفكير (من ثمانية عشر إلى ثلاثة عشر عاماً) :

الملاحظة الدقيقة للصور

بالنسبة إلى المراهقين في عائلتك، فدعنا نلقي نظرة على الصور المرتبطة بقضايا اجتماعية، سنضع الموضوعات المجردة تحت الملاحظة بدلاً من الأشياء المحددة، تذكر أن الصور الذهنية تؤثر في التأويل، أعيد التفكير في رحلتي إلى أوروبا الشرقية، لم أكن حتى واعية بالأفلام الصامتة التي كانت تُعرض في خلفية عقلي، لم تُتَح لي الفرصة لمقارنة الواقع بالفيلم الصامت حين أدركت ما كنت قد خلقتة في

عقلي. هذا التمرين يدعو المراهقين إلى الإجابة عن أسئلة حول الصور في أذهانهم المرتبطة بالقضايا الاجتماعية المذكورة هنا (أو يمكن للمراهق أن يختار قضايا بنفسه).

ملحوظة: سيكون من المفيد أن تعيد هذه العملية عدة مرات خلال مدة من عدة أسابيع، في المرة الأولى اختر موضوعًا محفزًا لرد فعل قوي، المرة الثانية اختر موضوعًا لا يستفز معتقدًا أو رأيًا قويًا، انظر وقارن بين التجربتين.

- رياضيو الكليات: هل يجب أن يتقاضوا راتبًا للعب؟
- أدوات تعديل الصور وتغييرها: هل من الأخلاقي تبديل وجوه العارضين في الإعلانات وأجسامهم؟
- قوانين التعليم المنزلي: هل يجب السماح للآباء بتدريس أطفالهم في المنازل من دون رقابة حكومية؟
- ألعاب الفيديو العنيفة: هل تلعب دورًا في زيادة السلوكيات العنيفة عند من يلعبونها؟
- الألعاب المصممة حسب الجنس: هل من المقبول تسويق الألعاب وفقًا لكونها مقدمة لجنس محدد؟
- حقوق الحيوان: هل من الأخلاقي استخدام الحيوانات في التجارب الدوائية والتجميلية؟
- وسائل التواصل الاجتماعي: هل تقمع تلك الوسائل حرية التعبير؟

- الهواتف الخلوية: هل القوانين التي تقيّد استخدام الهواتف في أثناء القيادة مقبولة؟

- الموسيقى والأفلام: هل من الأخلاقي تحميل الموسيقى والأفلام بالمجان؟

- عبور السياج الأمريكي-المكسيكي: هل عبور السياج يُعتبر آلية هجرة فعّالة؟

ضع الموضوعات المختارة على أعلى صفحة بيضاء من الورق، اطرح الأسئلة، واكتب الإجابات الشفهية بالنيابة عن ابنك (يحب بعض الطلاب العمل وحدهم، وهذا مقبولٌ أيضًا)، شجّع طلابك على أخذ كل الوقت الذي يحتاجون إليه، اقترح عليهم أن يغلقوا أعينهم ويحركوا عدسة كاميرا خيالهم حولهم لينظروا داخل الزوايا، ليروا ما خلف المقدمات، ليأخذوا في عين الاعتبار جميع دقائق المعلومات في الموضوعات المقترحة، وليتجاوزوا كل ما لا يتعلق بالأمر.

الأسئلة:

- حين تتوقف لتفكر في الموضوع المختار، ما المَشاهد التي تنير في عقلك؟ صِفْها تفصيليًا قدر الإمكان، ثم انطلق للأسئلة التالية لتضيف مزيدًا.

- هل ترى بشرًا؟ بأي لون بشرية؟ هل يمكنك تحديد جنسهم؟ فكّر في نطاقٍ واسعٍ من البشر، وليس فقط من اعتدت رؤيتهم، هل

هم ذوو دخولٍ محددة أم من الطبقة المتوسطة أم الثرية؟ أي نوع من الملابس يرتدون؟ هل هم أطفال أم كبار؟ هل هم من جماعة دينية؟ أي جماعة؟ بأي طعامٍ يستمتعون؟

- إن كان لك أن تحضر لهم مشروبًا ساخنًا فماذا سيكون؟

- أين يعيشون؟ في منزل؟ في شقة؟ في تجمع سكني؟

- في خيمة؟ في منزل ريفي؟ في تجمعٍ عمراني أو ضواحي جديدة؟ ماذا يفعل هؤلاء الناس؟ هل يجلسون؟ يقفون؟ يطبخون؟ ينظفون؟ يشاهدون التلفاز؟ يعملون على هواية؟ يعملون في المنزل؟ يأكلون وجبة؟ يذاكرون؟ يصلون؟ ما نسبة الأطفال فيهم إلى الكبار؟ من المسؤول؟ من يحب وجوده بينهم ولا يحب؟ كيف عرفت ذلك؟

- ماذا يعملون؟ ما نشاطهم الأساسي؟ وأين يجري؟ في معمل؟ في جلسة تصوير؟ في غرفة تحكم لعبة؟ في غرفة اجتماعات؟ في البيت؟

- هل يمكنك تحديد حالتهم الشعورية؟ خُذ بعين الاعتبار هذه الاحتمالات: راضٍ، قلق، خائف، غاضب، ثائر، غير آبه، متحمس، فضولي، مقتنع، ذو وجهة نظر.

- أين تقع هذه المشاهد؟ في مدينتك؟ في ولاية أو دولة أخرى؟ في غرفة معيشتك؟ في الداخل أم الخارج؟

- كيف حالة الطقس؟ في أي فصل في السنة؟ ما الألوان الموجودة

وغير الموجودة؟ هل هناك دفة أم برودة؟ هل هناك أكثر من فصل؟

- ماذا ترى في الغرفة؟ ملعبًا، حرمًا جامعيًا، معملًا؟ هل هناك مشاهد جديدة تتزاحم مع المشهد الأصلي حين تفكر أكثر في موضوعك؟ ما تلك المشاهد؟ وماذا تصنع منها؟

- إن عُرِض الموضوع على لوحة إعلانية، فماذا سيكتب عليها؟
- إن كان الموضوع عبارة عن صورة من دون كلمات فماذا كنت ستكتب فيها؟

- إن كان الموضوع عبارة عن ميم على السوشال ميديا، فماذا كان سيستخدم من صور ورسائل؟

- إن كان الموضوع يعتمد على معدات، فما نوعها؟ وما المعدات المثالية له، وهل هي آمنة أم غير آمنة؟

- إن كان الموضوع عبارة عن إعلان، فهل سيكون إعلانًا يؤيد أو يعارض شيئًا ما؟ أي الصور والقصص قد تشرح وجهة النظر؟ هل هناك علامة تجارية تدعم وجهة نظرك حاليًا بإعلاناتها؟ ضَعها في ذهنك الآن، ما تلك العلامة؟

شارك التالي مع طلابك:

الصور التي جمعتها في ذهنك تؤثر في كيفية قراءتك للمقالات والكتب في الموضوع الذي تبحث فيه، وتؤثر في كيفية استماعك للتقارير الإخبارية وما تشعر به حين تقابل ناسًا جديدًا من هذه

الجماعات، أفلامك الصامتة تشكّل قاموس المصطلحات الذي تتكلم به في الموضوع، لقد سمّيت هذه الانطباعات ودوّنتها وتعرّفت عليها، والآن جاء وقت التأويل.

- ما الذي فاجأك حين اكتشفته حول الصور الموجودة في عقلك؟

- هل حفّز أي سؤال من الأسئلة إحداثَ تغيير ما في كيفية رؤيتك

للموضوع؟ على سبيل المثال، هل كان لك أن تفكر في التعليم

المنزلي، ربما ظننت أنه يتم فقط داخل البيوت، لكن السؤال

حول الشقاق جعلك تفكر أن ربما أيضًا بعض العائلات تُعلّم

أبناءها في شقاق، ربما قرأت السؤال الذي يتساءل عن أين يعيش

الناس المتممون إلى الموضوع لتدرك للمرة الأولى أن هناك من

قد يعيش منهم خارج الحدود وفي خيم.

- كيف أثرت الصور الكلية التي خلقتها في طريقة تفكيرك في

الموضوع؟ على سبيل المثال، فكرتي المخطئة حول أن الشمس

لا تشرق في الدول الشيوعية جعلني أظن أن الناس الذين يعيشون

هناك كانوا دائمًا غير سعداء.

- حين تفكر في الموضوع الآن، بعد هذا الجرد، صِف انطباعتك

الكلية ومدى تغييره حول الموضوع، سلبياً أم إيجابياً؟ هل هناك

أي تحولات عما كان قبل الجرد؟ هل هناك معلومات جديدة لم

تكن في حسابك؟

حين تراجع التمارين مع أبنائك يمكنك مشاركة هذا الملخص بالتوازي مع التمارين:

الغرض من الملاحظة الدقيقة هو أن تضعك أنت، الملاحظ، على تواصل مع القصة التي تخبرها لنفسك حول أي شيء أو موضوع، وراوي القصة في هذه الحالة هو أنت! وجهة نظرك الشخصية ربما تكون غير مرئية لك بما أنها هي الطريقة التي يوجّه بها عقلك انتباهك، ويخلق بها الانطباعات التي تتحرك معك طوال الوقت، عبر الإبطاء والنظر في الزوايا والتصدعات في موضوع ما ستكشف الغطاء عن كيفية تشكّل هذه الافتراضات، وكيفية تكوّن شعورك تجاه هذا الموضوع أو الشيء، والخطوات القادمة في رحلة تفكيرك الناقد ستزيد عمق فهمك لكيفية تشكيلك للانطباعات.

بمجرد أن تجرّب هذه التمارين مع أطفالك (أتّح لنفسك الفرصة لتجربها أكثر من مرة)، انتقل إلى الفصل القادم، لتعرف ما الهدف من كل هذه الملاحظة، وإلى ماذا تؤدي.

الفصل الخامس

التفكير النقدي يبدأ بالاهتمام

«باختصار، المنتظر من المفكر الناقد المثالي أن يهتم».

روبرت إنيس

قبل أن نذهب بعيداً، من المفيد التفكير في الهدف من كل هذا التعليم والنقد!

هل الهدف هو «الانتهاء منه» أم «إتمامه على أي حال»؟

هل مجرد حدوث هذا يعطينا مقياساً دقيقاً لما تعلمناه؟ أم هل هناك مقياس أكثر ذاتية ينبغي لنا أن نستخدمه؟

تربية المفكرين الناقدين يجب أن تكون ذات غاية أو لِمَ سنجهد أنفسنا فيها؟

بينما كنت أفكر في الغاية من التعليم قابلني تعليقٌ عبرَ تماًماً عما أفكر فيه للحاصلة على جائزة نوبل توني موريسون، قالت في الوثائقي الذي يحكي قصة حياتها بعنوان «توني موريسون: الأجزاء التي تشكّلني».

في أثناء حركة الحقوق المدنية الأمريكية في الستينيات، حين كان كثير من أصدقاء موريسون في الشوارع للاحتجاج، وجدت موريسون نفسها تربي طفلين كأُم عازبة، كانت تعمل محررة خبيرة في راندم هاوس، وهي شركة نشر في مدينة نيويورك، دعاها حس المسؤولية عندها إلى تجنُّب مخاطر السفر والاعتقال، رغم ذلك كانت تود أن تُظهر التضامن مع المحتجين، لذا سألت نفسها: «ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟».

ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟

ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟

ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟

ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟

ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟

كل كلمة كانت محمَّلة بالفعالية، أدركت موريسون أنها يمكنها استخدام موهبتها وموقعها كمحررة لتصنع فارقًا، طلبت موريسون عقود كتب للسير الذاتية الخاصة بنشطاء الحقوق المدنيين كأنجيلا دافيس ومحمد علي، وطوّرت الحراك الاجتماعي الذي عنى لها كثيرًا عن طريق استخدام تعليمها وموقعها المتميز في العمل على ذلك، «ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟»، لقد فعلت بالفعل.

الاهتمام بما يهم

في سياق التعليم الرسمي، اسمع هذا السؤال بهذه الطريقة: «كيف يمكن للشخص الذي أكونه، وفي المكان الذي أوجد فيه أن يستخدم أدوات البحث والتعمق في مجاله العلمي لتحسين حياة النوع البشري هنا والآن؟».

في سياق الأطفال الصغار أسمع بهذه الطريقة: «بحق السماء، كيف يمكن لهذه المادة أن تكون لها علاقة بمن يكون طفلي وما يمكن أن يكونه لنفسه وللآخرين؟»، هذا تساؤل قوي فيما يخص التعليم المدرسي، ألا ترى ذلك؟ دعني أضخم الأمور وأضيف بعض الدراما، في رأيي، نحن نتعلم لنشارك في تحولات العالم حتى وإن كانت مساهمتنا تعني استخدام شهادة في الكيمياء لتحسين جودة الشامبو، كل مساهماتنا تضيف شيئاً إلى معيشة أفضل (أو على الأقل، ألا يجب أن تكون كذلك؟)، ألم يكن هذا ما تعنيه موريسون بالسؤال المحفز الذي سألته لنفسها؟

كل مرحلة عمرية مسؤولة عن هذه المهمة العظيمة، أن يتم تطوير آخر ما تم الوصول إليه في حقل دراسي ما، ومن ثم تطوير المانيفستو الأكثر تحريراً وفعالية وإنسانية منه بالنيابة عن الآخرين (مشروع المبادلة الإنسانية الكبير).

التعلم في الأساس لا غاية له في جمع المال أو السلطة، لكن غايته في اكتساب الحكمة واستخدام المعرفة بشكلٍ مفيدٍ في تحسين حيوات

جميع الناس، أنا مذهولة لكوني أعيش في هذه الحقبة، يمكنني أن أسافر إلى الجانب الآخر من العالم في أربع وعشرين ساعة، يمكنني أن أتحدث في مكالمة فيديو لعددٍ غير محدود من الدقائق مع ابني في بانكوك من دون تكلفة سوى تكلفة خدمة الإنترنت، يمكنني أن أضغط «بحث» على الآيباد لأجد إحصائيات أريد معرفتها في أقل من ثوانٍ، أعمالي المنزلية تنجزها آلات، حقًا هذه العجائب التكنولوجية هي نتيجة ضم مواهب بلايين من البشر المتعلمين معًا لتحسين حياة كل البشر في كل مكان.

المهمة الأكاديمية معنية بالخدمة، كلُّ منّا يساهم في الحوار الممتد عبر القرون في حقل دراستنا، نستخدم أصواتنا لتوسيع سيمفونية الأفكار، لإنعاش جميع الناس (ناسي وناسك) في كل مكان، «ماذا يمكنني أن أفعل من مكاني هنا؟» هو الهدف الواضح من التعليم القوي ذي المعنى، في الغالب تُشعرنا المدرسة بما يشبه ذلك، «يجب عليّ أن أجتاز امتحان الرياضيات لأخذ امتحان رياضيات غيره»، الرياضيات كمثال، مهمة لأنها تمكّن الناس من الاهتمام بدقة، ماذا لو رأى طفل الرياضيات كشيء ذي قيمة؟ كوسيلة أفضل لقياس ما يهتمك؟

على سبيل المثال: عدد أكواب الدقيق لوصفة عجينة خبز، نسبة السماد للتربة في حديقة زرع خضراوات، درجة الحرارة الناتجة عن حمى الجدري، الزوايا التي يجب أن تكون عليها جوانب اللحاف، نسبة الحيوانات المتبقية في لعبة فيديو، ماذا إن نظرنا إلى الرياضيات كأداة تفكيرٍ نقدي، الرياضيات تجعل في الإمكان فهم جميع البيانات

التي يُصرّخ بها في وجهنا على الإنترنت، وفي الكتب وفي المؤتمرات الصحفية. ماذا إن أعطتنا الطلاقة في الأرقام حسًا أفضل بامتداد الزمن حين ندرس التاريخ ونستدعي بيانات محددة تحتاج إلى فهم مدى اتساع المدد لتكون ذات معنى؟

أصبح أحد أبنائي مذهولاً بالرياضيات بسبب المسافات العملاقة بين الكواكب والنجوم، (اقرأ كتاب: «أرقام كبيرة جدًا»)، حين كان أطفالاً في المرحلة الابتدائية دعونا عدة عائلات من جيراننا لينضموا إلينا في إعادة صنع النظام الشمسي. وقفنا متباعدين بناءً على نموذج مصغر بنسبة بليونية! وقف الأطفال في طابور بمسافات محسوبة من الشمس في نهاية شارعنا ووضعوا نباتات على مسافات صحيحة، حتى وصلنا إلى الكواكب الخارجية (من ضمنها بلوتو الذي استُبعد مؤخرًا من المجموعة). اكتشفنا أن ممثل بلوتو عندنا يجب أن يكون على بُعد ثلاثة أميال من بقيتنا، صُعِق أطفالنا من صدمتهم بمدى اتساع النظام الشمسي.

يجب على الرياضيات ألا تكون مادة مجردة في التمارين والمسائل، إنها آلية تفكير نقدي تجعل من الممكن أن نهتم بالأمور بدقة، إنْ قَدَّر الطالب أهمية الرياضيات فسيكون أكثر استعدادية أن يتعامل بقدرٍ مناسبٍ من الغضب أو التقدير تجاه ما تمثله الأرقام، لكن من دون اهتمام فإن التعليم هو مجرد «عملية شراء» أخرى، ومهارة الرياضيات حينها ستصبح مجرد مفتاح لدخول نادٍ أفضل من حاملي الشهادات. يمكننا أن نطرح نفس السؤال حول القراءة أو التاريخ أو تعلُّم لغة

جديدة؛ لماذا هي مهمة؟ إنقاذ حفظ المعلومات ليس مهمًا حينها بقدر أهمية التساؤل عن الكيفية التي تجعلنا بها المادة نهتم أكثر، اهتمام أكثر وأفضل بالموضوع نفسه وبيعنا وبكيفية تأثير الموضوع فينا جميعًا. التفكير النقدي يبدأ بالاهتمام.

الاهتمام بالتفكير جيدًا

أن تفكر جيدًا يعني أن تهتم بتحسين تفكيرك بما فيه الكفاية، للدهشة أطفالك مقبلون على واحدة من أكثر الطرائق فعالية في تحسين التفكير: الألعاب، بجميع أنواعها، ألعاب الفيديو، وألعاب البطاقات، والألعاب اللوحية وألعاب النرد.

الكاتب برنارد سوتس وضع التعريف المفضل عندي على الإطلاق للألعاب: «لعب لعبة هو المحاولة التطوعية لتجاوز العقبات غير الضرورية»، هناك مصطلحان مفتاحيان في التعريف أريد أن أسلط عليهما الضوء: «تطوعي» و«تجاوز»، لعب الألعاب هو شيء فريد في حياة أطفالك لأنهم يختارونه ويتحفزون لتجاوز العوائق غير الضرورية التي يعطيها لهم، هذه هي الظروف المثالية للاهتمام بالتفكير جيدًا، أطفالك يهتمون باللعب بطريقة صحيحة، وباللعب للفوز ولتطوير أدائهم اللعبي. تمنحهم الألعاب حزمة من مهارات التفكير العظيمة: مرونة العقل، والإصرار، والتساؤل، والسعي للدقة، والتخيّل والإبداع، والتفكير بوضوح ودقة، بالإضافة إلى أن الألعاب ممتعة، أحيانًا ننسى مدى أهمية المتعة في القدرة على التفكير جيدًا؛ عقل مرتاح (باحث

عن كلِّ من المتعة والمخاطرة ذات المعنى) هو عقل مسترخٍ ومنتبه في نفس الوقت.

الألعاب توفرُّ ظروف التحدي العالي مع المخاطر القليلة، وهذه ظروف مثالية للتعلّم أيضًا، باحثا الدماغ رينايث وجيفري كاين يعرفان أحد العوامل المفتاحية في حالة الاسترخاء المنتبه: إنه ما يسميانه «الجاذبات المحورية»، وهي نقاط ارتكاز «ننظم حولها ملاحظتنا وأفكارنا»، الأنشطة التي تعمل كجاذبات محورية (ك لعب الرياضة، والاستمتاع بكتاب مصور، أو المشاركة في مسابقة) تعطي الأطفال تجربة السلطة والتوجُّه الشخصي، إنها توفرُّ نقطة ارتكاز وإطار عمل شخصي من الممكن تشكيل أنماط حوله، وحينها يمكن للجاذبات المحورية أن تبني المعنى المنتظر منها، كما تبني المحارة لؤلؤة ببعض من العزيمة، المعنى الشخصي الذي يصنعه اللاعب لنفسه يغذي حماسه لحل المشكلات ومهاجمة التحديات الأكبر، يتعلَّم كيف يفكر تفكيرًا إبداعيًا، وكيف يتسامح مع عدم الوضوح ومع تأخير الشعور بلذة المكسب، وهي جميعها مهارات ضرورية للتوسُّع الحقيقي في المعرفة.

ابني الأكبر، نوح، البالغ الآن، شغوفٌ بالألعاب ويمتلك مئات منها، وهو المصمِّم الرئيسي لإحدى ألعاب الإنترنت مفتوحة المصدر، لديه بدروم مليء بألعاب اللوح والكروت وألعاب تمثيل الأدوار، في كل مرة يلعب فيها لعبة جديدة يخسر عن عمدٍ، ليجرَّب كل طريق محتمل في اللعبة ليستكشف حدودها وفرصها، وعندما ينتهي من رؤية جميع الطرق التي يمكن أن يخسر بها في اللعبة، يتحول إلى مقاوم شرس،

لقد لعب آلاف الألعاب بجميع تنوعاتها خلال سنوات عمره الأكثر من ثلاثين: أون لاين، وتحكمية، ومنضدية، وكروت، وتمثيل أدوار، وألعاب نرد.

عندما يفتح نوح لعبة لوحية فإنه يستكشف جميع مكوناتها، ويخرج جميع أجزائها ويضع الكروت داخل حافظات بلاستيكية حامية، يقرأ التعليمات، يفهم الرموز، يفك غلاف اللوحة.

مرحلة الاستكشاف مهمة، إنها تسمح للعقل بأن يمهّد أرضية للتجربة القادمة، ومن ثم يجرب نوح عبر تخيل خصم يواجهه، مختبراً الكيفية التي من المفترض أن تعمل بها اللعبة ومتصوراً النتائج المحتملة، ويعود للتعليمات مراراً وتكراراً، يشرح اللعبة قدر ما يمكنه بعد ذلك للاعبين الجدد، مرحلة الشرح تعزز كل ما فهمه من اللعبة حتى وقت حدوثها.

بصرف النظر عن مدى استيعابنا -نحن اللاعبين الجدد- للتعليمات التي يشرحها فإننا نبدأ على أي حال، هو «المبتدئ الخبير» ونحن معه جميعنا متحمسون للتعلم، وبمجرد أن نبدأ التقدم في اللعبة تتدافع الأسئلة سريعاً وبانفعال:

- ماذا إن لعبت هذه الورقة الآن؟
- ماذا إن كانت تريد إيقافني؟ كيف ستفعل هذا؟
- هل من المسموح لي السؤال عن ذلك؟
- ماذا إن نفذت مني الكروت؟

• ما قيمة هذه الحركة؟

• ماذا سيكلفني إن قمت بهذه الحركة؟

يستكشف كلُّ منَّا اللعبة، نستكشفها بتنوعٍ من الحركات، ويشرح كلُّ منَّا للآخر كيف يمكن أن تعمل أو ماذا يمكن أن تكون النتائج. تتعلق الأسئلة بحركاتٍ معينة تُتَّخَذ في سياق اللعبة، نكشف عن استراتيجيات صالحة للتنفيذ وأخرى تفشل باستمرارٍ (غالبًا لحسن حظ اللاعبين الذين يهربون بسرعة!).

يبحر اللاعبون تجاه نفس الهدف؛ الفوز بهذه اللعبة، في بعض الألعاب يفوز لاعبٌ واحدٌ، وفي ألعاب أخرى يفوز فريق، والآن هناك بعض الألعاب التي تضع جميع اللاعبين في مواجهة مع اللعبة نفسها، ويصبح هدف اللعبة هو أن يفوز الجميع، ولأن الأطفال مهتمون بالفوز حينها يصبح بناء مهارة التفكير النقدي غير مجهد.

من النادر أن يقلق الآباء حيال لعب الألعاب اللوحية، تلك الألعاب تستدعي الذكريات السعيدة من الطفولة، إنها تخرج إلى الطاولة في حين يقف الآباء يراقبون ويتنصّتون، ولكن حين تخرج لعبة فيديو، حينها ستجد سيل قلق يتدفق، رغم أن ألعاب الفيديو توفّر تجربة مشابهة للألعاب اللوحية، فإن حقيقة أن كل التعلّم يحدث بين عقل وآلة من دون إرشاد يقلق الآباء، لنكن منصفين، إن الأبحاث محيرة وفي أوقات كثيرة مقلقة، على أي حال، آخر الدراسات في هذا المجال تقول بأن القادم مبشر، إحدى مجموعات البيانات الحالية وصلت إلى هذه النتائج:

النقاش حول ألعاب الفيديو ركز حول المخاوف من أن يتحول اللاعبون إلى مدمنين، واضعاً في الاعتبار شعبيتها الممتدة، كثير من واضعي السياسات قلقون حيال التأثيرات السلبية لوقت اللعب على الصحة العقلية، نتائجنّا تتحدى هذه النظرة، العلاقة بين وقت اللعب والصحة العقلية كانت إيجابية في عيّنتين كبيرتين، ولذلك فإن دراستنا تتحدث ضد الحاجة الملّحة إلى تقنين ألعاب الفيديو كإجراء وقائي لتقليل إدمان لعب الفيديو، إن وصلنا إلى أي شيء فقد وصلنا إلى أن ألعاب الفيديو تساهم بشكل إيجابي في تحسين الصحة النفسية، وتقنين تلك الألعاب قد يمنع هذه الفائدة عن لاعبيها.

وللعجب، هناك دراسات أخرى تضيف أن الأطفال الذين لا يلعبون هم الأكثر عرضة لخطر عدم التحكم في المشاعر، وللمستويات الأقل من الصحة العقلية، والملحوظ هو أن عدم اللعب يضع الأولاد تحديداً في خطر أكبر مع تلك المشكلات، في حين أن اللعب ساهم بشكل إيجابي في تعزيز الفوائد الإبداعية والاجتماعية والعاطفية عند اللاعبين. هناك الآن دراسات تعرض نتائج إيجابية بنفس المستوى، حتى على الألعاب العنيفة كجراند ثيفت أوتو، وريزيدنت إيفل، ومورتال كومبات، وبرينس أوف برسيا، بينما ما زالت هناك مخاوف تخصّ أضرار الضوء الأزرق على العين، وعلى فقرات الرقبة من التحديق طويلاً إلى الشاشة، وقلق حيال الجانب الجامح جداً جداً من الإنترنت (بدءاً من إعلانات اليوتيوب إلى تطبيقات السوشيال ميديا)، لكنّ لعب اللعبة نفسها أثبت أنه ذو قيمة لصحة الطفل العقلية وتحكمه في عاطفته وحس استقلاله.

الأطفال الذين يلعبون من سبع إلى عشر ساعات في الأسبوع يشعرون بوحدة أقل ويدخلون في تجربة تركيز عميق وممتع وصحي، هذا البحث يؤكد ما قاله لنا آل كاينز لعقود، الضغط الإيجابي يساعد اللاعبين على تحقيق «التدفق» وتحقيق تجربة أن تكون «حاضرًا»، لأن اللاعبين دائمًا ما تدفعهم مهمات اللعبة وتحدياتها، بينما هم في انتظار احتمالية الحصول على النجاح، فإن فوائد اللعب تذهب إلى أبعد من التسلية والصحة العاطفية، اللعب مهمٌ للأطفال، لأنهم حين يهتمون، فإنهم يدخلون في تجربة إحساس بالكفاءة وتقدير الذات.

حين يهتمون، يقاومون جميع العقبات ليخلقوا حلولاً، وليفكروا بدقة، وليتغلبوا على العوائق، من سنوات عدة ذهبت عائلتي في رحلة إلى إيطاليا، فتحت أنا وزوجي جون خريطة كبيرة وغير عملية لنجد طريقنا إلى متحف مجهول، إرشاد أنفسنا كان خطوة مجهدة مبدئيًا، بعد دقيقة أو دقيقتين مربكتين، تسَلَّقَ أبناؤنا الثلاثة كتف جون وقالوا في صوت واحد: «سنذهب في هذا الاتجاه»، وأشاروا إلى نفس الاتجاه وانطلقوا بثقة، كنت مندهشة أنا وجون ولم نكد نصدق أنهم استطاعوا قراءة الخريطة بهذه السرعة. أرشدنا الأولاد طوال الطريق من دون خطوة واحدة خاطئة، عندما سألت لاحقًا كيف عرفوا في أي طريق يجب أن نتجه بهذه السرعة، تحدث جايكوب بالنيابة عنهم: «أمي، نحن نلعب ألعاب الفيديو على الخرائط كل يوم، الخرائط سهلة في قراءتها»، حقيقي، اللعب ليس منفصلاً عن الحياة، بل هو مدخل سري إليها، حين يهتم الأطفال تكون عندهم فرصة كبيرة في التفكير جيدًا، وبالطبع طبيعة

هذا الكتاب تقول لك أن تقوم ببحثك الخاص حول ألعاب الفيديو، مسافاتنا في النظر إلى الأمر قد تختلف، والأبحاث تتجدد باستمرار، بقية هذا الفصل ستساعدك في فحص هذه الأبحاث أيضًا.

أحد الانتقادات الموجهة إلى ألعاب الفيديو تقول إن الأطفال سيلعبون حتى الإفراط، لذا كما ينبغي لنا تقنين عادات طعام أطفالنا واستحمامهم، يجب أن نرشدهم إلى استخدام الوسائل الرقمية بقدر الوقت الذي نراه مناسبًا، لاحظ أحد خبراء ومعلمي الإعلام الرقمي هذه الفكرة التي أجدها عظيمة الفائدة، يفسر آش بلاندين أحد الأسباب التي تجعل الأطفال يستمتعون باللعب بكل هذا القدر، وهو أن عالم الألعاب يأتي بمجموعة قواعد ثابتة لا تتغير أبدًا، يعتمدون على تلك البروتوكولات المحددة التي لا لبس فيها في كل مرة يلعبون، سيجدون الأمر مروعًا إن وجدوا فجأة زر الـ«ب» لا يؤدي إلى قفزة، القواعد توفر إطار عمل لكل من الاستمتاع وبناء المهارة، حين نقنن لعب الألعاب للأطفال يجب أن نضبط التوقعات بطريقة مشابهة، أخبرني آش: «لا يمكن للأطفال تقريبًا أن يقننوا أي شيء ذاتيًا في سن صغيرة، إنها مهمتنا ككبار أن نساعدهم على التقنين وعلى العثور على كيفية الحصول على علاقة صحية مع جميع المحفزات». يمكنك أن تتكلم عن هذه الحدود كإطار عملٍ لأفضل حياة يمكنكم تحقيقها معًا في البيت أو في المدرسة، تمامًا كالحدود التي تجعلهم ينجحون في ألعاب سيم سيتي أو أنيمال كروسينج، الفكرة تكمن في عدم تقديم تلك الحدود كعقابٍ أو أن تعرضها بطريقة مخيفة، استمتع معهم باللعب، لاحظ كم

النشاط العقلي الذي يثيره، ثم أدخل نشاطات جديدة لحياة طفلك تشبه «الجاذبات المحورية»، التفكير جيدًا في الأمر سيفيدنا كثيرًا، بصرف النظر عن كيف ستحلل الأمر، الألعاب هي إحدى أقوى أدوات بناء مهارة التفكير لأسباب عدة:

١- قواعد اللعب تعمل كإطار عمل مطمئن للاعبين، يعرف اللاعبون ما ينبغي لهم توقعه، وكيف سيتصرفون داخل النظام؛ يتعلمون احترام الحدود.

٢- كل فعل يُتخذ يغيّر مسار اللعبة، لا توجد تجربتان متشابهتان للعبة الواحدة، فرص الإبداع والتخيل متاحة بشكل دائم.

٣- الاستراتيجيات تتنوع بناءً على قوة أو ضعف موقع اللاعب في لحظة ما في اللعبة، الجميع يتمنى أن يكون في الموقع القوي بالطبع لذلك يستمرون في اللعب.

٤- معظم الألعاب تستخدم الرياضيات الأساسية، العد والجمع والضرب والقسمة والوعي المكاني وإدارة الموارد والمنطق وصنع الاستراتيجية وحتى قراءة الخرائط.

٥- يشجع اللعب الاستقلال، وتحمل الشخص لمسؤولية أفعاله واختبار تبعاتها في الحال إن كانت نجحت أو فشلت، في الحقيقة تقول الأبحاث إن الأطفال يستمتعون بممارسة التحكم (الاستقلالية) حين يقابلون تحديات الألعاب.

الاهتمام بدقة

يوفرّ عالمنا اليوم مائدة عريضة بها كثير من أصناف الدراسة واللعب والمعلومات والتسلية، وتَمَامًا كما تزداد الأشياء الرائعة بسرعة يزداد معها ما هو مغشوش ومبتذل من الإحصائيات والبروباغندا والانحيازات ونظريات المؤامرة والعنصرية وكراهية المرأة، وهؤلاء من يستغلون التكنولوجيا لانحرافات ومصالح شخصية. مطلوب من أطفالنا أن يقفزوا داخل هذه العجلة المسرعة من المعلومات ليطلقوا أحكامًا مسرعة حول الحقائق والآراء والأخلاقيات والأمان الشخصي وصلاحية الأبحاث أحيانًا وكل هذا في لحظات!

يود أطفالنا أن يعرفوا: «هل منصة السوشيال ميديا تلك يمكن الاعتماد عليها كمصدر معلوماتٍ موثوق به؟»، «متى يمكن الاعتماد عليها، ومتى لا يمكن؟»، أو أسوأ ربما هم لا يعرفون بعد ما ينبغي لهم السعي لمعرفته.

كتبت إليَّ إحدى الأمهات تحكي لي أن ابنتها ياسمين أرادت أن تتعلم تدخين السجائر الإلكترونية، شرحت ياسمين أنها عرفت أن السجائر الإلكترونية آمنة بسبب فيديو شاهدته على السوشيال ميديا، والدتها المتوترة تساءلت كيف يمكن تأهيل ابنتها لإعادة التأكد مما يقوله لها هاتفها، هذا سؤال جيد، من أين نأتي بالمعلومات السليمة؟ كيف نحكم على مصداقية مصدر ما؟ (كيف لنا أن نعرف أي المصادر تستحق ثقتنا) وخلف هذا السؤال هناك نزوعٌ مهمٌ جدًّا: الاهتمام

بالمعرفة، إن كان أطفالنا مجرد مستقبلين سلبيين للمعلومات والبيانات، فقد يثقون بمعلومة حين يجدون شخصية مشهورة على منصة إعلامية تزعم بها، قائلين حينها: إذن وهو كذلك! وعلى النقيض يمكن أن يختاروا عدم الثقة بالمعلومات التي تعطيها لهم فقط لأنهم يريدونك ألا تكون على حق.

تخمة المعلومات غير السليمة التي نعانيها اليوم تحدث بشكل كبير تحديداً بسبب غياب الاهتمام. ما الترياق؟ تعلم كيفية التأكد من المعلومات، من البيانات والمصادر.

يَنفُذُ عالم الاجتماع الشهير جول بست المعروف بعمله في مجال التحليلات الإحصائية، إلى قلب هذا التحدي، يشرح أن كثيراً منا يرى حالة ما حول الأرقام، حين نقرأها نقف مشدوهين، هذه الإحصائية قطعاً صحيحة، هناك رقمٌ مهمٌ مرتبط بهذه الفكرة، غالباً بسبب تجربتنا المدرسية، نحن ننبهر بسهولة حين نجد أي أرقام مضافة إلى خبر لكن القياسات والكميات تحمل معها سلطة، إن كان هذا المشهور اللامع المحترف به سيقولها كحقيقة إذن فهي حقيقة مهمة، بطريقة مشابهة، منظر المؤامرة يستخدمون الأرقام لتلميع مصداقيتهم، إنهم يستشهدون بالأرقام التي يعتقدون أن المصادر الرائجة قمعتها أو تجاهلتها، كيف نفرق بين الاثنين؟ بمجرد أن تنتهي من تعليم أطفالك كيفية فحص المعلومات يجب أن تعطيهم أدوات التفكير النقدي لينفذوا ذلك! دعنا نلقي نظرة على خطوتين مهمتين يمكن أن يأخذهما الطلاب ليتأكدوا من مصداقية أي بيانات تقابلهم.

تحديد المقاييس والمعايير:

ليست كل إحصائية صحيحة، وفقاً لجويل بست، في عصر الإنترنت «الإحصائية السيئة هي أصعب في قتلها من مصاص الدماء»، حين تكون هذه الإحصائيات صادمة أو مضافة لتبهر من يبحث على الإنترنت أو تظهر في رسم بياني من أربعة ألوان فنحن أكثر عرضة لتصديقها، لتقييم الإحصائيات يشرح جويل أننا نحتاج إلى مطلبين، أولاً: يجب أن تفهم كيف تقاس البيانات، ثانياً: ستحتاج إلى معرفة معاييرها التي تقاس بها؛ أي المقاييس الأساسية في هذا المجال.

على سبيل المثال، الرياضيات غالباً تقيس سرعات الكرة لتقارن المهارة الرياضية بين لاعبي وآخر، قد تصيب لاعبة تنس أنثى محترفة الكرة بسرعة ١٠٨ أميال في الساعة بشكلٍ ثابتٍ ومتكرر، أسرع إصابة كرة في التنس حققها لاعب ذكر اسمه جون إيزنر وقيست بسرعة ١٥٧,٢ ميل في الساعة، حين لم أكن أعرف تلك المعايير نسبت هذا الإنجاز إلى بطلة العالم في التنس لعام ٢٠٢١ ناعومي أوساكا التي حققت إصابة بسرعة ١٩٣ ميلاً في الساعة، ثم تحدّاني أحد متابعي التنس أن «هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً»، ومن ثم تبين أن الإحصائية التي قرأتها كانت مقاسة بعدد الكيلومترات في الساعة (قيست في بطولة أستراليا المفتوحة للتنس)، لقد فوّتُ كلمة «كيلومتر في الساعة» ببساطة بعد قراءة الأرقام.

من دون فهم لأساس القياسات أو معرفة المعايير للسرعات المعروفة للإصابات، فإنني لم أسأل أساساً ما قرأته، لقد كنت منشغلة

بالتنقل عبر المعلومات، هكذا يحدث الأمر، لكن حين يتسلح القارئ المدقق بالمعايير الصحيحة فإنه سيتمكّن من كشف الادعاءات المبالغ فيها والأكاذيب المبطّنة، علّم أطفالك أن يسألوا هذين السؤالين:

• كيف تقاس البيانات؟

• ما معاييرها؟

الاهتمام بالمصداقية

في العادة، بينما تثير الإحصائيات حولها هالة من المصداقية، من الذكاء معرفة من يوفّر المعلومات قبل أن نعتدّ عليها، كيف نقيّم الادعاءات التي تُقال في الإعلام أو الكتب الأكاديمية أو على الإنترنت؟ كيف نعرف إن كان هذا المصدر يُعتمدّ عليه أم لا؟ المفكرون الذين يهتمون دائماً ما يفحصون مصادرهم، إنهم حريصون على فحصها قبل الانتقال إلى بقية المعلومات التي يقرأونها (بعكسي، أنا من نشرت المعلومة الخاطئة حول تصويبة أوساكا!)، وليس فقط هذا، ليس لمجرد أن المصدر يُقال إن سمعته جيدة فهذا لا يعني بالضرورة أنه كذلك، وبالعكس، المصدر المنحاز ليس بالضرورة غير قادر على إيصال الحقائق.

هناك ممارسة اقترحها الباحثون في ستانفورد لتقييم مدى مصداقية مواقع الإنترنت، يسمونها «القراءة أفقيّاً»، بدلاً من السماح لنفسك بالنزول في عمق جحر الأرنب داخل صفحة واحدة تكرّس فيها كل

اهتمامك للرؤية التي يحاول الكاتب إثباتها، ابدأ بتجميع المعلومات حول الكاتب أو المنظمة أولاً، القراءة أفقيًا تعني فتح عدة صفحات إنترنت لتتأكد من المصدر قبل أن تسمح للموقع بأن يستحوذ عليك، الناس الذين وجدتهم باحثو ستانفورد هم الأكثر فعالية في استخراج الحقائق من المعلومات المغلوطة، هم الذين تمت تسميتهم بـ«مراجعي الحقائق»، إنهم يستخدمون ممارسة تُدعى «تحديد الاتجاهات»، وهي تذكّرني باتخاذ المعايير في الإحصاء.

باحثو ستانفورد يشرحون هذه الممارسة في طرحهم المسمى بـ«القراءة الأفقية»: «أن تقرأ أقل وتتعلم أكثر حين تقيّم المعلومات الرقمية».

في أثناء استكشاف غابة غير مألوفة، يعرف رياضيو المشي أنك ربما تفقد وجهتك خلال تلك التجربة، لذلك ينبغي لهم طوال الوقت أن يديروا وجهات بوصلاتهم ليحددوا الاتجاهات والزوايا التي يجب قياسها بالدرجات بين الشمال وبين محطتهم النهائية، فقط المبتدئون السذج هم من يثقون بحدسهم ويستمرون في الانطلاق.

من الواضح أن اتخاذ الاتجاهات على الإنترنت ليس بدقة قياس زاوية على الواقع بالدرجات، لكن على أي حال، إنه يبدأ بطرح مماثل حين تتعرف على طريقك داخل عالم غير مألوف، ابدأ أولاً بالسعي إلى اكتساب حسّ سليم بالاتجاهات.

تحديد الاتجاهات:

بنفس الطريقة التي أردنا بها مقارنة الإحصائيات بالبيانات الموثوقة الشائعة في مجال ما، تحديد الاتجاهات يعني تكوين فكرة واضحة عما يوفّر التأويل للأبحاث التي تستهلكها. في دراسة أجراها فريق جامعة ستانفورد البحثي، اكتشفوا أن طلبتهم الأكثر موهبة والتزاماً كانوا ينجذبون بسهولة جداً إلى جماليات أي موقع إلكتروني، على سبيل المثال، للشعار أو لعنوان الرابط، كانوا أكثر انجذاباً من الطلاب «مراجعي الحقائق».

وجد الطلاب أن من الصعب التفرقة بين موقع إلكتروني لمؤسسة طبية تاريخية موجودة لعقود ولها مئات من المقالات التي تؤكد مصداقيتها، وبين موقع آخر يحاول تقليد الموقع الأصلي للمؤسسة، بشعار بصري يحاول أن يبدو رسمياً وادعاء بأن له اعتمادات أكاديمية. الموقع الثاني كان يبدو أنه يوفّر بيانات موثوقاً بها، لكن بعد تحقق أعمق، كل عنصر فيه كان مصمماً ليرجّح أجندة سياسية معينة مصمّمة لتؤثر في السياسات العامة. التشابهات بين الموقعين كانت مصمّمة عن عمدٍ من قبل الجانب السياسي للموقع ليقترّب من موثوقية المؤسسة التاريخية بهدف تضليل العامة. في هذه الدراسة لم يحقق «مراجعو الحقائق» أي أخطاء في قدرتهم على التعرف على أي المواقع كانت تعرض المعلومات غير المنحازة وكانت لها الموثوقية الأعلى، كيف فعلوا هذا؟ بدلاً من مقارنة مظهر كلا الموقعين ومن ثم قراءة مقالاتهما، حدّد مراجعو الحقائق اتجاهاتهم، لقد تركوا كل موقع مباشرة ليعثوا حول

المؤسسة، وأحسوا بمدى ما للمؤسسة من تاريخٍ عن طريق مقارنتها بالمواقع الأخرى التي تنال الاحترام، في الحقيقة هذه إحدى الطرائق التي تعمل بها ويكيبيديا كطريقٍ مختصرٍ مهمٍّ، إنها تسمح للجميع بالحصول على نظرة شاملة سريعة على تاريخ المؤسسات وتوفّر مصادر إضافية في ذيل المقال، رغم أن هذا المدخل في حد ذاته لا يمكن الاعتماد عليه ككتابة أكاديمية لها سلطة.

فحص «مراجعو الحقائق» أسماء الخبراء في صفحة التعريف بالموقع عن طريق البحث بأسمائهم على جوجل وقراءة معلومات إضافية عنهم في سياقات أخرى. للتوضيح سريعاً، «مراجعو الحقائق» كانوا الأقدر على تحديد أي موقع هو الأكثر جدارة بالثقة.

القراءة أفقياً:

إنها عادة يمكنك تنميتها مع أطفالك، عن طريق أن تقرأ أفقياً في أي مرة يذكرون فيها كتاباً أو موقعاً، اسألهم حينها:

- ماذا يعرفون أيضاً عن المنظمة؟
 - من خبراءؤها؟
 - أي المواقف يأخذها الكاتب في هذا المجال؟
- أحد التحديات في الحوار على الإنترنت هو أن الناس يفترضون أنهم إذا وصلوا إلى موقع أو تقرير أو بيانات ما، فإنها بالضرورة فُحصت من قِبَل شخص ما بخصوص مدى صحتها، ولكن في العادة هذه ليست الحقيقة.

يمكن لأي شخص أن يصنع موقعًا إلكترونيًا وأن يقول ما يشاء!

لذا ماذا يشكّل المصدر الموثوق الذي يمكن الاعتماد عليه؟

في الغالب نريد من الكتابة أن تخضع لهذه المعايير:

- أن تكون بيانات حالية، حالية بمعنى: تصلح لزمنا الحالي (إن كان مصدرًا رئيسيًا يُستخدم للحصول على الأدلة التاريخية).
- تتضمن معلومات دقيقة وتم التأكد منها.
- توفر تفاصيل جيدة في الموضوع.
- يقدمها خبير في المجال.
- تسعى لتقديم رؤية متوازنة للموضوع (واضعة في عين الاعتبار الحجج المضادة).

المصادر الأكثر مصداقية لن تكون منحازة بشدة، وهذا يعني أن الدلائل جاءت من خبراء نثق بهم وباحثين وإحصائيين وأطباء وأساتذة جامعات ووكالات حكومية وخبراء بحثيين في المجال وممارسين فيه على مدى سنوات.

من المفيد أيضًا أن يفحص المعلومات الزملاء في المجال (ما ندعوه بمراجعة الأقران)، والمدونون وكتّاب الأعمدة والكتّاب، جميعهم يمكن أن يقدموا تقاريرهم حول تلك الأبحاث ويعرضوا آراءهم، ولكن لا يجب اعتبارهم بالضرورة خبراء بحثيين، استشهد أحد طلابي برأي سيناتور حول التغير المناخي كـ«رأي خبير» في مقاله، أشرت إليه أن السيناتور في حين أنه رجل سياسة معروف، فإنه لم يكن

خبيراً في الموضوع البحثي ولا حتى عالمًا، رأي السيناتور كان استنتاجًا اتَّخذه بنفسه، ولكنه لم يحمل موثوقية رأي شخص قضى عمره باحثًا في المناخ.

وهذا يوضِّح لماذا من المهم فهم لماذا الإحصائيات والآراء التي تستشهد بها مهمة، حين تقرر إن كانت المعلومات في مقالٍ أو موقعٍ موثوقة أم لا، يمكننا مساعدة أطفالنا على البحث عن بعض مؤشرات الخطر أو ما يُسمَّى بـ«الأعلام الحمراء» وتلك بعض النقاط لنضعها في الاعتبار:

النبرة واللغة: لاحظ أين يتذمر الكاتب بدلًا من أن يكتب، ستلاحظ لغة غير محايدة مكتوبة بقصد إحداث أثر عاطفي معين.

الافتراضات والتعميمات: أن يعرض الكاتب كثيرًا من الآراء من دون أن يستعين بمصادر أو ينسب كلامه إلى أبحاث تفترض نفس الافتراضات.

قد يختلط الأمر على أبنائك حين يشاهدون فيديو يشرح لماذا التدخين الإلكتروني آمن فيظنون أن هذا العرض موثوقٌ فقط لأنه فيديو، حتى وإن لم يذكر الطرح أي دراسات طبية.

تجميع المعلومات من الجموع: أحد مخاطر الإنترنت هو أن كثيرًا من المعلومات المعروضة عليه جمعها ملايين الناس، من السهل أن تسقط داخل جحر أرنب من التجارب المجمعّة في غرف النقاش أو في مجتمعات السوشيال ميديا، تذكر أن صفحة ويكيبيديا مثلاً جيدة لنظرة عامة على موضوع، وتصلح لإيجاد مصادر موثوقة لفحصها، ولكنها

ليست في حد ذاتها مصدرًا يُعتمد عليه لشهادات الخبراء.

مقالات الرأي: يمكن أن ننظر إلى مقالات الرأي كمؤشر خطرٍ إن كان الطالب يعتمد على مصدرٍ واحدٍ ذي وجهة نظر واحدة، في الحقيقة حين تعتمد المدارس على نوعٍ واحدٍ من الكتب الأكاديمية فإنها تخلق تأثيرًا يشبه ذلك، لأنه من السهل أن تميل تجاه المواقف التي تتخذها بالفعل لتحصل على تعزيز فيها. ووفقًا لهذا فإن مقالات الرأي التي يكتبها الصحفيون والباحثون هي في العادة مصدرٌ عظيمٌ للجدالات مع وضد موضوعٍ ما، مقال الرأي يمكن أن يساعد في توضيح ما هو الأهم نقاشه في موضوعٍ ما، هذا أحد أهم استخداماته. تأكد من تضمين أكثر من وجهة نظر واحدة لتسمع حججًا قوية تُقال مع وضد، أحد مخاطر مقالات الرأي والإعلام الإخباري التي تختار توجهًا سياسيًا ما بوضوح لتدعمه في مواجهة التوجُّه الآخر هو أن مزايا الاتجاه الآخر تُقمع ويتم تجاهلها.

أن تسعى عمدًا لقراءة الحجج القوية من أكثر من وجهة نظر واحدة هي طريقة فعالة لاستخدام الرأي في دراسات الطلاب، وجدت أيضًا أن مقالات الرأي ينتج عنها حوارات ثرية أكثر كثيرًا من البيانات الخام من موقع حكومي يوضح الأبحاث والإحصائيات على سبيل المثال. لكن على أي حال، استخدام البيانات من موقع حكومي هو طريقة لتحديد المعايير التي يمكن أن نقيّم بها ما ورد في مقال رأي.

بمجرد أن تنتهي من إلقاء نظرة على مؤشرات الخطر، يمكنك أن تتعمق قليلًا داخل المصدر نفسه، في برنامج «الكاتب الشجاع» نستخدم

كلمة مختصرة سهلة في مساقات تعليم الكتابة لتُذَكِّر الطلاب بما ينبغي لهم البحث عنه في أثناء تقييمهم لمصدرٍ ما، وهي كلمة «كاكاو». صحيح أن الكاكاو هو المكون لمشروبات الشوكولاتة المفضَّلة عندنا لكنه أيضًا أداة جيدة لتساعدك على النظر إلى المصادر بعين ناقدة. الكتابة التي لا تثير علامات خطر، ولكن فقط تعرض «كاكاو»، بكونها «كثيفة الموضوعية، أصيلة التغطية، كثيرة الدقة، أصيلة السلطة، تراعي الحالية»، إن خرجت بهذا الشكل فهذا يعني أنك تستخدم مهارات التفكير النقدي بمستوى عالٍ في قراءتك وبحثك.

الحالية:

هل حُدِّثت تلك المعلومات ونُشِرت حديثًا؟ المقال الموثوق به سيذكر المعلومات التي تخص تواريخ النشر، إن كان المقال أو المصدر صدر بتاريخٍ يبعد من خمس إلى عشر سنوات فإن من المهم أن تبحث لترى إن كانت المعلومات حُدِّثت منذ وقت النشر. الإحصائيات التي تتعلق بتعداد السكان تُحدَّث كل عشر سنوات على سبيل المثال.

الدقة:

هل المعلومات المعروضة واقعية وموثقة؟ (من مصادر متعددة بضوابط متنوعة قدر الإمكان؟). هل مصادر المعلومات مذكورة، سواء عبر روابط في المقال أو قائمة مصادر في تذييله؟ هل للقارئ أن يؤكد هذه المعلومات عبر العثور على مصادر أخرى تؤكد ما ذُكِر في المقال؟ إن كان هناك تقرير -أو إحصائية- يعارض مفهومًا أساسيًا في

المجال فإن من المهم العثور على إثباتٍ. في الدوائر التي تُعتبر عازمة على تحدي حدود البحث في مجال ما (العلوم، التاريخ، الطب، علم الاجتماع) اطرح السؤال: ما دافع التحدي؟ أحد الأشياء التي يجب وضعها في الاعتبار عند الكشف عن مؤشرات الخطر هو: هل يستخدم الكاتب البيانات الأقل مقبولة ليفعل ذلك:

- ليشرح تجربة شخصية سلبية؟
- ليثبت نظرية لاهوتية؟
- ليدعم هدفًا سياسيًا؟
- ليحمي أرباح شركات؟
- ليُسوّق لنفسه؟

إن تحدي ما هو مثبت بالفعل يتطلب إثباتات أكثر قوة وشمولاً، وما يدعمها من معلومات وأبحاث لا يجب أن يأتي إلا من مصادر تضع في الاعتبار جميع الاتجاهات.

التغطية:

هل يعرض المقال تفاصيل كافية حول الموضوع؟ هل كل الإحالات في المقال سليمة، أم أن المعلومات المذكورة في المقال مفقودة من المصادر؟ ينبغي للقارئ أن يكون قادرًا على تتبع المصادر للتحقق من المعلومات. على سبيل المثال، إن كان الكاتب يعتمد على الأبحاث الحكومية، فهل يأخذك الرابط إلى موقع حكومي؟ إن كان الكاتب يناقش دراسة، فهل يمكن للقارئ العثور على تلك الدراسة؟

السلطة :

هل التعريف بالكاتب وطريقة الاتصال به مذكورة؟ إن لم يكن الكاتب مذكورًا، فهل تأتي هذه المعلومات من مؤسسة ذات سمعة معروفة؟ المعاهد التعليمية والوكالات الحكومية لديها مصداقية أكبر من الجماعات الحقوقية والمواقع التجارية التي تريد أن تبيع لك شيئًا.

الموضوعية :

في أثناء عرض المعلومات، تحديدًا على الإنترنت، فإن الموضوعية تكون صعبة ومراوغة، كل مصمم مواقع يعرف أن اللون والتوزيع واختيارات وأولويات إظهار المعلومات لها تأثير في القارئ، حتى محاولة تحقيق الموضوعية هي في حد ذاتها اعتراف تكتيكي بأن التصميم يمكن أن يؤثر فيما نقرأه وما نصدقه، بالإضافة إلى أن الكتّاب يقررون ما المعلومات التي سيذكرونها وما المعلومات التي سيستبعدونها. هدفنا هو أن نسعى لإيجاد المصادر التي تقلل من التحيز قدر المستطاع، حين ننظر إلى المعلومات يمكننا أن نسأل: ما الهدف من هذا المقال أو الموقع أو المدونة أو الكتاب؟ هل هدفها بالأساس هو توفير البيانات الدقيقة؟ هل تريد إقناعك بشيء ما؟ هل توفر رؤية منصفة ومتوازنة للموضوع، بمعنى أنها تعترف بأكثر من وجهة نظر حوله؟ هل للكتاب غرض آخر بخلاف توفير المعلومات؟

تعلّم فن تقييم المصدر يأخذ وقتًا، كثير من الأطفال قد لا يتقنون تلك المهارة حتى وصولهم إلى الجامعة! أكاد أجزم أننا، نحن الكبار،

نحتاج إلى أن نعاود التمرن على هذه المهارات. الحياة على الإنترنت تجعلنا جميعًا كسالى قليلًا، لكنها أيضًا توفر أدوات وموارد للتمرس على المهارات البحثية بانتظام، تبين الموقف القائل بأن «التمرين يصنع التقدم».

مثال: الولادة

دعونا نلقي نظرة على الولادة، موضوع جرّبه الجميع، حتى إن لم تكن تتذكر أنك وُلدت. يمكن فهم الولادة بيولوجيًا بدءًا من كيفية حدوث الحمل إلى كيف ينمو الجنين في الرحم، ومن ثم نزوله داخل قناة الولادة حتى يتم الدفع به إلى العالم مع أنفاسه الأولى. هناك مخاطر متعلقة بالولادة، عبر القرون، عدد لا نهائي من الأمهات والأطفال تُوفوا بسبب العدوى أو الولادات الصادمة، التدخلات الطبية والجراحات القيصرية خلال القرن الأخير -تحديدًا- أدت إلى فارق هائل في ولادات الأجنة الميتة وأمراض الأمومة، الولادة عملية طبيعية، وفي نفس الوقت عملية محفوفة ببعض الخطر على الأم والجنين، تلك حقائق.

لكن الولادة في حد ذاتها تمثل ما هو أكثر من تلك الحقائق، الولادة هي قصة ثقافية، بعض رواة القصص يشرحون أن الولادة مؤلمة، ويجب أن يتم تطبيقها، وتحتاج إلى مساعدة من خبراء طبيين لتوفير الأمان. الولادة أيضًا هي قصة تُروى للضحك في مسلسلات كوميديا الموقف (الست كوم) حين يعرضون النساء يصرخن من أجل المخدر، بعض رواة القصص الآخرين يؤكدون أن الولادة عملية طبيعية تحتاج إلى دعمٍ

من المقربين ذوي الخبرة بدلاً من التدخل الطبي. القابلات يدركن أن هناك ممارسات طورها التاريخ لتأمين ولادة آمنة من دون تدخل طبي، سواء قررت الحامل أن تلد في مشفى أو في المنزل، فإن هذا ستكون له علاقة بشكل كبير بأي راوي قصة رأته أكثر جدارة بالثقة، كيف سيقدر شخص أن يلد في المنزل بدلاً من المشفى؟

لفحص الولادة، لا بد من تحديد معايير أولاً، كم شخصاً يؤلّد كل سنة في الولايات المتحدة؟ أي المواقع توفر إحصائيات موثوقة؟ ثم سنحدد عدد الولادات التي حدثت في مشفى بالمقارنة مع العدد الذي تم في المنزل. هناك سؤال ذو صلة، ما الذي يؤسس للولادة المنزلية؟ هل الولادات التي تحدث في سيارات أو في غرف معيشة كحادثة تُحسب؟ ثم سنحدد من الذي في إمكانه أن يلد بنجاح في المنزل، ومن الأفضل له أن يلد في مشفى، ما الظروف التي تؤدي إلى ولادة سليمة؟ وما الظروف التي لا تؤدي إلى ذلك؟

اختيار أن تلد في المنزل يعني أن هناك أبحاثاً كثيرة عليك القيام بها، ويعني أنك ستتولى مسؤولية المعلومات المتناثرة التي ستجدها، وهنا الاهتمام بالمعرفة سيصبح مفصلياً، سيكون علينا أن نستقي من أنواع إضافية من المصادر، كالتجارب المعيشة والمحترفين خارج المجال الطبي الرائج كالقابلات، الشخص الذي يفكر في تنفيذ ولادة منزلية يجب أن يكون متعلماً أكثر عن عملية الولادة ومخاطرها وكيفية الاستعداد للطوارئ فيها أكثر من الشخص الذي سيلد في مشفى، والبيانات ليست هي الطريق الوحيد الذي يكون به الناس رأياً حول اتخاذ مخاطرة، في

النهاية، إن ما نقوله عن الولادة هو الذي يشكّل الطريقة التي ننظر بها إليها بدلاً من المعلومات الفعلية. أن تهتم يعني أن تقوم بالعمل لتكتسب منه فهماً أوسع لتعرف كيف تصدر حكماً يضع في الحسبان الفروقات الدقيقة، وليس فقط موافقة قاطعة أو رفضاً قاطعاً، قِيمُنَا لا تتشكّل فقط من البيانات الخام، ولكن بالقصص التي تؤثر فينا. من المفترض أن يوفر التعليم طريقاً مهيئاً لفحص كل ما يؤثر فينا حتى يتمكن العمال وأصحاب التجارة والأكاديميون والباحثون والسياسيون من تكوين آراء سليمة وذات جودة لأنفسهم ولمهنتهم المستقبلية ولعائلاتهم.

نشاط : الاهتمام جيداً

الأطفال من جميع الأعمار يمكن أن يتعلّموا كيف يفكرون جيداً لفحص المعلومات، ها هنا ثلاثة أنشطة لتدعم هذا التطور.

ذوو الأعيان اللامعة : العادات الجيدة

للأطفال الصغار، لتنمي عندهم عادة الاهتمام من الصغر.

١- اقرأ اسمي الكاتب والرسام حين تقرأ كتاباً مصوراً جهرياً لأطفالك.

٢- حدّد «اتجاهاتك»، ما الأنواع الأخرى التي يكتبها هذا الكاتب أو الرسام؟ من الناشرون؟ لاحظ أين يوجد اسم الناشر وتواريخ النشر، هل يمكن أن تضع مؤلفات الكاتب في ترتيبٍ بحسب تاريخ نشرها إن كانت أكثر من مؤلف واحد؟

٣- حدّد «المعايير»، لاحظ عدد صفحات الكتاب، قارن الكتاب مع كتبٍ أخرى، لاحظ متوسط عدد صفحات الكتب التي يكتبها هذا الكاتب، هل هناك استثناءات لهذا المتوسط؟ هل هناك أي كتبٍ أقصر أو أطول لا تتماشى مع نمطه؟ هل يمكن أن تخمن لماذا؟ (من المحتمل أن تكون من تصنيف مختلف للكتب).

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) :

إعطاء التقدير

إعطاء التقدير لمصدر ما هو أشبه بإرسال خطاب شكر بعد استلام هدية، أن تمرر عمل شخص آخر على أنه عملك فإن هذا لن يعزّز أبداً من مصداقيتك ككاتبٍ، بل يضعف منها، ولكن في عالم تويتر والمدونات الذي نعيش فيه، من السهل أن تنسى ذكر المصادر، جرّب هذه الأفكار لتعوّد نفسك على تلك العادة.

١- خلال هذا الأسبوع احتفظ بمجموعة من الاقتباسات حول موضوعٍ معين، وبعد كل اقتباس ضع أسفله اسم الكاتب واسم الكتاب ورقم الصفحة التي ورد فيها.

٢- جرّب اقتباسات من مصادر متعددة (مقال، رواية، قصيدة، وثيقة أو تسجيل تاريخي)، ثم في صفحة منفصلة اكتب أسماء المصادر (مقال، رواية، قصيدة، تسجيل أو وثيقة تاريخية)، ثم انسخ الاقتباسات والأسماء والأماكن لتصنفها في ثلاث

مجموعات ثم العب لعبة توفيق، ماذا ينتمي إلى ماذا؟ اسمح لطلابك أن يستخدموا جوجل إن احتاجوا إليه لمعرفة أي الاقتباسات ينتمي إلى أي تصنيف.

٣- يمكن أن يتدربوا على الاستشهاد بأنفسهم هم إن كانوا قد كتبوا رواية أو كتابًا غير أدبي! كيف سيستشهد كاتب آخر إن كان الطالب هو من كتب المقال المستشهد به؟ كيف سيحب ابنك أن يُذكر؟ وأي نوع من المصادر يمكن أن تُذكر عنه؟ هل أجروا لقاء في فيلم وثائقي، أم في مقال إخباري، أم هل كتبوا رواية ما وذكّر اقتباس منها؟

حادو الذكاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا) :

تجميع الأبحاث

يمكن أن يُكلّف المراهقون بالعثور على مزيد من الأبحاث على الإنترنت، هل يمكنهم العثور على أكثر من بحثين لمصدرٍ واحدٍ؟ هل يمكنهم فحص المصادر والتأكد من معاييرها؟ الهدف هو التعرف على المصادر ذات السمعة الجيدة حتى وإن كان بعضها يعارض بعضًا.

١- حدّد موضوعًا مثيرًا للجدل، اكتب اسم الموضوع بالإضافة إلى كلمة «الجدل حوله» داخل محرك بحث إنترنتي، بمجرد أن تتعرّف على الجدل حول الموضوع انتقل إلى الخطوة الثانية.

٢- اعثر على ثلاثة أو أربعة مقالات حول الموضوع، يمكن للمقالات أن تمثل أكثر من وجهة نظر واحدة.

٣- اقرأ أفقيًا حول كل موضوع، افحص مصداقية الكاتب أو المؤسسة.

٤ - حدّد معيارًا لتقارن به الإحصائيات في كل مقال.

٥ - اصنع قائمة تلخص التالي:

- موثوقية كل مصدر.

- صلاحية أهم إحصائية فيه.

- هدف كل مقال.

٦ - هل يدعم المقال ادعاءات تلك العناصر؟ لماذا أو لماذا لا؟

اعتبره إنجازًا كبيرًا أن تعلّم طفلًا أو مراهقًا أن يهتم، الاهتمام هو الأساس للنمو الأكاديمي، كما أنه يوفر إطار عمل أخلاقيًا لتطوير قيم وأخلاقيات تم التفكير فيها جيدًا. بالنظر إلى هذا، فقد يكون من الصعب الحفاظ على موقفٍ محايدٍ في أثناء البحث؛ هوياتنا ومجتمعاتنا تؤثر في الكيفية التي يقرأ ويفكر ويقيم ويعقل بها أطفالنا. في الفصل القادم سننظر إلى طرق لنقدّر بها تلك الجوانب المهمة فيمن نكون، ومن يكون أطفالنا، وهذا في أثناء مساعدة أطفالنا على تعلّم كيفية التفكير بشكلٍ نقدي في أي عددٍ من الموضوعات التي يدرسونها.

الفصل السادس

الهوية - القوة الجديرة بالاعتماد عليها

«وكل العوالم التي تكونها... تتجمّع في عالم واحد
يُدعى أنت».

- جاكين وودز، الفتاة السمراء تحلم

من الواضح الآن أين نعيش، ومن نكون، وأن رؤيتنا لعالمنا لها تأثير كبير في طريقة تفكيرنا، خلفياتنا وتجاربنا تصنعان الأفلام الصامتة غير المرئية التي تعمل بسهولة في عقلنا حين نستقبل معلومات جديدة. بالكاد نلاحظ أن استجاباتنا تلتف وتحوّر وتشكّل لتناسب ما نريده أن يكون حقيقة وما نتوقع أنه حقيقة وما دُرّبنا على أن نراه طبيعيًا. العدسة التي تتحكّم في هذه الأفلام الصامتة هي هوياتنا، حين نتحدث عن التفكير الناقد الواعي بذاته، فإننا نتحدث أولاً عن التعرف على السمات الأساسية التي تجعلنا من نكون.

بينما نكبر نتعلّم باستمرار من ينبغي لنا أن نكون، وما يجب أن نسعى لامتلاكه، وبمن يجب أن نثق، ومن ينبغي لنا أن نتجنب، عالم اللاهوت الكاثوليكي ماركوس ميسشر، والأستاذ الجامعي في الجامعة

التي ارتدتها، جامعة زافير، يشرح كيف نكوّن عادات التفكير في كتابه الرائع «أخلاقيات المواجهة»:

المحاكاة هي جزء من نمط الأفعال والتوجهات الذي يتم تعلمه وتفعيله في «الخلقة» «habitus»، وهو مصطلح يستخدمه عالم الاجتماع بيير بورديو ليصف البناء الذي يُرسم داخله ما نؤمن به بشكلٍ مشتركٍ (ما يُسمّى بعد ذلك بالحس المشترك).

ينظم الحس المشترك ويعيد إنتاج القواعد غير المكتوبة، إنه لا يعطي التعليمات بوضوح حول كيف يجب أن ترى العالم، أو كيف يجب أن تفكر في نفسك وفي الآخرين، لكنه بيت للتعلم البنيوي الذي يكوّن إدراكنا بشكلٍ مباشرٍ: هكذا أحبي الناس أو أتجاهلهم، لأنني هكذا أرى كيف يتصرف الناس من حولي.

على سبيل المثال: عاداتنا في الحياة والتفكير تأتي من الهويات التي نشربها بشكلٍ غير واعٍ من عائلاتنا ومجتمعاتنا، «يقلّد الأطفال آباءهم، يقلد الكبار من يعجبون بهم، وتُمرّر المعتقدات والقيم من جيلٍ إلى جيلٍ». بعبارة أخرى، نحن باقية من الاحتياجات ومجموعة من المراوغات التي نتعلّمها من أشخاصنا المفضّلين!

خلطة الأشياء التي تسكن في أجسادنا تؤدي إلى استجابات تلقائية وغير مخطط لها، نحن نفلتر ما نقرأ ونتعلم عبر تجاربنا المباشرة وعبر وجهة النظر التي نكوّنها منها. جولي (فتاة كاليفورنيا، خريجة جامعة لوس أنجلوس/ كاليفورنيا، التي ولدت في المنزل وتعلّم أطفالها في

المنزل، المتحدث بالغة العربية، المطلقة، والبيضاء من أصل أيرلندي كاثوليكي) هي دمج كل هذه التأثيرات، كلُّ منا هو تركيبة/ إنسان مركب. الصحفي الشهير عزرا كلاين يعبر عن ذلك جيداً في كتابه «لماذا نحن مستقطبون؟»: «إننا لا نعرف أبداً مدى تشكُّلنا بالكامل من قِبَل سياقاتنا: من نحن؟ أين نشأنا؟ من تعلمنا أن نثق به أو نخافه أو نحبه أو نحترمه أو نتجاهله؟ إنَّ هذا يسكن عميقاً أبعد من أفكارنا الواعية، لائحة الأعمال العقلية المبنية حول أقل من مَلِي ثانية من التفكير والتي تفعلها هويتنا ليست شيئاً يمكننا ببساطة إلغاؤه، ولهذا من المهم أن نسمي السمات التي تجعلنا من نكون لنصبح أكثر وعياً حين تُفَعِّل تلك السمات في أثناء تدريسنا أو تعلمنا أو قيادتنا أو ممارستنا للأبوة، وبالمثل لِيُبقِ طلابنا وأبناؤنا هوياتهم في الحسبان في أثناء تعلمهم.

هوياتنا تفعل كثيراً فيما يخص كيفية تخيلنا وكيف سيتم التعامل معنا في كثير من السياقات، ووفقاً لهذا نعدّل ونتكيف بينما نقرر أي سماتنا سنبرزها وأيها سنخفيها، ماذا يُشعرنا بالفخر وماذا يُشعرنا بالخزي. عالمة الاجتماع جيسيكا كالارو تشير إلى رؤية زميلها عالم الاجتماع أيضاً سي. رايت ميلز الذي استخدم مصطلح «الخيال الاجتماعي» ليصف كيف تتشكّل حيوات الأفراد من قِبَل «التاريخ والسير الذاتية»، وتشرح: «هذا يعني إدراك أن خبرات الناس وقراراتهم ونتائج أفعالهم تتشكّل من قِبَل السياقات الأكبر التي يعيشون فيها، وأيضاً من قِبَل أوضاعهم في تلك السياقات». يجي مكلنتوش، الزميلة في جامعة ويلزلي والرائدة في مجال مناهضة العنصرية والتي لها نفس يوم ميلادي

(أحببتها أكثر لهذا السبب!) كتبت مقالاً يُدعى «تفريغ الحقيبة غير المرئية للامتيازات»، لتسلط الضوء على الكيفية التي يُحتَفَى بها بهوية الرجل الأبيض في نفس السياقات التي تُقَمَّع فيها الهويات غير البيضاء: «لقد أصبحت أرى امتيازات البيض كحزمة غير مرئية من رأس المال، يمكنني الصرف منها يوميًا، ولكن كان مُقَدَّرًا لي أن أكون غافلة عن إدراكها. الامتيازات البيضاء تشبه حقيبة مخفية من كل ما هو متوفر لك بشكلٍ استثنائي؛ خرائط، جوازات سفر، ملابس، أدوات، شيكات بنكية، تأشيرات، شفرات محلوقة».

حين نتحدث عن الامتيازات فهذا ما نعيه، إنها سهولة الاعتراف بهويتك في مقابل الكفاح لتُرى وتُقدَّر كما أنت، كلُّ منّا موجود في هذه الرحلة بطرقٍ مختلفة.

الاقتصاديات، الجنس، العرق، الدين، المكان، المهنة، التعليم؛ كل هذه العوامل تضيف إلى إمكانياتنا أو حدودنا في المشاركة، توقعاتنا عن الإنصاف والفرص والنجاح النهائي والسعادة؛ جميعها مرتبطة بشكلٍ وثيقٍ بمدى فهمنا لأنفسنا وعلاقاتنا مع الآخرين، وفهمنا للذات بدوره يؤثر في كيفية تفاعلنا مع المسائل والهموم اليومية، ومع الأفكار التي يطرحها النقاد الاجتماعيون والزعماء الدينيون ومعلمو المدارس ونشطاء السياسة، ذواتنا نفسها تتغيَّر وتكتَيَّف ودائمًا تخلق قصصًا جديدة لكيفية رؤيتنا للعالم، وكيف نرى المعنى فيه، ثم نمرّر هذه القصص والتوقعات لأبنائنا والذين بدورهم يشكّلون هوياتهم. يعلم الآباء والمعلمون الأطفال سرديات عن أجدادهم ومجتمعاتهم وحالة

أمتهم وديانتهم (أو عن عدم وجود ديانة) وأصول عائلاتهم. أفكار أبنائنا لا تعمل في الفراغ، أن تكون مفكرًا ناقداً واعياً بذاتك فهذا يعني أن تضع في اعتبارك جميع أجزاء تلك الهوية. تعمل الهوية باكراً في حياة الطفل كافتراضٍ غير واعٍ بأن الطريقة التي ننظر بها إلى العالم هي رؤية ثابتة عالمياً، ونأتي بهذه الرؤى معنا في أثناء تعلُّمنا. التعليم الصحي يوسّع كيفية رؤية الطفل لهويته كواحدة من كثير داخل العالم متعدد الأوجه الذي يعيشون فيه، تؤثر هوياتنا في الأسئلة التي نطرحها والتقييمات التي نقوم بها وتوجهاتنا العاطفية حين نقرأ، الموثوقية التي نعطيها لمصدر ونسحبها من مصدر آخر. الهوية هي العامل الرئيسي الذي يجب أخذه في الاعتبار لنصبح ذلك المفكر المرن المتعاطف الاستراتيجي القادر على حل المشكلات! لكنك ربما تسأل الآن: مرآتي، مرآتي، أخبريني كيف تنمو الهوية؟

العدسات والفلاتر

تربية الأطفال رقصة بها كثير من الحركات المخادعة، تبدأ بداية جيدة حين يعشقك أبنائك ويظنون أنك خفيف الظل للغاية، لكن على أي حال، هناك لحظة يتوقفون فيها عن الضحك على خفة دمك ويبدأون بالضحك عليك! هناك لحظة يصطدم فيها أبنائك بجدار الأفكار الخاص بك، ويظنون أن رؤيتك للعالم جامدة ورجعية، وفجأةً منطلق العقلاني يبدو كأنه عفا عليه الزمن، إن توقفت فستتذكر تلك اللحظة في حياتك التي ساءلت فيها مدى منطقية ما يظن والداك أنه «الحقيقة»،

ربما أدى الأمر إلى مباراة صياح! ولكن لكي لا تقلق فإن تلك التحديات هي محطة تطور مهمة ودليل دامغ على أن العقل ينمو.

في أثناء قيامي بأبحاث وملاحظات حول التفكير النقدي، حدّدت أربعة تأثيرات مهمة تشكّل وفقها كيفية رؤيتنا للعالم، تلك هي العدسات والفلاتر التي تخلق رؤية كونية، كلّ منّا يزن تلك العوامل بشكلٍ مختلفٍ، وهو ما يساعدنا على خلق هذا التنوع الثري من الناس الذين يسكنون كوكبنا الكبير الجريء الجميل.

العدسات:

تلك هي المستويات التي نرى من خلالها العالم:

- كفردٍ (داخل جسدي، بالنيابة عن نفسي).
- داخل مجتمع (بمشاركة «ناسي» ومن خلال قيمنا الجمعية).

الفلاتر:

الفلاتر تعدل العدسات:

- باستخدام وجهة النظر (الكيفية التي يصنع بها جسدي ومشاعري وعقلي المعنى).
- باستخدام المنطق (كيف يفسر المجتمع الحقائق والرموز ليحولها إلى قصة).

نحن نعالج المعلومات التي تأتي إلينا من خلال عدستين رئيسيتين (الشبكة الأولى) كأفرادٍ وكأعضاء في مجتمع ذي خطوة، ثم نجد طريقة

لنعبّر بها عن كيفية تفسيرنا للعالم باستخدام مزيج من اثنين من الفلاتر من الشبكة الثانية (وجهة النظر والمنطق)، تتحرك الشبكة من اليسار إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل بتجريدٍ وتعقيدٍ.

الفرد + وجهة النظر

دعونا نبدأ بالعمود على اليسار، كفردٍ فإن معظم اختياراتك اليومية ستوجهها رؤيتك إلى ما تحتاج إليه وتريده، إن تركت لنفسك فستتبع ذلك الحس الداخلي لتثق أو لا تثق، لتلبي احتياجًا أو لترفضه، إن أحسست بخطرٍ فستكون حذرًا، إن احتجت إلى النوم فستأخذ قيلولة، إن شعرت بالجوع فستذهب إلى الطعام ذي المذاق الجيد الذي يُشبعك. وجهات النظر حصرية لك وخاضعة للتغيير، إنها تستجيب لآخر المدخلات المتاحة في عقلك.

المجتمع + المنطق

بالنظر إلى العمود على اليمين، كعضوٍ في مجتمعٍ ستتعلم معايير العضوية، سيعطيك مجتمعك تفسيرًا مقبولًا ليفسر معتقداته، على سبيل المثال، يمكن أن تكون جزءًا من (قصة منطق) مجتمع دين أو مجتمع نظام غذائي لديه شيء يقوله حول الطعام الذي يمكن للأعضاء تناوله أو عدم تناوله، من دون تعليمه لن تعلم أي الطعام يجب تجنبه في هذا المجتمع، لأسباب دينية في مجتمعات أخرى، وفي مجتمعات

أخرى لأسباب صحية، تظهر المجتمعات بأشكالٍ متنوعة، من أصول العائلات إلى كونك تلميذًا في مدرسة، من أتباع برنامج لياقة بدنية إلى الانضمام إلى حركة سياسية احتجاجية، من أن تصبح أبا بالتبني إلى العمل في مجموعة من المهندسين، حتى اختياراتك الإعلامية يمكن اعتبارها المجتمعات التي تشكّل رؤيتنا الكونية.

يعدّل الأفراد وجهات نظرهم لتلائم حزمة المعتقدات المجتمعية، نستخدم المنطق ليساعد في بناء جسر بين الفراغات، توفرّ مجتمعاتنا قصة منطقية لتبرير لماذا يجب للفرد أن يعدّل ممارساته الفردية لتلائم قيم المجتمع.

هناك طريقة لفهم الإيمان في جماعات الدراسة أو مجتمعات الإنترنت، وهي أنهم يوفّرون مكانًا لأعضائهم لممارسة منطق القصة التي يؤمنون بها لمساعدة الأعضاء في الاستمرار بدلًا من الاعتماد على وجهات نظرهم أو تفضيلاتهم الطبيعية. بعبارة أخرى إن كنت عضوًا في مجتمع النظام الغذائي لمرض السكري، فستعلم أن تتخلى عن السكر مثلاً، رغم مدى لذة التهام الكوكيز!

الفرد + المجتمع

بالنظر إلى الصف الأعلى، دعونا نفحص العلاقة بين الفرد والمجتمع، الحق في حرية التعبير يُعتَبَر حقًا غير قابل للمصادرة من حقوق الفرد، ورغم ذلك فإن قضاءنا فرض قيودًا خاضعة للزمان والمكان وأخلاقيات الاستخدام، لا يحق للأفراد أن يصرخوا فجأة

قائلين: «هناك قبلة!» في مطار حين لا تكون هناك قنابل؛ يُحدّ من حرية التعبير إن كانت ستُسبّب الفوضى أو الخطر للآخرين، يُعدّل حق الفرد وفقاً لاحتياجات المجتمع. مثال لطيف على حق الفرد في مواجهة قيم المجتمع هو جمعيات مُلّاك المنازل، هذه المؤسسات تفرض معايير مجتمعية كمنع تجفيف الملابس باستخدام «نشرها على الملاء»، حتى وإن كنت تريد تعليق غسيلك في باحتك الخلفية فهذا غير مسموح لك به، الأولوية هنا لقيم المجتمع فوق الاختيار الفردي، أحياناً من الممكن أن تحصل على استثناء إن كنت ستضمن أن غسيلك سيكون مخبأً عن النظر أو لأن الكهرباء نفدت منك، ولكن يظل المجتمع له السلطة في منح أو منع تلك التصاريح، تداعيات معظم قضايا المحاكم تحدث هنا، بين الفرد وقيم المجتمع، من له الأولوية ولأي حدّ في كل حالة؟

وجهة النظر + المنطق

الصف السفلي من الشبكة يصف الفلاتر التي نستخدمها لندعم آراءنا (سواء كانت حماية حق فرد أو الدفاع عن قيمة مجتمعية)، رؤانا تحكمنا على مستوى فردي، وتُخلّق عبر المشاعر والتجارب المباشرة وغير المباشرة، والنوادر التي تبقى معنا، والانتصارات، والصدمات، بنبي إطار عمل داخلياً يُصنّف ما يجعل العالم صحيحاً وما يُشعرك منه بالتهديد. وجهات النظر قد تكون دقيقة أو غير دقيقة، تستخدم المجتمعات المنطق لتخلق قصة منطقية متماسكة تفسر الرؤى الشخصية في ضوء قيم المجتمع، هذه القصص أيضاً يمكن أن تكون دقيقة أو غير دقيقة.

على سبيل المثال، نحن نستشير تجاربنا الشخصية لنحدّد ما إذا كنّا نحصل على صفقة عادلة أم لا، ربما تشعر امرأة أنها رُفِضت في وظيفة لأنها كانت حاملاً، إن كانت نشطة في منظمة نسوية فغالباً ما ستحصل على تأكيد من مجتمعها لشكوكها عن طريق إعطائها إحصائيات حول النساء الحوامل في أماكن العمل. إن كانت جزءاً من مجتمع ديني محافظ، فمن المحتمل أن تُرشد إلى إعادة النظر في وجهة نظرها من الأساس، وربما يتم إخبارها أن مديرها اختار ألا تتم ترقيةها ليعطي الأولوية لدورها كأم، من المحتمل أن يكون كلا التأويلين خاطئاً! من المحتمل أن المرأة لم تحصل على الترقية بسبب انخفاض مستوى أدائها، ولهذا فمن المفصلي أن تستوعب أكثر من وجهة نظر حين نحاول أن نكوّن تأويلات.

تفاعلاتنا الأولى مع العالم تأتي من وجهات النظر الشخصية، كأطفال توجّهنا دائماً احتياجاتنا الخاصة نحو تلبيتها أو نحو جعل البالغين يوفّرونها لنا، أول مجتمع يساعد الأطفال على تأويل وجهات نظرهم هو عائلتهم، كلّ منّا يطرّوّر طلاقة في «العادات والمعتقدات العائلية». أوقات العشاء، الروتين الأسبوعي، برامج التلفاز التي نشاهدها، برامج الإذاعة التي نستمع إليها، هوية العائلة الدينية (أو عدمها)، كيفية المشاركة بالتصويت؛ كل هذا يتم تعليمه بوضوح وتطبيقه بشكلٍ ضمني. على سبيل المثال، يسرد الآباء قصة منطقية حول لماذا ينبغي للأطفال أن يستحموا كل يوم، مستخدمين معلومات عن الجراثيم غير المرئية ليقتنعوا الأطفال بالاستحمام رغم وجهة نظر الطفل

التي تقول: «لا أحب شعور لمس الماء لجسمي». «المجتمع العائلي» يستخدم القصة المنطقية عن النظافة الشخصية لينافس بها وجهة نظر الطفل، هل ترى كيف يعمل الأمر؟ يمتص الأطفال محتوى المعتقدات والممارسات الأبوية من دون نقد، يمتصونها كحقيقة حتى مع أن الطفل الذي يتعلم المشي جديدًا يمكن أن يقوم بنوبة غضب مقاومة قبل أن يتبنى نظام المعتقدات الأبوية. بحلول الوقت الذي يصبح فيه هؤلاء الأولاد مراهقين يبدأون بتحدي منطق قصص عائلاتهم، ويبدأون بفرض هوية مجتمعهم الجديد، القصة المنطقية للمراهقين الآخرين، وطبيعياً يمكن أيضاً أن يكونوا متصادمين مع مجتمعات أخرى، مكتسبين لعدسات تأويلية جديدة ليطبقوها على تجاربهم الشخصية. تروي المجتمعات قصص منطقها الأكثر قوة حين يودون تغيير إحدى وجهات النظر الشخصية: متطلبات الطعام والجنس، كيفية التفكير في الموت، ماذا يكون الزواج الشرعي، من يجب أن يمتلك السلاح، كيف يجب أن نعامل البيئة، كيف ننظر إلى من هو مختلف عنا، ماذا نفعل بالسقطات الأخلاقية، متى تبرر الحرب، فهم أصولنا، ما يبقينا قابلين للاعتماد علينا، كيف يجب أن تعمل الحكومات، من جدير بالثقة ومن ليس كذلك. تتفوق المجتمعات في فترة الزائد على حاجتها من التجارب الشخصية، وفي إعطاء تجارب أخرى ترتيباً ومعنى.

نظريات المؤامرة هي مثال قوي على القصة المنطقية، إن أخذت قائمة الحقائق من أي نظرية ثم جرّدتها من سياق سرديتها (من دون الدوافع والشخصيات والنيّات والاستراتيجية) في معظم الأحوال

ستنهار النظرية. السبب هو الصمغ الذي يربط جميع الادعاءات غير المثبتة معًا. على سبيل المثال، نظرية المؤامرة التي تقول إن الهبوط على القمر حدث في أحد أقبية هوليوود هي نظرية لا معنى لها من دون دافع من نوع ما، القوة التي تكمن في نظرية المؤامرة هي القصة التي تقولها بصرف النظر عن الحقائق (سواء كانت حقائق فُحِصَت أم لا).

أراد المزارعون الأصليون المؤسسون في الولايات المتحدة أن يوفِّروا إطار عمل مرناً بما فيه الكفاية ليستوعب جميع حقوق الأفراد وقيم المجتمع، لقد آمنوا بأن الدولة كانت كبيرة ومنصفة بما فيه الكفاية لتوجد فيها مجتمعات متنوعة جنباً إلى جنبٍ من دون أن يُتَظَر من أحد أن يتبنى نفس منطق أو نظام معتقدات الآخر، كما يشرح المُنظَر السياسي جون راولز، في كتابه «العدالة كإنصاف»، فإن المجتمع الديمقراطي يرى الأفراد أحراراً ومتساوين، هؤلاء الأفراد يختارون أن يدخلوا نظاماً سياسياً واجتماعياً يوفِّر تعاملًا سلساً داخله، في أثناء حمايته للمعتقدات والمذاهب التي تمتلكها المجتمعات المتنوعة، يلخص راولز الفكرة الأساسية في هذا المفهوم للعدالة، وهو «فكرة المجتمع كنظامٍ منصفٍ لتحقيق العدالة الاجتماعية عبر الزمن لتنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ»، محاولة الموازنة بين الأفراد الأحرار وهويات المجتمع هي عملية ليست بالسهلة.

من الطبيعي أن يُطرح السؤال: ماذا نفعل إن وصل حق الفرد مع مصلحة المجتمع إلى نقطة تصادم؟ مَنْ له الأولوية؟ كثير من قضايا المحاكم تحاول الفصل في هذا السؤال، في محاولة منها لتوفير

أكبر قدرٍ من الحرية لكل فرد مع الحفاظ على قيم المجتمع من دون الاصطدام مع الحقوق الممنوحة للآخرين.

مثال جيد على كيفية عمل ذلك يمكن أن نراه في استخدامنا لقوانين التقسيم، سنة ١٩٢٦ كانت هناك قضية اسمها «قرية أقليدس» في مواجهة شركة أمبر للعقارات، وصلت هذه القضية إلى المحكمة العليا، طلبت قرية أقليدس أن تمنع الأعمال التجارية من بناء متاجر في الأحياء السكنية البسيطة، حكمت المحكمة لصالح أقليدس وأسست قانون حق المجتمعات في تحديد ما يناسب مناطقها لأسباب تخص الصحة، والأمان، والأخلاقيات، أو الرخاء العام لهذا المجتمع. وفقاً للخبير القانوني ديفيد كريستيانسن فإن ما كان يشغل قرية أقليدس بشكل رئيسي هو ما إن كان إنشاء أحياء سكنية خالية من الاستخدامات الصناعية ممكناً أم لا، وأعلنت المحكمة أن صحة المجتمع وأمانه سيُعطيان الأولوية عبر فصل المساكن عن الزحام المروري ووسائل النقل وعبر تقليل تدفق الغرباء داخل الأحياء السكنية، ولهذا فخضوعاً لمنطق أقليدس فإن جودة الحياة هي مصلحة يحق للمجتمع المطالبة بتحقيقها عبر تطبيق قوانين الحدود.

هل رأيت كيف يمثل ذلك مثلاً كلاسيكياً على حقوق الأفراد وحقوق المجتمع حين يتسابقان على الفوز في المحاكم؟ في العصور التي تلت ذلك، فإن قوانين الحدود أصبحت تُستخدم لتقنين وجود أماكن ما يُسمَّى بمتاجر البالغين، كمتجر هاسلر في ولايات أوهايو وكنتاكي وأنديانا. لاري فلينت (المدير التنفيذي لهاسلر) كرر مقاضاة

البلديات على ما اعتبره انتهاكات لحقوقه بفتح متاجره في الأماكن الأكثر إرباحًا. قوانين الحدود اعتُبرت تبريرًا لتنظيم أين يمكن أن يمارس هاسلر نشاطه، الصدام بين وضع الأولوية للحقوق الفردية في ممارسة التجارة وبين حماية قيم العائلات والمجتمع تم حله أكثر من مرة عبر إزاحة متاجر البالغين خارج حدود المدينة، بعيدًا عن الأحياء السكنية.

حقوق الفرد وقيم المجتمع تتفاوضان على كيفية العيش معًا طوال الوقت، إنه تحدٍّ مستمر، إعطاء الانتباه لاحتياجات كليهما لإرشاد تفكيرنا هو جزء مما يجعلنا مفكرين ناقدين واعين بذواتهم، وهذا يأخذنا إلى قلب سؤال الهوية: ماذا نضعه في المقدمة، حقوقنا الشخصية أم قيم مجتمعنا؟ يمكنك أن تقوم بجردٍ سريعٍ لمعتقداتك العزيزة لترى أيها يحركك أكثر، قيمك الشخصية أم قيم مجتمعك أم مزيج ما بينهما؟

علمُ أبنائك جيدًا

أوه! ماذا يدور في رأسك؟ كان من الكثير أن تستقبل كل هذا، ما علاقة كل هذا بتربية المفكرين الناقدين، هل تسأل عن ذلك؟ الرؤية الكونية لكل طفل تمارس تأثيرًا عظيمًا في كيفية تعلُّمهم، وفيما يتعلمون وماذا يصدقون عن أنفسهم. الآباء والمعلمون أيضًا يأتون برؤية كونية متماسكة لمهمَّتهم كمدرسين، إزالة القناع عن بنية تلك المعتقدات هو شيء ضروري، للمصادفة، «الموضوعية في التدريس» هي قصة يقولها الأكاديميون مفادها أن هناك طريقة للمشاركة في موضوعٍ ما مع استبعاد

الانحيازات في أثناء المشاركة. والحقيقة أن على أي حال ما يُضمَّن أو يُستبعد في موضوع ما هو في حد ذاته ما يؤثر فيما يسمى «الموضوعية»، أن تكون موضوعياً هو هدف نبيل متبقٍّ معنا من عصر التنوير، لكننا أدركنا في القرون التالية لذلك أنه هدف لا يمكن تحقيقه بالكامل.

جرب هذه الأسئلة لتصل إلى قلب فهم الرؤية الكونية ولتبني مهارات الوعي بالذات، لأننا أحياناً نضع كثيراً من التركيز على كيف يشعر الطفل في حين أن ما يحدث بداخله أكثر كثيراً:

- من أين جئت بهذه الفكرة؟
- لماذا تظن ذلك؟
- من قال لك هذا؟
- لماذا تظن أنها حقيقة؟
- ما التأويلات الممكنة الأخرى؟
- ماذا تظن أن الشخص الفلاني قد يقول عن هذا؟
- هل هذا ما تصدقه أم هل هذا ما تظن أنه ينبغي لك تصديقه؟
- من تظنه قد يستفيد من هذه الفكرة؟ ومن تظنه قد يضر؟

عناصر الهوية

بحثت عن الأبحاث الموجودة حول دور الهوية في التفكير النقدي وقابلت عملاً ممتازاً للدكتورة جولدي محمد، خبيرة اللغة وتعلُّم القراءة ومؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً «رعاية العبقرية». تركز جولدي على أهمية

دراسة الهوية كمكون مفتاحي من أحد المكونات الضرورية لتصبح شخصًا متعلمًا جيدًا. الهوية وفقًا لمحمد لها ثلاث صفات أساسية: «من نحن، وماذا يقول الآخرون إننا نكون، ومن نريد أن نكون». هذه (الصفات السلبية والإيجابية) العناصر الثلاثة المكونة للهوية من المهم جدًا أخذها في عين الاعتبار لنفهم أنفسنا، وأيضًا لنفهم الأشخاص الذين ندرس أعمالهم، كما رأينا في شبكة الرؤية الكونية، الهوية هي أكثر من مجرد تسمية عرقنا وديننا وتوجهاتنا السياسية، إنها اكتشاف «من تكون» واكتشاف من تكون هو شيء ضروري للمهمة الأكاديمية، دعونا نحفر على مستوى أكثر عمقًا داخل المكونات الثلاثة التي حددتها جولدي.

«من تكون» هو إحساسك الأصيل بنفسك، إنه «ما تعلم أنه حقيقي عن نفسك»، إنه يمثل من أين تأتي، ما تحب وما تكره، كيف تصنع المعنى من حياتك، ما الاحتياجات والارتباطات الحاضرة في شخصك. وجهات نظرك الشخصية تؤثر في كيفية رؤيتك لنفسك، «ما يقوله الآخرون عنك» يشير إلى المجتمع الذي تنتمي إليه، وإلى المجتمعات التي تعرف نفسك من خلالها.

هويتنا المجتمعية الأولى هي هوية عائلتنا، كما رأينا عائلتنا تنتمي إلى مجموعات أخرى، كالجماعات الإيمانية أو العرقية أو الإثنية، أو مجتمعات الأحياء المجاورة أو الأحزاب السياسية.

«ما يقوله الآخرون عنك» يُحدث تأثيرًا مفاجئًا في كيفية رؤيتك لنفسك، نحن لا نُعرِّفنا فقط المجتمعات التي تقبلنا، ولكن أيضًا

المجتمعات التي ترفضنا، أحياناً تكون تلك الأصوات هي الأصوات الأكثر ارتفاعاً في عقولنا: الآباء، الأقارب، المدربون، الزعماء الدينيون، المدرسون، الأصدقاء؛ جميعهم يقترحون من الطفولة الباكرة ما ينبغي للطفل أن يطمح إلى أن يكونه أو العكس، ربما يضعون حدوداً لما يمكن تحقيقه، إحدى الطالبات اللواتي درست لهن أخبرتني أن والدتها لم تُردها أن تذهب إلى الجامعة لأنها «ينبغي ألا تسعى لتكون أكثر مما تربت عليه»، حدود كتلك يمكن أن تقلص من طموح الطالب.

الكتب الأكاديمية، والإعلام الإخباري، واللافتات، والأفلام، والروايات، والثقافة الرائجة أيضاً تخبرنا من نكون، نحن نُخزّن تلك الصور ثم نصدر على أساسها الأحكام فيما يخص من يجب أن نكون. البعض ممّا لا يدرك حتى ثلاثينياته وأربعينياته أن سلالته كانت تستند إلى الحائط الخاطئ! الحائط الذي اختاره شخص آخر لنا.

ليس فقط ذلك، الأفراد الذين يختبرون آثار العنصرية على يد الثقافة المسيطرة، يتعشرون مع صور متعددة لهوياتهم من أعضاء داخل وخارج مجتمعاتهم، ربما يختبرون التضامن والتماسك داخل مجتمعاتهم، وربما يتم إعطاؤهم آليات تأقلم للأوقات التي يكونون فيها أقلّيات، ربما يشعرون بضغطٍ من عائلاتهم لتمثيل مجتمعاتهم بشكلٍ جيدٍ، وربما يتحمّلون وزن التوقعات غير المنصفة أو الانحيازات من المجتمعات الأكبر، الهوية دائماً معقدة.

البند الثالث هو «من تطمح أن تكون» وهي طريقة مدهشة لتفكيرها في نفسك، تماماً كأهمية الأصول، فإن هذا الجوع لتكون هذا الشخص

النموذجي لتُرى بصورةٍ ما يفرض تأثيرًا هائلًا فيمن تكون، الطالب المتفوق الكلاسيكي ربما يكون مهتمًا بترتيبه الدراسي أكثر من اهتمامه بإتقانه للمادة، على سبيل المثال، ربما لا يفهم الطفل أبدًا لِمَ الرياضيات مهمة لتعليمه إن كان هدفه الوحيد هو أن يصبح نجم يوتيوب في الألعاب، تقول جولدي محمد: «طلابنا وأيضًا البالغون دائمًا ما يبحثون عن أنفسهم في المساحات والأماكن»، ولهذا النزوع يجب أن يأخذ التفكير النقدي في اعتباره تأثير كل من حضور الهوية وغياب الموضوع الذي يُدرّس، يمكننا أن نطمح إلى مستقبل ما إن استطعنا تخيل أنفسنا جزءًا منه.

يذكرني ذلك بالمؤلف الحائز ميدالية النوبيري كوايم ألكسندر حين عبّر عن اشتياقه ليرى نفسه أنه مُمثّل في الروايات كطفل، وحكى عن مكتبة مدرسته التي لم يكن فيها كتب تعرض أناشأ ملونين مثله كشخصيات رئيسية أو كمؤلفين، لكن على أي حال بتنشئته في منزل يعمل فيه والداه في الكتابة والنشر، استمتع بحوائط مليئة بالكتب ذات المؤلفين السود والملينة بكثير من الشخصيات الرئيسية ذوي البشرة الملونة، وككاتب أسود في اللحظة الحالية عبّر عن مدى الأهمية التي شعر بها حيال إمكانية أن يرى أن من الممكن تمثيله كشخصية رئيسية، وأن يكتشف أن الكتاب السود يمكن أن يصبحوا مؤلفين ذوي أعمال منشورة عن تجاربهم الفريدة. قال كوايم: «والداي كانا أول معلمين لي وأول أمينين لمكتبتني»، التعليم الغني هو التعليم الذي يمثّل الجميع، الكتب والفصول التي تمثّل جماعة واحدة تؤدي إلى

إحساس بالاستبعاد والغربة من قِبَل الأشخاص الذين لا ينتمون إلى تلك المجموعة، وبالعكس، إن كان أحد الأطفال عضوًا في جماعة يتم تمثيلها باستمرار على أنها رئيسية يمكن للأطفال أن يحصلوا على حسٍّ خاطئ بأن رؤيتهم الكونية هي الصحيحة حصريًا.

الشخصية

إذن دعونا نبدأ بالطفل فردًا، نحن نعطي احترامًا كبيرًا لشخصية المتعلِّم أيًا كان، مدرِّكين مدى أهمية أن تكون مرئيًا ومعروفًا، سيكون من الصعب أن تسمي ما هو مخفي بالنسبة إليك، ليس حتى أن تغادر منزلك وتذهب إلى منزل شخصٍ آخر، وقتها ستدرك أن هناك طرقًا منطقية أخرى للوجود في هذا العالم. حين كان عمري ست سنوات زرت منزل جيراني الصينيين الأمريكيين، وطلبوا مني أن أخلع حذائي قبل أن أدخل المنزل، ما زال يمكنني أن أرى المنزل في ذاكرتي الصورية، الأرائك المغطاة بالبلاستيك، السجاد الأبيض، المساحات المرتبة، كان لهم انطباعٌ ما، المحافظة على المنزل نظيفًا كان أولوية مهمة لتلك العائلة. حين عشت في المغرب وزرت اليابان في عشرينياتي اكتشفت مكانين آخرين يعاملان الدخول بالحذاء إلى المنزل كفعلٍ منافيٍّ للنظافة الشخصية، كانت لحظةٌ اتخذتُ عشرين عامًا لصنعها لأتساءل فيها: «هل عائلتي هي الغربية هنا؟ هل معظم البشر على الكوكب يرون أن من الإهمال في النظافة أن ترتدي الحذاء داخل المنزل؟»، وتغيّرت الزوايا، تجربتي لم تعد هي التجربة المسيطرة داخل عقلي.

الهوية إذن هي رؤية نحملها معنا كل يوم بشكلٍ طبيعي. لذا، لتنمّي عقلًا فإنّ مقابلة نطاق واسع من البشر من خلفيات مختلفة هو شيء ضروري، غالبًا ما يحدث بسبب الاختلافات بين القصص والتجارب أن نطوّر مهارة لنفكر بشكلٍ نقدي في قصصنا، وهي الخطوة الضرورية الأولى في التفكير الواعي بذاته، دعونا نفعل ذلك الآن، لنساعد أطفالنا في تسمية تجاربهم كخطوة تجاه التفكير النقدي الواعي بذاته (يمكنك أن تقوم بنشاط الهوية أنت أيضًا). في الفصول التالية، سنبحث في ماذا يجب أن نفعل بتجارب الآخرين.

الذات المركبة

الذات هي تركيبة من عديد من العناصر المختلفة، صغيرة وكبيرة، عناصر تندمج بالتدرّج لتشكّل التربة التي تتكوّن بها الهوية، يحوي الجسد تلك الذوات التي تتطور وتتغير، وتتفاعل ويُعاد تشكيلها، التي تتكوّن لتخلق رؤى جديدة، فُكّر في حديقة خضبة تطرح ثمارًا، تلك الثمار تحتاج إلى مواد تخصيب. حين يقرأ أطفالنا ويمتصون المعلومات، سيؤدون أحسن أداء حين تكون التربة غنية، حين يمتصون من مصادر متنوعة، تعاني وجهات نظرنا حين نلتزم بنطاقٍ ضيقٍ من المصادر، (كأن نتعلم التاريخ فقط من كتاب أكاديمي، أو نتعلم الرياضيات فقط كعمليات حسابية بالورقة والقلم، أو أن نتعلم الكتابة فقط في أنماط).

سنلقي نظرة على المكونات الثلاثة الرئيسية في هذه التركيبة (القراءة، والتجارب، والمواجهات مع الآخرين) في الجزء الثاني.

قبل أن نفعل هذا، سيساعد أن نأخذ عينة من التربة، كما هي. لأنهم أطفالنا سنبداً بالملاحظات الصلبة التي يمكن بسهولة فهمها، لا استنتاجات تحتاج إلى أن ترسم، فقط ملاحظة تربتهم الغنية بالهوية.

نشاط : قصيدة «أنا آتي من»

يمكن لهذه القصيدة أن تُكتب لجميع المستويات (ذوو الأعين اللامعة وسريعو البديهة وحادّو الذكاء).

ستعطي دعمًا أكثر كثيرًا لأطفالك الأصغر، وتشجع المراهقين أن يرسموا خارج الحدود من دون التزام بالإجابات الحرفية.

قصيدة «أنا آتي من» ممتعة في كتابتها، بناؤها سهل، كل سطر جديد يبدأ بعبارة: «أنا من...»، على نحو طبيعي، الموقع الجغرافي هو جزء من معنى أن تكون «من» مكان ما، ولكننا أيضًا نأتي من نوعية طبخ، عادة دينية أو غير دينية، من أصوات ومشاهد، من ذكريات وأعياد، من آلام وأفراح.

كتب ابني ليام قصيدة «أنا من» جميلة، أحب أن أشاركها معكم كمثال:

ليام بوجارت (خمس عشرة عامًا)

أنا من أضواء أشجار الكريسماس،

أنا من أوراق الأشجار المتساقطة التي أضعها في دفاتري،

أنا من الأوراق والرزنامات المصنوعة منزليًا،

أنا من عيد الإيستر وتدخين الغليون والبيض الذهبي،
أنا من الشموع وتشكيلاتها ذات الروائح،
أنا من أساطير بابا نويل التي لم تُوجد قط،
أنا من لفائف القرفة النباتية،
أنا من مباركة مستر دارسي وخيرات مستر دارسي،
أنا من فرودو باجينز،
أنا من الحائط الأحمر،
أنا من هاري بوتر المتجول في إيطاليا،
أنا من الأوديسة حين تُقرأ جهرًا للأطفال الصامتين،
أنا من تاريخ العالم وأمي نائمة،
أنا من اسم الريح في شيكاغو،
أنا من الأمير جيك والدوق نوح،
أنا من كاترين ذات اللسان الفضي وجوناه الأوحى،
أنا من الشتائم الموجهة إلى الستار كرافت المفقود،
أنا من قواعد النحو المتعلمة من دون وعي، من تشومسكي وجولي،
أنا من التفكير الشجاع والكتابة الشجاعة،
أنا من العلوم غير الموجودة ورياضيات إنج وان،
أنا من التعليم المنزلي، من دون المدرسة، وداخل المدرسة وفي
الجامعة.

تعليمات:

يمكن للجميع أن يشاركوا، حتى الآباء والمدرسين، شاركهم
مخاطرة الكتابة، كن شريكهم في التعلم.

استخدم سبورة أو لوحة لتسجل إجاباتهم الأولية.

اسأل الأسئلة التالية لتخرج منها مفاهيم ليتم تضمينها، ثم سجل
الإجابات على السبورة أو اللوح.

- حدّد خلفيتك (الإثنية، الدينية، الثقافية... أيًا كان ما يعرفك).
- حدّد أين تعيش (وأين كنت تعيش)، صف هذه الأماكن
بكلمات بسيطة.

- اذكر أماكن زرتها.

- اذكر أكلاتك المفضّلة.

- اختر أربع صفات لتصف بها نفسك.

- اختر بعض الصفات لوصف عائلتك.

- أي الأعياد والمناسبات مهمة لك؟ فكّر في تقاليد معينة، في
عائلتنا نحرق شجرة الكريسماس في يوليو، وندخن غليونًا
مصنوعًا من الذرة في عيد الفصح.

- اذكر المجتمعات التي تعتبر نفسك جزءًا منها.

- ما عاداتك؟ وما العادات التي تعلمتها من مجتمعك.

- ما القصص والأساطير والأغاني التي تحبها؟

- اذكر تجربتين أو ثلاثاً تتذكرها من حياتك (سواء ذكريات سعيدة أو غير سعيدة، كالخضوع لجراحة)، أو كيف وجدت كتاباً في ترام شيكاغو وقرأته هناك (ككتاب اسم الريح في قصيدة ليام).
- ما الروائح والأصوات اللتان تربطهما بطفولتك حتى الآن؟
كشموع برائحة الفانيلا أو الليسول أو صوص التشيلي.

ضع في اعتبارك هذه التصنيفات أيضاً:

- من أقول إنه أنا.
 - من يقول الآخرون إنه أنا.
 - من الذي أطمح إلى أن أكونه.
- خذ هذه القائمة وأضف «أنا من» لتبدأ بها كل عبارة، اكتب القائمة واترك مسافات ثم اطبع، جزّئ الجمل إلى قطع وأعد ترتيبها بالطريقة الأكثر إرضاءً لك.
- دبّس كل جملة في صفحة بالترتيب الذي تحب، ثم أعد ترتيبها على الكمبيوتر واطبع النسخة النهائية، حرّك وغير الكلمات كما تشاء في أثناء قراءتك وإعادة قراءتك. من المفيد أن تقرأ الكلمات جهرًا لتسمع الكلمات وترتبها في أثناء مراجعتك، بعض الأطفال يفضلون كتابة النسخة النهائية مع رسم رسومات شارحة لها.

الهوية هي الأساس لكل ما يقوم به أبناؤك كمفكرين ناقدين، أبقِ قصائد «أنا من» على مقربة منك كمرجع مفيد لتعود له، كما يقول عزرا كلاين: «لا تشكّل الهوية فقط الطريقة التي نتعامل بها مع بعض، لكنها

تشكّل كيفية فهمنا للعالم». كما رأينا في الجزء الأول، الهوية هي أكثر من مجرد بعض الخانات التي نملأها، إنها رواية قصص أطفالنا، رؤاهم الشخصية، قيم مجتمعهم، مدى اهتمامهم بما يتعلمون، وكيف يفهمون أنفسهم وكيف يحدد هذا العدسات التي يستخدمونها في تأويل أي شيء يتعلمونه.

الجزء الثاني

اقرأ، جرب، واجه: التعلم الحقيقي

«أفضل طريقة قد تحنو بها على الدببة، هي ألا تكون على مقربة منها».

مارجريت أوتود، من رواية «آدم المجنون»

جاهز لنزع الأغلفة؟ المواد الأكاديمية غالبًا ما تكون مغلفة بما هو كثيف وسميك وخانق كونها داخل كتاب أكاديمي ممل أو محاضرة سخيفة قد يضع فيها الطلاب مواعيد قيلولتهم، لكن غالبًا ما في قلب أي مجال دراسي عمومًا هو شيء محفز ومثير للحماس.

والآن بعدما اكتشفنا من يكونون أطفالنا، دعونا نرى إن كان في إمكاننا نزع الأغلفة عن المهمة الأكاديمية لننظر ماذا يكمن أسفل تلك الطبقات.

احذر الدب

حين كان أطفالنا صغارًا، أصبحوا شغوفين بالحيوانات، وتحديدًا الدببة، قرأنا كتبًا عن الدببة، واحتوت الصفحة ذات البعدين التي لا تزيد مساحتها على ٨,٥ × ١١ إنش الحيوان ذي المائي باوند، وغالبًا ما

رُسمت هذه الدببة بقبعات وفساتين وابتسامات. عرفنا الدببة كعائلة مُحبّة لحساء الشعير، وغزا منزلها شخص أشقر، عرفنا الدببة كعائلة تُسمّى برنستاين حيث كانت مشاجراتها مألوفة تمامًا كمشاجراتنا، عرفنا دب بادينجتون الذي ارتدى القبعة والمعطف وسافر مع حقيبة سفر ومظلة حول العالم.

وكتبنا غير الأدبية كانت ممثلة بالدببة الواقعية، قرأنا عن الدببة القطبية والبنية والسوداء والباندا العملاقة، كنّا آمنين من الدببة وسعداء من خلال الكتب، لقد عاشت على ورق ثنائي الأبعاد وقد نتركها على رف المكتبة في أي وقت، كنتيجة لذلك أضفينا طابعًا رومانسيًا على الدببة ككائنات محببة واستمتعنا بها كدمى محشوة صغيرة يمكن للأطفال احتضانها وقت نومهم.

لإعطاء أطفالنا تجربة أفضل مع الدببة، أخذتهم إلى حديقة الحيوان، هناك كانت الدببة تسير ذهابًا وإيابًا في أقفاصها، تلك الدببة الحية كانت ضخمة بالنسبة إلى أعينها، رائحتها كانت أشبه بالفراء المتعفن والفضلات، مخالبتها بدت حادة وخطيرة، وكانت تتشاءب وتزجر بصوتٍ مسموعٍ وعميقٍ من الحنجرة. فجأة كل ما ظننا أننا نعرفه عن الدببة تعمّق، كنا لا نزال على مسافة آمنة منها لكن كان لدينا تقديرٌ جديدٌ للمقاس العملاق ولجلالة الملك الدب (وراء قضبانه)، في المنزل شاهدنا أفلامًا عن الدببة لكي نرى سلوكها في البرية، وليس فقط في سياق حديقة الحيوان، كلتا هاتين التجربتين زادتا من عمق علاقتنا بالدببة، والدتي رغم ذلك كانت تعرف الدببة بطريقة خطيرة

وشخصية للغاية، كانت تذهب للترحال في جبال كاليفورنيا كل صيف لمدة أربعين عامًا، وتعلّمت أن تأخذ احتياطات لتحمي طعامها وخيمتها ونفسها من هجمات الدببة، وحتى مع كل تلك الحماية الدقيقة، قابلت بعضًا من الدببة في البرية مباشرةً، تخيل أن تستيقظ من النوم لتبتول في منتصف الليل تاركًا خيمتك الدافئة وراءك لتجد مكانًا خاصًا في الأدغال ثم تُنزل سحّابك فقط لتنظر إلى الأعلى وتجد دُبًّا بُنيًا طوله ثمانية أقدام واقفًا على رجليه الخلفيتين على بُعد خمسين ياردة، هل تلك هي فرشاتي التي يمسكها؟ لا وقت للتفكير، الشراسة، الرائحة، المفاجأة، الخطر، كل هذا كان مستنزفًا، مواجهة الدب هذه صدمت وغيرت كل ما كانت تظن أُمّي أنها تعرفه عن الدببة من حدائق الحيوان وكتيبات الإرشاد. من الطبيعي أن القراءة عن الدببة تعطي معلومات فعلية ودقيقة عن «ماذا يكون الدب» وكيف يمكن لي أن أحمي موقع تخييمي منه، أكثر من مقابلة واحد منها في الجبال تحت ضوء القمر في أثناء محاولة التبول في سلام. لكن رغم ذلك، مصادفة دُبّ حقيقي في البرية على حين غفلة توصّل رسالة لا يمكن لأي كتاب أن يوصلها؛ ما شعور أن تكون في حضرة دب حقيقي، أن تكون متطفلًا عليه، أن تكون عرضة لأي تحركات غير متوقعة منه قد يفعلها بحدسه الطبيعي كدبّ؟

نجت أُمّي من كل مواجهات الدببة التي مرّت بها (كانت كثيرة)، ووضعتها في كتاب لتقرأه لصغاري وقت النوم، ومرة أخرى استمتعتنا بالدب على الصفحة ذات البُعدين، تحت تحكمنّا حيث مسموح لنا أن نضحك في وجه الخطر لنترك الدببة في الكتب مجددًا وقتما نشاء.

كيف نتعلم؟

الطريقة الأكثر توفرًا والأكثر أمانًا للتعلم هي عبر القراءة، يمكننا أن نقرأ حول أي موضوع، لنستهلك المعلومات سريعًا بالتفصيل، إن أردنا أن نقرأ عن آلات الكمان، يمكننا أن نعرف كيف تُصنع، ما أنواع الموسيقى التي تُكتب لها، من الذي عزف عليها... والمزيد. لكن القراءة عن الكمان هي درجة أدنى من معرفة الكمان، لن يقول أحد إن القراءة بكثافة عن الكمان هي الطريقة الكافية لفهم الكمان (بعيدًا عن مدى جمال وصف الكاتب لصوته)، بل ويمكننا أيضًا تعلُّم قراءة الموسيقى المكتوبة للكمان، لكن هذا لن يكون كسماعها، سنظل لا نعرف الكمان كما ينبغي أن نعرفه. والطريقة المساعدة الأخرى لتعميق المعرفة هي إضافة الخبرات المباشرة، ربما تستمع إلى صولو كمان على اليوتيوب أو تشاهد عازفًا على سهرة تلفزيونية، ربما تذهب إلى سيمفونية في ليلة ما ثم إلى بار محلي لتستمع إلى عازف شارع يعزف لحن بلوجراس، كلاهما نوع لموسيقى الكمان، هل يمكن أن تزور صانع آلات وترية لترى كيف يُصنع الكمان؟

بالطبع هذه التجارب ستضعنا في تواصل أقرب مع الكمان، رغم ذلك حتى إن كانت لديّ معرفة واسعة بموسيقى الأوركسترا فإن العزف على كمان هو مستوى آخر بالكامل، أعطني آلة كمان وفورًا سأشعر بعجزٍ عن صنع أبسط الأصوات بها، هناك فنٌّ وشعور ومهارة للعزف لا يمكن أن تكتسبها لا بالقراءة ولا بتجربة الاستماع إلى موسيقاها.

وهذا يأخذنا إلى الطريقة التالية لاكتساب المعرفة، المواجهة، المواجهة المباشرة مع «الكمان» تعني الإمساك بالآلة مباشرة، تعني تطوير المهارات، وليس فقط تقدير الموسيقى الجميلة، المواجهة تجعلك تحترم وتقدر المهارة التي يحتاج إليها المرء للعزف ولتساعده على تجاوز الانتقادات الوقحة من نادي العالمين بكل شيء. في الحقيقة أنت في الغالب ستستمتع أكثر بالاستماع إلى الكمان حين تحاول العزف على إحداها، المواجهة هي نقطة تحول، المواجهة الحقيقية (سواء كانت مع موضوع أو شخص أو آلة موسيقية، أو دب في البرية) تُغيّر تمامًا في التصورات السابقة، وغالبًا ما تثير التعاطف والاحترام وتعمّق الإحساس بتعقيد ما يُعرّف بطريقة أكثر قربًا وشخصية.

كلما شاركنا أكثر في موضوع دراسة، اكتشفنا حميميةً وتقاربًا معه أكثر، في كل مرة نقرأ فيها عن موضوع ثم نضيف تجارب إلى فهمنا وفي النهاية نواجه مباشرة، فإننا نضع أنفسنا في مغامرة أكثر وأكثر أن نتفاجأ أو أن يُؤكّد ما نعرفه بالفعل أو نصادف تبصرًا جديدًا أو تحديًا للنمو أو تحرّكًا لمستويات جديدة من التوتر. كل طبقة تؤدي إلى علاقة أكثر مهارة مع الموضوع لأننا نتجه إلى معرفته بجزء أكبر من ذاتنا.

من الطبيعي أنه ليس في إمكاننا جميعًا أن نصبح عازفي كمان خبراء أو أن نقابل كل حيوانات البرية لنحصل على تعليم متكامل، لكن على أي حال لتصبح مفكرًا ماهرًا فإن هذا يعني أن تمرّ بثلاث مراحل للتعلم كلما كانت متاحة. إحدى الفوائد الجانبية المفاجئة لهذا المدخل في التعلم هي التواصل، كثير من نقاشات الإنترنت قد تكون أكثر فعالية إن

أدرك الناس حدود فهمهم عبر التفكير من خلال هذه المراحل الثلاث من الاشتباك مع الموضوع، كيف لنا أن نتحدث بسلطة إن كنا قرأنا فقط عن الموضوع من دون أن نستمع إلى أي من موسيقاه؟

إننا نربّي الأطفال على أن يكونوا مفكرين ناقدين، إنه نموذج رائع لهم أن نعتز بحدود فهمنا إن كان كل ما نعرفه عن الموضوع هو ما قرأناه، ولهذا فنحن لسنا خبراء رغم مدى اقتناعنا بأي معلومات تخصّه، ربما نملك معلومات مكثفة لكن هذا هو كل الأمر، ما مدى ما يمكن أن نعرفه عن دولة أخرى من دون أن تكون قد عشت فيها؟ إلى أي مدى يمكنك تقييم نظرية في مجال علمي، إن لم تكن مدرّبًا مثلاً على الأدوات التي تسمح للخبراء بالوصول إلى تلك الاستنتاجات؟ ما هو كم ما يمكن أن نعرفه عن ديانة أخرى إن لم تكن قَطّ ممارسًا لها أو قريبًا لشخصٍ ممارسٍ لها؟ إلى أي مدى يمكنك تأكيد وجهة نظر إن لم تقضِ أي وقت مع الناس الذين تأثروا بها بالسلب؟

دعونا نتبحر بعمق في هذه المراحل الثلاث التي تُنشئ المفكرين الناقدين، القراءة، والتجربة، والمواجهة، نعم، أنت على وشك أن تستخدم القراءة في التعلم إن كنت تريد الاستفادة من الرؤى التي أوردتها هنا، على أي حال أشجّعك أن تقوم بهذه الأنشطة على مدار رحلتنا، ستعمّق من تعلّمك عبر التجربة والمواجهة.

الفصل السابع

القراءة بقربٍ وذاتية

«القراءة الدقيقة إذن لا يجب أن تعني أننا سنتجاهل تجربة القارئ ونلتزم بالنص بدقة من دون أي شيء آخر، لكنها ينبغي لها أن تشير إلى تقريب القارئ والنص بعضهما من بعض».

كايلين بيرز، روبرت أي. بروبست - من كتاب
«لاحظ ودون»

حين كنت فتاة صغيرة، أسست والدتي سياسة لوقت النوم، يمكنني أن أظل مستيقظة لوقت متأخر كما أشاء إن بقيت في السرير أقرأ، حتى وإن أعطتني قبة ما قبل النوم في الثامنة والنصف مساءً، يمكنني إبقاء الأنوار مضاءة لما بعد منتصف الليل إن استطعت أن أظل متيقظة.

لعددٍ لا حصر له من الليالي بقيت مستيقظة حتى الثانية صباحاً مع كتابٍ ملقى ومفتوحٍ على كتفي، كنت أوقظ نفسي لأضع الإشارة المرجعية بين الصفحات ولأغلق المصباح الليلي ثم أعود للنوم. نما عندي حب القراءة داخل راحة سريري تحت إضاءة مصباحٍ ينير

جيداً، ملتفة في غطاء مريح ووسادة ناعمة ودرجة حرارة دافئة معتدلة على مدار السنة. يُقال لنا مراراً وتكراراً إن أساس التعليم الجيد موجود في الكتب، ما دمنا نستطيع القراءة فنحن على طريق التفكير الحيوي وتكوين الشخصية الجيدة، أليس هذا صحيحاً؟

أنا هنا لأقضي على تلك الأسطورة، لا داعي للشكر، القراءة هي قوة عظيمة لكنها أيضاً آمنة، هل لاحظت سياق «حب القراءة» في حياتي؟ يمكنني أن أقرأ عن السهول الثلجية في حين أتدفأ تحت الأغطية الدافئة، من دون أن أختبر أبسط برودة، يمكنني أن أقرأ عن اليهود يهربون من ألمانيا إلى الدنمارك في أثناء الهولوكوست وأنا آمنة في حيي السكني في غرفة في كاليفورنيا في القرن العشرين. مع القراءة المخاطرة أقل جسدياً (عدا جرح نفسك بالورقة في أثناء قلب الصفحة) وفكرياً، اسمعني جيداً، الأمر لا يتعلق بأن المادة المقروءة لا يمكن أن تكون همجية عاطفياً أو تخريبية أو سياسية. حين نسمح لخيالاتنا بتضمين ما يكشفه الكاتب بحميمية عن نفسه في الحقيقة ربما نتأثر بعمق، لكن الأمر هو أن القارئ فقط يقرر ما إن كان ينوي استكمال القراءة أم لا، القارئ يقرر كم التقدير الذي سيعطيه للمحتوى، يستطيع القراء أن يحافظوا على مسافة بينهم وبين الكتاب والموضوع أو يمكنهم دعوتهم للدخول وللاستقبال رسالتهم.

على سبيل المثال، حين أقرأ يمكنني تقسيم الأفكار المربكة لأعطي وزناً أكبر لما أؤمن به، يمكنني تجاوز الإحصائيات (بالمناسبة أنا أفعل ذلك بالفعل، الأرقام لا تثبت في ذهني بسهولة وأجد صعوبة في تخيل

نطاقها). لكن تجاوزي لها يطرح سؤالاً جيداً: ما التأثير الصافي لذلك إن قرّر كاتب استخدام إحصائيات ليثبت نقطة؟ هل ستفوتني النقطة وأعبر منها غير مقتنع؟ حين نقرأ فإننا نأتي بشخصياتنا وتفضيلاتنا وظروفنا واحتياجاتنا الحالية معنا بصرف النظر عن هدف الكاتب وأجندته. يمكنني تجاهل حجة جيدة أو التركيز مرتين على الحجة التي تعجبني، يمكنني أن أقرأ بجدية أو بشك، لست متأكداً أن هذا حقيقة؟ اذهب حالاً إلى إحدى صفحات السوشيال ميديا، كيف تقرأ للناس المتفقيين مع سياستك؟ وهل تقرأ لمن لا يتفقون معك؟ هل تثق بـ«حقائقيهم» بالتساوي؟ لماذا ولماذا لا؟ ما أحاول قوله هو أن القراءة شيء تحت تحكمنا بالكامل، وما نختار أن نمتصه أو نتبناه راجع إلينا تماماً، بصرف النظر عن مدى جودة الدراسات والبيانات التي يعرضها الباحث، القراءة تسمح لنا بالاستكشاف (من على مسافة آمنة) جميع أنواع المعلومات، على سبيل المثال، يمكن للقراء أن يسافروا عبر الأدب التاريخي للهند ليعرفوا أكثر عن وقت التقسيم مع باكستان في أثناء انتظار الشخصيات الرئيسية أن تقع في الحب. يمكن للأطفال أن يقرأوا عن تاريخ الخمسمائة عام للإمبراطورية الرومانية في رواية مصورة من مائتي صفحة، قد يرسل إليك أحد الأصدقاء مقال نيويورك تايمز عن الروهينجا، جماعة إثنية مسلمة من ميانمار وقعت ضحية للإبادة الجماعية، وأنت من ستقرر كيف تقدّر ذلك، سواء إن كنت ستفحصه أو تقرأه أو تخزّنه إلى حين آخر. ربما تصبح شغوقاً بأزماتهم ومنتقداً للمؤسسات التي لا تفعل شيئاً لتخلّصهم من معاناتهم، كل هذا من دون السفر إلى آسيا أو من دون

إرسال دولار واحد لتدعم نشطاء حقوق الإنسان هناك. نحن نزعّم آراء بناءً على ما نقرأ من دون فهمٍ كلي للديناميكيات الأولية المعقدة، القراءة تسمح لنا باستهلاك نطاق واسع من المعلومات لا يحتاج إلى أي فعلٍ من جانبنا، في أسوأ الأحوال، القراءة قد تعطينا شعورًا زائفًا بأننا على اطلاعٍ جيدٍ، ولنا الحق في تكوين آراء صلبة حتى وإن لم نضع أنفسنا في أي مخاطرة قبل ذلك.

حاليًا، أكبر كتلة من قراءات الناس تحدث عبر الإنترنت، مقتطفات الآراء تُطلَق فورًا وبأعدادٍ لا حصر لها على تويتر وفيسبوك، لتجد أناسًا أنت لم تهتم بهم لسنوات يدفعونك دفعًا لتهتم بهم، صور الإنستجرام مع ما يلحق بها من كتابة، مقالات إخبارية ومقالات رأي على المواقع التي تختار أن تعطيها إعجابك، صفحات ويكيبيديا المتغيرة باستمرار مع الملخصات المساعدة والملاحظات غير الدقيقة التي يصعب تمييزها عند أول قراءة. أدخل إلى مقالات المدونات لأتفقد تواريخ نشرها آملّة أن أجد مقالًا مكتوبًا خلال السنة الفائتة، يقاوم عقلي تلقائيًا أي محتوى منشور مضى عليه مدة أكثر من سنة أو سنتين، التخمّة المعلوماتية حقيقة والمقال المنشور من خمس سنوات يبدو بالفعل شيئًا عفا عليه الزمن، في أثناء ذلك تصمم صناعة التكنولوجيا خوارزميات تهدف إلى جعلنا نتفاعل مع المحتوى الذي نختاره بناءً على تحليل ما الذي يستحوذ على انتباهنا ويُيقِننا على مواقع السوشيال ميديا.

أطفالنا أيضًا أقل استعدادًا منّا لتقييم ما يقرؤون، قال سقراط من سنين فائتة قبل أن يكون معظم الناس متعلمين وقبل ظهور الصحافة المطبوعة

بعهود: «الحياة غير المتفحصة هي حياة لا تستحق أن نعيشها». أود أنؤكد حكمة سقراط العابرة للأزمان لأقول له: «الحياة غير المتفحصة لا تستحق أن نقرأ فيها الكتب ولا أن نتصفح الإنترنت»، أما الحياة المتفحصة فتسمح لنا أن نقرأ بشكلٍ ناقِدٍ وبوعي أكبر وبشكلٍ صحي مع انفتاح على إمكانية أن نتغيّر بما نقرأ. المهارة المُسمّاة بـ«الفحص» هي القدرة على التمييز والتعرّف على ما هو مفيد وما هو قمامة أو أكثر، القدرة على أن تقول صراحة: «لا أعلم ما هو المفيد وما هو القمامة»، هذا هو أساس التفكير النقدي.

معرفة القراءة والكتابة تجعل الإنسان موكلاً باستخدام فرصة أن يكون واعياً باختياره، أن يكتسب رؤية ويشكّل آراء، إن قرأنا بوعي نقدي. في حمية المفكر فإن القراءة تشكّل النسبة الأكبر من المدخلات والمصادر، القراءة تهم في كلتا حالتها سواء الممتدة أو الملتزمة بحدود، ما نريد أن نستحضر في أثناء القراءة هو العقل الفضولي والخيال المتوسع والجوع إلى المعرفة، القراءة والكتابة لا تدوران فقط حول فك النصوص ونسخ الأفكار لكنهما تدوران حول القوة اللازمة لترعى نفسك وترعى الآخرين.

معرفة القراءة والكتابة

في هذه اللحظة، أنت تقرأ نصّاً، إن كنت تستخدم عينيك لتقرأ كتاباً أو شاشة، فأنت تفعل الفعل الذي يسميه خبراء تعلّم القراءة «فك الشفرة».

بمجرد أن يحصل القراء على صوتٍ من الكلمة فإن مخهم يبحث داخل المعاني المحتملة للكلمة، وما يمكن أن يكون في هذا السياق غير المؤلف.

كفاح القراء الجدد أحياناً للحصول على صوت من الكلمة يكون شاقاً جداً إلى درجة أن الكلمة عندما تتكوّن على اللسان لا تبقى حينها طاقة عمل في المخ أو الذاكرة لبحثها في معناها. القارئ الصغير لن يتمكن من إجابة سؤال حول القصة التي يقرأها، لقد تمكّن فقط من فك شفرات الكلمات بنجاح، بمجرد أن يضع القارئ جهده في تعلم كيفية فك شفرة لغة وحقق فيها المستوى المطلوب من الدقة والمهارة، فإن المستوى التالي من معرفة القراءة والكتابة يصبح متاحاً له.

توليد المعنى من الجمل حين تتجمّع معاً، الفهم في هذه المرحلة يعني القدرة على إعادة صياغة المعلومة بعد قراءتها، المستوى التالي من القراءة هو مستوى أكثر تعقيداً على أي حال: «على القارئ أن يستدعي كلاً من معرفته بالكلمات ومعرفته بالعالم (الخبرة ضمن ذلك) ليفهم المعنى من أي نص، بهذا المنطق فإن القارئ يشارك في حوارٍ يتطور باستمرار، يستطيع القارئ أن يفك شفرة الكلمات وعالم الأفكار.

معرفة القراءة والكتابة يمكن أيضاً فهمها بشكلٍ أوسع، على سبيل المثال، معرفة القراءة البصرية، تتضمن الصور والرموز، ما الفارق بالنسبة إلى رضيع صغير بين «الشخص في الزي الأخضر» و«الشخص الذي يحتضنني»؟ نحن نعرف أن أحدهما الممرضة والآخر الأم، منذ لحظة الميلاد يواجه الطفل حاجته إلى تأويل العالم المحسوس بصرياً،

لنبدأ في تعليمه الرموز والإشارات التي ستساعده على فهم منطق الحياة بين الناس. وفقاً لبريان كينيدي، مخرج متحف توليدو للفن: «القدرة على القراءة البصرية هي القدرة على تكوين معنى من الصور، إنها ليست مهارة، إنها تستخدم المهارات كصندوق معدات، إنها شكل من أشكال التفكير النقدي الذي يعزز قدراتك الفكرية»، لتفك شفرة صورة أو رمز هو أن تستخدم قدرات تفكيرك الناقد في القراءة، حالياً نستخدم مصطلح «الأمية» لنشير إلى نطاقٍ واسعٍ من التخصصات التي تحتاج إلى معرفة أساسية أيضاً، ربما نتحدث عن «محو الأمية الحاسوبية» أو «محو الأمية الرياضية» أو «محو أمية مكان العمل»، هذه الثنائيات اللفظية تذهب بمصطلح محو الأمية/ معرفة القراءة إلى ما هو أبعد من فك شفرات الحروف إلى أصوات ومعانٍ أساسية، بدلاً من ذلك فهي تشير إلى نطاق أوسع وسياق أكبر، تشير إلى الطلاقة في المصطلحات والرموز والممارسات الخاصة بمجالٍ معين.

دعوني أشارككم قصة عن محو أمية الرموز التي اختبرتها كشخصٍ بالغٍ وذكرتني بكل من طلاقتي وعدم طلاقتي في آن واحد. سافرت إلى اليابان على خطوط جوية سينغافورية من عقود فائتة، وذهبت إلى الحمام الصغير في آخر الطائرة، فتحت الباب الأكورديون وأنزلت بنطالي ثم توقفت عن إنزاله حين لاحظت صورتين تشرحان كيفية استخدام المرحاض، رد فعلي المبدئي كان المفاجأة، هل كان هناك أناس لا يعرفون كيفية استخدام المرحاض؟ كانت هناك صورة تعرض شكل شخص يجلس القرفصاء على المرحاض، كانت هناك علامة

خطأً فوق هذه الصورة، الصورة التالية كان بها شكل شخص يجلس على المرحاض مع ساقيه الاثنتين مستندتين إلى الأرض من دون علامة خطأ فوقها، قرأت الصورتين من اليسار إلى اليمين، أحد مستويات معرفة القراءة البصرية هو القدرة على فك شفرة الرسومات التوضيحية، الصور كانت تشبه قليلاً الكارتون المرسوم باليد لأشكال الأجسام، لم تكن صوراً فوتوجرافية، من يعرفون القراءة البصرية سيدركون أن تلك الكائنات ذات البُعدين تُمثلُ بشرًا وأشياء من العالم الحقيقي، فهمت بسهولة أن الرسمتين تمثلان مرحاضًا وإنسانًا، اعتدت رؤية الأشكال التي تمثلُ أشياء وبشرًا من العالم الحقيقي لكن هذه مهارة يجب اكتسابها، هل سبق أن ذهبت إلى اثنين من حمامات المطاعم ذات الثيمات مثلًا؟ وكان ملاكهما أذكاء جدًا في رسوماتهم بحيث استخدموا القبعات في رسوماتهم لتحديد حمام الرجال وحمام النساء؟ إن كانت ثقافتك عن القبعات الويسترن ليست جيدة بما فيه الكفاية فربما تحتار أيهما حمام رعاة البقر وأيهما حمام «راعيات البقر»! هذا ما أحاول شرحه هنا.

سمة أخرى من سمات معرفة القراءة البصرية التي أظهرتها في كابينة الطائرة كانت القدرة على تفسير علامة الإكس الحمراء الكبيرة، كنت أعرف؛ إن كان هناك إكس فإن هذا يعني «ليس بهذه الطريقة» أو «هذا ممنوع»، تساءلت ماذا إن كان الشخص في الكابينة من تايلاند أو الهند أو دولة أخرى تستخدم قواعد إملاء مختلفة. هل قرأ التايلندي أو الهندي كانوا يستخدمون الحرف الروماني إكس بهذه الطريقة ليشيروا إلى «الممنوع»؟ فهمت أن اللون الأحمر معناه «لا تفعل هذا»،

وتساءلت مجددًا: «هل يعرف الجميع هذا؟ هل الأحمر لون معروف عالميًا كلونٍ يعبر عن المنع؟». ربما إشارة توقف جعلته مفهومًا عالميًا، لنقل الحقيقة: علامة توقف كان يمكن أن تكون زرقاء أو خضراء، وعند نقطة معينة قررت الجموع أن تربط اللون الأحمر بمعنى «توقف»، وهي محو أمية لونية يجب أن يتم تعلمها.

جانب ثالث من جوانب معرفة القراءة البصرية هي القدرة على الوصول إلى معنى، علامات المرحاض ليست ديكورات، لقد كان من المفترض منها أن تعلمني درسًا ما، الوضعية الأولى على المرحاض كانت ممنوعة، والوضعية الثانية كانت صحيحة. سألت نفسي من كان في حاجة إلى هذه التعليمات المهذبة؟ كانت المرة الأولى التي أدركت فيها أن بعض الناس في العالم لم يكونوا عالمين بثقافة «المراحيض الويسترن»، كانت لديهم طريقة أخرى لتصريف شؤونهم، كان المفترض من الصور أن تعطيهم التعليمات من دون كلمات، لقد كنت غير مرتبكة بخصوص أي شيء لأنني كنت أفهم الرموز وأفهم كيفية استعمال المرحاض الويسترن طوال حياتي (وقد قدر المصير وقتها أن أذهب لأعيش في المغرب، وأولى الشقق التي سكنتها كانت توفر مرحاضًا يحتاج إلى جلسة قرفصاء، وكان عليَّ أن أتعلَّم كيفية استخدامه من دون صور مساعدة لتعطيني التعليمات).

بعد عدة ساعات لاحقة، هبطت طائرتنا في اليابان في طوكيو، دخلت مطار ناريتا الدولي ومعه إلى تجربة مرحاض عالية التكنولوجيا ما زلت إلى الآن لا أستطيع تفسيرها، كانت أقسام الحمام عبارة عن

كبائن صغيرة بأبواب ممتدة من الأرضية للسقف، كان مرحاض العصر الفضائي يلمع باللون الأبيض ولديه عدد من الأزارار الملحقة بجانبها أشكال شخصيات يابانية لم أستطع فهم شيء منها، كانت هناك أزارار على الحائط وعلى المراض نفسه من دون مقابض واضحة أو مكان ضغط لصرف المياه، عرفت كيف أجلس لكن تنبّهت أنه لم يكن هناك غطاء للقاعدة، لم أعرف كيف أصرف المياه، قضيت بضع دقائق أتأمل في كل الأزارار، خائفة أن أضغط على أيٍّ منها، ثم أدركت أنني لن أتعلم ماذا يُصنع بها إن لم أخطر وأضغط عليها، خمس دقائق من الضغط الحر على جميع الأزارار، حركة مياه وضحكات متفاجئة مني تبعث ذلك، أحد الأزارار أنزل غطاء مقعد يغطي المراض مع صوت أزيز عالٍ، أعلى بكثير مما يجب استخدامه، ضغطت على زر آخر أحدث صوت صرف لكنه لم يتخلص من المياه، عرفت بعد ذلك أن اليابانيين شعب محافظ، يحبون أن يصرفوا المياه مرتين للتغطية على صوت التبول ولتوفير المياه، تم توفير هذا الزر الذي يحدث تأثيراً صوتياً فقط في الحمامات العامة ليعطي اليابانيين ما يحتاجون إليه لمحافظةهم، بعد عدة أزارار عشوائية أخرى تم تصريف المياه على حين غرة، مفاجأة! انفجرت ضحكاً، وما زلت متأكدة أنني لا أملك طلاقة مرحاضية في اليابان، ورغم هذا كنت على الأقل أعرف أن عليّ ضغط الأزارار، تعلمت مبكراً في حياتي أن الأزارار وُجدت لنضغط عليها! تلك المعرفة أنقذتني يومها. استخدامي الواثق للمرحاض على الطائرة تم تدميره (ها!) في طوكيو، وأفكر الآن بينما أسترجع ذكرى تجربتي المرحاضين

أن إحساسنا بالقوة من عدمها له علاقة كبيرة بمدى قدرتنا على القراءة في أي ظرف؛ قراءة الناس، العلامات، اللغة، الوجوه، الماكينات، إشارات المرور، وجهات النظر وأكثر، ربما الضغط الثقافي هو الإنهاك من تعلم كيفية «استنطاق» ثقافة جديدة وتفسيرها، مع لغة ونظام طعام وعملة وأخلاقيات ومكان، تتعلم قراءتها جميعاً في بيئة جديدة، تخيل كم هو مرهق أن تكون طفلاً، ثم أن تكتسب المعرفة في مجالات عديدة كل يوم فوق تعلم الدروس في المدرسة. بينما يكبر الأطفال الصغار يتعلمون القراءة ويتعلمون قراءة وجوه آبائهم وأصواتهم ولغة جسدهم وملاحظتهم حين يريدون الاسترخاء وحين يودون الانطلاق! الآن تخيل أن تكون طفلاً مع إعاقة تعلم، إنه مستوى مختلف تمامًا من التحدي، فك شفرات الوجوه والسلوكيات والأعراف الاجتماعية ونبرة الصوت، هي جميعها معارف نبنها مبكرًا جدًا في حيواتنا لتساعدنا على التأقلم مع بعضنا، تأمل في كيف لا يفهم صغيرك دائمًا تعجلك أو إلحاحك، إن الأمر يأخذ وقتًا لفهم أن نبرة الصوت، وليس فقط الكلمات، هي ما تصنع التواصل، في المرة القادمة التي يماطل فيها طفل في الاستجابة لانزعاجك، اسأل نفسك: ما مدى طلاقة طفلي في فهم نبرة صوتي المنزعجة؟ ربما هو يحتاج إلى جرعة تعليمية مكثفة في «اتباعي أيها الرجل الصغير!»، وبشكل مماثل، كم عدد المرات التي يسيء فيها مراهق تأويل رسالة نصية من والده أو العكس؟ ثار الجيل الأصغر باستخدام الشات على الطريقة التي نعبر بها عن صوتنا في الكتابة، لذا ظهرت أمية جديدة علينا محوها! المهم هو أن علينا أن نفك شفرة جميع

أنواع اللغات والصور لنستطيع التعامل في العالم الذي يزداد اعتماده على الرموز أكثر وأكثر. بينما مفهوم «الأمية» يرتبط دائماً بفك شفرات الأبجدية للقراءة، فأنا أوسع استخدامه هنا ليشمل الطريقة التي نفك بها شفرة نطاق الصور التي تزداد اتساعاً لنبني المعنى من كل رموزه، في القيادة نفك شفرات إشارات المرور والأضواء وعلامات الحدود على الطريق، نقرأ المقاييس على لوحة عداد السيارة، وخبرتنا السابقة في فهم ما هي السيارة ونموذجها تسمح لنا بتخمينات أفضل في كل مرة نقابل فيها سيارة أخرى، تعليمات تجميع الأثاث وتعليمات غسيل الملابس يجب فك تشفيرها، لنعرف كيف نبني الطاولة أو لتجنب إتلاف قميص يلزم تنظيفه بشكل جاف.

ما المعارف والمعاجم الأخرى التي تستخدمها مع نفسك وأبنائك كل يوم؟

- إدارة حياتك على الهاتف الذكي.
- برمجة الكمبيوتر.
- البحث على الإنترنت.
- استخدام أجهزة التحكم عن بُعد وتسجيل البرامج على مسجل DVR.
- التنقل بين خدمات البث على الأجهزة المتنوعة.
- تشغيل الأجهزة كغسالة الأطباق أو المكنسة الكهربائية.
- قراءة وصفة، وإعداد الطعام.

- لعب الألعاب اللوحية والكروت والألعاب على الإنترنت.
- اتّباع تعليمات تركيب لعبة ليجو أو قطعة أثاث من إيكيا.
- تفسير الإيموجيز في رسالة نصية.
- قراءة الوقت من على ساعة حائط.
- معرفة الطرق في مطار دولة أجنبية.
- العمل على ماكينة خياطة واتباع الباترون.
- قراءة لوحة تسجيل النقاط في مباراة رياضية.
- معرفة مهنة من زيارتها الرسمي.
- فهم الفواتير والتذاكر المقطوعة.
- تفسير الجداول المالية وحسابات الاستثمار.

أحب أن أفكر فيها جميعاً «كمعارف ومعاجم صغيرة»، وفي كل الطرق التي نتعلمها لنقرأ بيئتنا وكل شيء فيها، في كل مرة يتعلم فيها أطفالك كيف يتبعون نمطاً من المعلومات فإنهم يكونون قد أتقنوا مهارة «قراءة» جديدة، وطبّقوا عليها مهاراتهم في التفكير النقدي. في المشهد التكنولوجي اليوم عدد المعارف والمعاجم المنتظر منا إتقانها مستمرة في التوسع بشكلٍ تفجّري، رغبتنا العالمية في التماثل خلقت بيئة ممتازة لازدهار الرموز، متجاوزة الاحتياج إلى ترجمة اللغات.

أبناؤنا متحدثون أصليون بلغة العالم الرقمي، وهم قادرون على استخدام التكنولوجيا من دون أي اغتراب عنها، لكن أنا ومن هم في سني ننادي على أقرب مراهق بالحوار لينقذنا من أي ورطة تكنولوجية وقعنا فيها.

في أثناء تربيتك للأطفال من المفيد أن تلاحظ المعارف والمعاجم التي يستدعونها لتفسر عالمهم ولتقدرهم، من المجهد أن تفك الشفرات وتفسر على مدار اليوم، في كل مرة ينجحون فيها في ذلك فإنهم يضيفون بيانات جديدة.

لقراءة وتفسير أفضل، الحقيقة أن هذه المعارف والمعاجم مرتبطة بعمق بإحساسنا بالمكان وبخلفياتنا الدينية وغير الدينية وتجاربنا في الحياة، هذه التفسيرات التي نعطيها لما نقرأه تشكّل هوياتنا ورؤانا الكونية، الأمر يتطلب جهداً متعمداً لترك مساحة لرؤية شخص آخر في أثناء إطلاعه لنا على ما يراه من الحياة من وجهة نظره، نحن جميعاً نؤول طوال الوقت وليس لدينا جميعاً نفس المستوى من المهارة في جميع الموضوعات، والأهم أننا لا نفسر المعلومات جميعها بنفس الطريقة، من الممكن أن نستخدم نفس الكلمات أو نفس الرموز، وفي نفس الوقت نشير إلى معانٍ مختلفة. «المعرفة الأعظم هي معرفة ما بعد الوعي»، وهذا تفسره ريتا تيشفاتسو، إخصائية صعوبات اللغة والتخاطب ومؤسسة أكاديمية «متجذر في اللغة»، وتقول: «يمكننا إدراك وتقدير أن التفسيرات المتنوعة يمكن أن توجد جنباً إلى جنب»، في الحقيقة الأمر يتطلب تواضعاً لندرك أن حتى داخل تماثلنا هناك تنوعات غنية وحيوية ومختلفة من الخبرات التي توجد معاً، وتؤدي إلى تأويلات مختلفة، يمكننا الإعجاب بتلك الحالة بدلاً من إصدار الأحكام عليها.

تضع معارفنا ومعاجمنا الصغيرة الأساس للتفكير النقدي، افتراضاتنا عن المصطلحات مثلاً يمكن أن تعطينا طريقاً لفهم رسالة

الكاتب، أحد أهداف التعليم هو تنمية قاموس المصطلحات عند الطلاب في موضوع ما لتكون لديهم معرفة عملية، بحلول وقت دخولهم الجامعة، كيف يتكلمون عن الأدب أو كيف تعمل الحكومة أو كيف تعطي إثباتاً أو كيف تصنع بنياً ما. يحصل الطلاب على إتاحة لحوار عظيم في الموضوع الذي قضوا وقتاً كافياً في تعلّم خلفيته المعلوماتية ومكّنتهم من تفسير ما يقرأون وما يتعلمون. في النهاية القراءة الواعية مرتبطة بالخلفية المعرفية والمفاهيم اللسانية والمهارات الشفهية، حين يتم تكليف الطلاب بقراءة ما من دون فهم تأسيسي لقانونها المعرفي وسياقها التاريخي، أو المظلات الدينية التي تؤثر رؤية الكاتب للعالم، فإنهم يتعرضون للتشوش كما تعرضت له في حمامات اليابان ذات الأضرار المعنونة بحروف الهيجرانا! الأمر يتطلب وقتاً وجهداً لتصبح قارئاً ماهراً، ومستويات مهارتنا تتنوع بناء على أي موضوع محل نظر، كلما تعلم أطفالنا كيف يصبحون فضوليين لتفسير ما لا يفهمونه وكيف يأخذون وقتاً لبناء معجم مصطلحات؛ ازدادوا مهارة في استخدام عقولهم للتفكير جيداً. لمساعدتك في مساعدة أطفالك على تنمية قدرتهم على القراءة بدقة وحرص، صممت سلسلة من الأنشطة التي ستجعل القراءة وسيلة أكثر فعالية في التفكير النقدي، كل نشاط يمكن تطبيقه على أي فرد في العائلة في أي سن (هذا يتضمن الآباء والمعلمين)، وهو مجمع من عدة أنشطة، اختر بحرية النشاط الذي تودُّ العمل عليه في كل مرة.

نشاط ١ : المعارف والمعاجم الصغيرة

النشاط الأول هو تقدير المعارف الصغيرة، بكل الطرق التي يعمل بها أولادك كـ«محللي شفرات» بالفعل أنت تدرب أولادك على رؤية أن العالم مليء بالرسائل السرية التي تنتظر أن يُفك تشفيرها، مهمتنا هي أن نكون كالجاسوس مع عدة أدوات، لتتعرف على الرسائل المقصودة من المرسل، هذه الأنشطة مرتبة بدءاً من أصغر قرائك وصولاً إلى المراهقين.

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات) :

محو أمية ما قبل القراءة

لاحظ المعارف التي تدعم نشاط القراءة، التي لا يدرك فيها أطفالك أنهم يقرأون الآن من الأساس! بعض هذه الأنشطة قد تكون مرهقة لبعض القراء، وإن استمرت الصعوبة فإن الحصول على مساعدة المحترفين يمكن أن تكون هدية لتعطيها لأطفالك!

- اقلب الصفحات من اليسار إلى اليمين.

- أدر الكتاب إلى جهته اليمنى.

- أشير إلى صورة وقل اسمها.

- عد الأشياء التي في الصورة.

- تهجّ أبجديتها (قائلاً اسم كل حرف).

- قل أصوات الحروف كل على حدة.
- لاحظ تنويعات أنواع الخطوط المستخدمة في الكتابة.
- رتّب الكلمات أبجديًا.
- رتّب الأشياء أبجديًا.
- قل أسماء الألوان.
- حدّد علامات الترقيم.
- قل أسماء الأرقام.
- حدّد الرموز الرياضية.

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات) :

معرفة القراءة البصرية

قد يجد بعض الأطفال أن المعرفة البصرية صعبة، تحديدًا أطفال التوحد، كن صبورًا، هذا ليس اختبارًا بل مجموعة من الأنشطة لتجربها، تهدف هذه الأنشطة إلى مساعدة الأطفال في مهام اللاوعي التي تحدث لدعم عملية التفسير.

- فرّق بين الصور: الوجوه، الحيوانات، النباتات، الآلات، المباني.
- اربط تعبيرات الوجه بالعواطف.
- افهم الفرق بين الصور الفوتوجرافية والصور المرسومة.
- اصنع تجميعة مصنفة من الأشياء على حسب اللون، كمكعبات الليجو، أو معدات المكتب، أو الألعاب.

- تعرّف على أو صف شيئاً/ شخصاً/ حيواناً من مشهده الخلفي أو الفوقي.

- حدّد الطقس والفصول من العلامات البصرية.

- تعرّف على المباني والأماكن: مكتب البريد، المدارس، الشقق، متاجر البقالة، دور العبادة، البيوت، الحدائق، الشواطئ.

قصة مضحكة: حين كان ابني الأكبر في الرابعة من عمره، كنّا نذهب إلى كنيسة تتقاسم مكانها مع ملعب مدرسي، وفي يوم كنا نسير بالسيارة داخل حي مختلف فأشار بإصبعه من النافذة إلى مدرسة قائلاً: «انظري أُمي، هناك كنيسة!»، مثال عظيم على كيفية تكوّن التجارب الشخصية وعلى زوايا رؤيتنا التي تشكّل رؤيتنا للعالم.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً):

اجمع الرموز واصنع قاموسك الخاص

- اجمع الرموز لمدة أسبوع من إشارات المرور، والمتاجر، والأضرار على أجهزة التحكم، وأيقونات اللعب على الإنترنت، وألعاب تبادل الكروت الرمزية، وأضرار الأجهزة، وهكذا.

- اصنع معجماً منها مع إتاحة أن يصنع الأطفال تعريفاتهم بأنفسهم مستخدمين الكلمات التي اختاروها، استخدم هاتفًا خلويًا لالتقاط صور الرموز ومن ثم طباعتها وتجميعها في قاموس صغير.

- احتفِ بمهارة طفلك في فك شفرة المعنى، تكلم معه حول قدرته على تفسير الرموز، لاحظ أي الرموز ليست واضحة في الحال، ناقش معهم لماذا، واطلب منهم أن يقترحوا رموزاً أفضل.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) :

اصنع قاموس الرموز المنزلي الخاص بك

- اصنع رموزاً لأنشطتك اليومية.
- اصنع كروت ملاحظة لكلٍّ منهم.
- ناقش معهم سبب اختيارهم لكل رمز: رمز للمكنسة، للطبخ، لغسيل الأسنان، للعب البيانو، لتصفح الإنترنت، وهكذا.
- استخدم الكروت (بدلاً من الكلمات) للتواصل خلال اليوم.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) :

دروس نبذة الصوت

في السلسلة التالية: اجعل الكبار والأطفال يأخذون أدواراً كمتحدثين وكمفسرين.

- اصنع جملة «أنا لا أريد أن أذهب»، قلها بأكبر عدد ممكن من النبرات لتغيّر معناها ثم خَمِّن ماذا تعني: الإيحاء بالسخرية، بالانزعاج، الحماس، القلق، الخوف، الغضب وأكثر، تكلم عن كيف تحكي نبذة قصة ونبذة أخرى تحكي قصةً أخرى.
- ابدأ في التحليل: هل تغيّر ارتفاع الصوت وانخفاضه؟ هل هناك

أي كلمة يُبالغ فيها؟ هل بالغت في نطق كلمة أخرى، هل هذا يُغيّر المعنى؟
جرب!

حادو الذكاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا) : جرب قواعد الإملاء لنظام كتابة مختلف

هدف هذه التجربة هو ببساطة إدراك أن اللغة أصبحت لها نسخ كثيرة مصنوعة من طرق كثيرة، وأنه لم تعد هناك طريقة واحدة صحيحة (هذا درس أساسي في إدراك التنوع على مستوى كوني).

- باستخدام ترجمة جوجل، خذ جملة إنجليزية وترجمها إلى لغة أخرى تستخدم نفس الأبجدية كالهولندية، انسخها الآن أنت وأبناؤك بخط اليد، اطلب من أطفالك أن يلاحظوا مدى التركيز الذي يضعونه في كتابة الجملة الهولندية مقارنة بالإنجليزية.

- جرب أبجدية مختلفة كالروسية أو الهندية، ترجم نفس الجملة إلى الرموز الصينية، ما مدى ازدياد صعوبة المهمة؟ ما الذي لا نعرفه عن كيفية كتابة الحروف الهندية والرموز الصينية؟ ما الاستراتيجيات التي استخدمها أبناؤك؟ ما الذي ساعدهم؟ وما الذي لم يساعدهم؟

- شاهد مقطع يوتيوب عن كيفية الكتابة بتلك اللغات لتقارن.

- جرب أن تكتب بالإنجليزية من اليمين إلى اليسار، أو من الأسفل إلى الأعلى. كيف بدت؟ ما الأصعب في قراءته؟

- هل يتغيّر أي شيء في كيفية فهمك لما تقرأ؟ هل تبرز كلمة؟ هل يتغير مدى أهمية مفهوم ما؟

حَادُّو الذِّكَاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عاماً) :
صِف الحياة البرية في باحة منزلك أو في حديقة مجاورة
أو في بركة سباحة

عالم النبات روبين كيمرر يلاحظ أن الأطفال قادرون على التعرف على أكثر من مائة شعار لشركات عالمية، وأقل من خمسة نباتات، دعونا نصلح ذلك!

- أحضر دليلًا ميدانيًا وانطلق! صِف العالم خارج حدود بابك.
- تعلّم التفريق بين أنواع الأشجار والطحالب والطيور والورود.
- احتفظ بهذه الفروقات مكتوبة في دفتر ملاحظات.
- نصيحة خبير: التقط صورة وانسخ المعلومات من الدليل الميداني.
- هل حدّد طفلك هدفًا ما، كم عدد الأنواع التي سيتعلم طفلك التعرف عليها في كل تصنيف؟

حَادُّو الذِّكَاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عاماً) :

اصنع بركة من كلمات لغة تخصص ما

كُن دقيقًا في هذا التمرين، سواء كان: تسلق جبال داخليًا، مكرمية، هيب-هوب، فيزياء الطيران، أو برمجة الحاسوب، أيًا كان المجال

المرتبطة به المصطلحات. جرّب موضوعاً يخصّ هذه المجموعة من التخصصات (العلوم، التكنولوجيا، الهندسة، الفن، الرياضيات).

- اختر موضوعاً أو اهتماماً ما، اجمع المصطلحات له لمدة أسبوع، اكتبها على سبورة بيضاء في أثناء تجميعك لها.

- قسّمها حسب التصنيف: أشياء، أفعال، معدات، أماكن، شخصيات مشهورة، مهارات، مصطلحات دارجة، وهكذا.

- لاحظ المصطلحات الحصرية لمجالٍ معين، ولاحظ أن هناك مصطلحات يمكن استخدام معناها لوصف أنشطة أخرى في سياقات أخرى (على سبيل المثال: مصطلح «السرج» له استخدامات أخرى في مجال تسلُّق الصخور غير استخدامه مع الأحصنة).

- ابحث أونلاين: أدخل الموضوع ومعه كلمة «مفردات» لترى عدد المصطلحات التي ستظهر لك.

- كلما ازدادت حصيلة مفردات الأطفال وخلفيتهم المعرفية في أي مجال، أصبحوا قراء أفضل، المفردات الدقيقة وفك التشفير السليم للرموز واللغة هما ما يسمح للإنسان بأن يكون واعياً في أثناء تكوينه للرأي. حين تقرأ عن موضوع مع أطفالك، أعطهم مساقاً مكثفاً في موضوع متعلق بالمفردات قبل القراءة لتعدهم للتفكير جيداً، بالنسبة إلى المراهقين بمجرد أن تحصل على فرصة استكشاف المفردات الخاصة بمجال ما كهواية، جرّب نفس النشاط على قضية اجتماعية.

نشاط ٢ : مكتبت التنوع

وَضَّحت، في مقدمة الفصل، أن القراءة تقع تحت سيطرتنا، يمكننا أن نستخرج كثيرًا مما نقرأه، وأن نختار كيف نتأثر به، يمكننا تجاهل رسالة الكاتب من دون تفكير ثانٍ، إحدى الطرائق التي نتحكم من خلالها فيما نقرأه هي تحديد المصادر التي نطلع عليها لتقتصر على المصادر التي تعجبنا وتروق لطريقتنا في التفكير، على سبيل المثال: إن كنت شخصًا يحب الأدب التاريخي (ومن منّا لا يحبه؟)، فربما لا تكون اكتسبت عادة فصل الحقائق عن سياقها الرومانسي. يتعامل الأدب التاريخي بحرية مع تسجيلات التاريخ من أجل صالح القصة، وهذا لا ضرر منه بما أنه خيال أدبي، ولكن إن كانت تلك الطريقة الوحيدة التي تتعلم بها التاريخ، فقد تُضللّ تجاه تحريفات في الحقائق. وبالمثل إن اعتدت قراءة السير الذاتية لتتعلم عن حقبة تاريخية معينة، فربما ستشعر بألفة زائدة مع صوت شخصية شهيرة معينة (شخصية تاريخية أو سياسي معروف) من دون أن تدرك تأثير سياسات هذه الشخصية في المواطن عامةً أو في ضحايا قراراته التشريعية والعسكرية. على نحو طبيعي من الصعب أن تجد وجهة نظر شخصية عامة مكتوبة بوضوح في سجلات التاريخ، كيف لنا أن نتوسع في فهم هذا الأمر إن كانت مصادرها محدودة؟ يمكن للقراء أن يقرأوا خلال التصنيفات المتعددة لمزيد من التبصّر بدءًا من دخولهم الصف السابع، في مجال التاريخ

على سبيل المثال، فإن هذا يعني الاستقاء من نطاق أوسع من المصادر لتفهم الحقبة. من ضمن ذلك، المصادر الأولية كالوثائق والرسائل والأوراق القانونية والسجلات المعاصرة لهذه الحقبة، ربما سيحتاج الأمر إلى النظر في مجالات أخرى كالكتابات الدينية، والمذكرات، والأدب، والنقد التاريخي، والتقارير الإخبارية، وأطروحات خبراء المجال، وإعلانات من تلك الفترة الزمنية، وسجلات حفرة، وشعر، وأغانٍ، وكلمات، والآثار الفنية؛ يمكن جميعها أن تساهم في تغطية تلك الفجوة أيضًا.

تجربة واحدة مع كاتب واحد في تصنيف معين لن تكون قادرة على مساعدتنا في تكوين فهم متكامل لقضية ما، وبالمناسبة، هذه مشكلة في عصر الإنترنت، نحن نريد إجابات سريعة، ونعتمد طوال الوقت على مصدر واحد نستخدمه مرارًا وتكرارًا، كالمواقع الإخبارية، والمدونات، والشهادات الشخصية على السوشيال ميديا، ويكيبيديا، واليوتيوب، لكن إن كنّا واعين لاستكشاف نفس الأفكار مكتوبة بأشكال مختلفة، فسنحصل على صورة أكثر كمالًا، على سبيل المثال، قراءة تسجيل حكومي لحدث ما ثم قراءة تقرير صحفي متبوعٍ بشهادات لشهود عيان هو ما سيساعدك غالبًا على تكوين فهم واقعي للتبعات السياسية، أكثر من قراءة الخبر الصحفي تلو الخبر الصحفي من نفس وجهة النظر. الشعر، والقصص، والأغانى، تكوّن تجربة متكاملة للحدث التاريخي أيضًا، على سبيل المثال، الحكايات الطويلة وقصص المخيمات كانتا تعبيرًا عن فلكلور الجانب الغربي من الولايات المتحدة.

بالكاد القراءة حول بناء طريق السكة الحديد من دون الاطلاع على هذه الأعمال الأدبية لن يكون لك سوى انطباعٍ ضحلٍ عن التاريخ، تخيل كم هو مُرضٍ أن تغمر نفسك بالمصادر وبأشكال المعلومات المختلفة! إنها بالطبع إحدى مباحج التوسع في القراءة.

دعونا نأخذ مثالاً معاصراً، ما الطرق التي نتعلم بها عن حرائق الغابات تاريخياً في الغرب خلال القرن الحادي والعشرين؟ قد تصفح السوشيال ميديا طوال اليوم ونقرأ التغريدات، وقد نحدد مصادرنا على قناة تلفزيونية واحدة أو مصدر واحد على الإنترنت، قد نقرأ شهادات شخصية من إيميلات أقاربنا، أيّا كان الهدف هو استيعاب عدد متنوع من وجهات النظر التي تتضمن كل التفاصيل الواقعية (كيف بدأ الحريق؟ أين يشتعل؟ كيف تعاملت معه المطافي؟ أين تذهب إن فقدت منزلك؟ ماذا تفعل الحكومة مع الأزمة؟)، والقصص الشخصية (كيف يؤثر الحريق في الأفراد، التقارير الأولية من قوات الإطفاء، توصيفات الصدمة من عمال المستشفيات الذين يعتنون بالمرضى، وهكذا). قراءة التفاصيل الواقعية من مصادر متعددة مع الاطلاع على تجارب شخصية متعددة هما ما يؤديان إلى تكوين صورة أكمل عن تأثير حرائق الغابات. نريد أن نعلّم أطفالنا معرفة أنهم يحتاجون إلى مزيد من المعلومات، وأن يتحلّوا بالصبر في البحث عنها، وأن يستخدموها في أثناء تحليلهم، أحد مشروعات الكتابة للأطفال التي أدّرسها هي صناعة «كتاب صغير» يركز على موضوعٍ واحدٍ، كأسماء القرش ثم أقترح أن يجمع الطفل المعلومات من مصادر متنوعة ليستطيع تكوين صورة ثرية: حقائق عن

أسماء القرش، ونكات، وشعر، وتعليقات خبراء، ومقولة، ومعلومات علمية، وأي تجربة شخصية تعرض محتوى، ورسومات، وخرائط، وصور فوتوجرافية وأي تفاصيل إضافية. هذا النوع من المشروعات يعلم الأطفال في سن مبكرة أن هناك كثيرًا من الأماكن الجديرة بالنظر فيها حين ترغب في التبحر في حقل معرفي معين. النشاط التالي سيساعد طفلك على تنمية هذه المهارات، في كل قراءتنا نود أن نخلق «مكتبة من التنوع»، يمكن التعبير عن التنوع بطريقتين، أولاً التصنيف، ثانياً التمثيل، كلا الجانبين من مكتبة التنوع يمكن تحقيقه لجميع أعمار الأطفال والمراهقين.

مكتبة التنوع: التصنيف

ما الذي يجعل من نص ما حكاية خرافية وليس تقريراً؟ ما الفرق بين القصيدة والحوار؟ كيف نتعرف على مقال إخباري قدّمه لنا صحفي في مقابل مقال رأي؟ كم عدد الأساليب المختلفة التي يمكن بها كتابة نفس الموضوع؟ ما الاختلافات بينها؟ التعرف على تصنيف القطعة المكتوبة إحدى خطوات مهمة التفكير النقدي، معرفة صفاته تساعد القارئ على فهم مهمة الكاتب.

تعليمات:

اجمع عشرة أمثلة من تصنيفات كتابة مختلفة، ارجع إلى القائمة المكوّنة من خمسة وعشرين عنواناً هنا إن كنت في حاجة إلى المساعدة في التفكير لإيجاد عشرة تصنيفات، (نصيحة محترف: ربما ستحتاج

إلى الحصول على كتب من مكتبة إن لم يكن لديك عددٌ متنوعٌ في المنزل، اطبع مقالات من على الإنترنت).

- كتاب صور.
- أدب.
- أدب تاريخي.
- خيال.
- كتب غير أدبية.
- دليل ميداني.
- شعر.
- رسائل.
- خرافات.
- حكاية أسطورية.
- حكاية طويلة.
- حكاية شعبية.
- نص مقدس (الإنجيل، التوراة، القرآن، إلخ).
- جريدة إخبارية.
- مقال مجلة.
- موسوعة.

- ألعاب.
- كتاب مصور.
- سيرة ذاتية.
- مراجعة.
- أسطورة.
- مذكرات.
- كتاب أكاديمي.
- خطاب.
- كلمات أغنية.
- جمّعها (ما اخترته من كتب ومقالات)، ثم استخدم ورقة واحدة لكل تصنيف وُضِعَ اسم كل تصنيف أعلى كل ورقة، أجب عن الأسئلة التالية وُضِعَ ملاحظاتك على الورقة الصحيحة، هذا المشروع قد يتطلب عدة أيام.

١. ماذا يوجد على الغلاف؟

صور؟ تصاميم مجردة؟ بأي ألوان؟ ما انطباعك؟ هل تتوقع أن تتسلى أم أن يتم إخبارك بمعلومات مهمة؟

٢. لاحظ أنواع الخطوط؟ صغيرة أم كبيرة؟ هل هي جزء من التصميم أم لا؟ هل هناك أكثر من خطٍّ مستخدم؟ ما أكبر خط مستخدم؟ (الخط المستخدم لكتابة اسم الكاتب أم العنوان؟)

هل يمكن أن تخمن عن ماذا يتحدث الكتاب من عنوانه؟
هل قرأت أي شيء لنفس الكاتب من قبل؟ ما التوقعات التي
تملكها عن الكتاب بناءً على العنوان أو اسم الكاتب أو شكل
الغلاف؟

٣. افتح على منتصف أول صفحة في كل كتاب، اقرأ كل صفحة
جهرًا على حدة، ادعُ أبناءك للقراءة والمقارنة.

٤. كيف تبدأ كل صفحة؟ خلفيتها؟ معلوماتها؟ حوارها؟
معلوماتها الواقعية؟ كلمات أغانيها؟ أي صفحة استحوذت
على انتباهك أكثر؟ وأيها أقل؟

٥. أي التصنيفات نصّها أقصر؟ لماذا؟ لاحظ سُمك الكتب ثم عد
الصفحات، رتبها من الأقصر إلى الأطول ثم حدّد أي الكتب بها
كم المعلومات الأكبر، هل تعرّفت على أي شيء فاجأك؟

٦. هل المحتوى يحكي قصة أم يخبر بمعلومات؟ هل يمكن أن
تحدد؟

ثم حدّد كتابين من تصنيفين مختلفين، دعونا نتعرف على إيقاع
اللغة في كلّ منهما.

١. انسخ صفحة أو اثنتين من كل كتاب.

٢. اقرأها جهرًا في حين يتابع أطفالك النص.

٣. اطرح تلك الأسئلة حول كل نص، هل اللغة رسمية أم غير
رسمية؟

٤. هل هناك سجع أم لا؟ هل المعلومات واقعية؟ هل هناك صيغة إقناع أم شرح؟ هل الخطاب رسمي أم شخصي؟ استخدم الرياضيات (يمكنك أن تصنع جدولاً أو ورقة عمل إن كان هذا سيساعدك)، كم عدد الكلمات في كل فقرة أو مقطع؟ احسب متوسط عدد الكلمات في كل صفحة، ما طول متوسط الكلمة؟ كم عدد الكلمات الوصفية في الفقرة الواحدة؟ كم عدد الكلمات التي تزيد أحرفها على ستة أحرف؟ كم عدد الكلمات الجديدة على طفلك؟ وما تلك الكلمات؟

٥. اصنع قائمة من كل الأفعال في الفقرة الواحدة، قسّمها إلى أفعال يمكن أن تقوم بها بجسمك بالمقارنة، وأفعال أخرى تتعلق بطرائق التفكير والتلقي، أيّ التصنيفين به أفعال أكثر؟

٦. من الشخصيات في هذه النوعية من الكتابة؟ البشر؟ الحيوانات؟ الآثار؟ الإحصائيات؟ الوكالات؟ الخبراء؟ الناس في الحياة اليومية؟ الشخصيات التاريخية؟ التفاصيل العلمية؟ المعلومات؟ الرياضيون؟ الأطفال أم الكبار؟

٧. ما غرض النوعية الأولى؟ وما غرض الثانية؟ أيهما تفضّل أن تقرأ من أجل المتعة؟ وأيهما من أجل المعلومات؟ ولماذا؟

٨. لاحظ علامات الترقيم، ما العلامات الأكثر استخداماً؟ هل هناك علامات مفقودة؟ إن كنت تقرأ شعراً، فهل يعتني الكاتب بعلامات الترقيم؟ كيف يؤثر غياب العلامات في كيفية قراءتك؟

٩. هل يسرد الكاتب بطريقة الشخص الأول أم بطريقة سرد أخرى؟
هل سيرة الكاتب الذاتية لها أي علاقة بالموضوع؟ هل هناك ما
يدعم قدرة هذا الكاتب على سرد تلك القصة أو هذه القصيدة
في هذا الموضوع بالتحديد؟

١٠. ماذا كان غرض الكاتب في ظنك؟ الكوميديا؟ التسلية؟
المعلوماتية؟ الإقناع أم الوصف؟

يمكن لأطفالك أن يطرحوا بعض الأسئلة ليدفعوك إلى القيام
ببعض الاصطياد أيضاً، قد يسألون: كم عدد الكلمات التي تبدأ بالحرف
باء؟ كم عدد الجمل في كل فقرة؟ قد تلاحظ سريعاً أن القواعد القديمة
(مثلاً أن الفقرة تحتوي على ٤ جمل) كُسِرت، وأن ضمائر المذكر التي
يستخدمها الكاتب أصبح يشير بها إلى الجميع.

حين ننظر من كتب ونطرح الأسئلة سنكتشف ما يوجد في الحقيقة
بدلاً مما كنا نريد من أطفالنا أن يجدوه.

إحدى الطرائق التي يمكن بها تنمية إحساس الطالب بالألفة مع
تصنيفات الكتابة المختلفة هي طرح اختيارات متعددة خلال قراءاتكم
اليومية، اختر قصيدة أو حكاية طويلة لتبدأ بها ثم اتبعها ببعض من
الكتب غير الأدبية، اقرأ مقالاً إخبارياً عن موضوع يشغل الرأي العام
حالياً، ثم اقرأ فصلاً من رواية، نوع المصادر كل يوم لتعطي طفلك عدداً
كبيراً من تصنيفات الكتابة ليستمتع بها ثم ليحاكيها.

مكتبة التنوع: التمثيل

السمة التالية من سمات مكتبة التنوع هي ما نسميه بـ«التمثيل»، كلٌّ من عائلتنا فريدة بشكل خاص: الإرث الثقافي، اختلافات التعلم، المعتقدات الروحانية والسياسية، الزواج أو عدم الزواج، التبني، الولادات، مع عوامل كثيرة أخرى هي ما تشكّل النسيج الحي للعائلة. في النهاية لا توجد عائلتان متماثلتان، رغم ذلك فإن، لأغلب مدة القرن العشرين، كتب الأطفال بالإنجليزية كانت تعرض الثقافة الغالبة، بل وكانت تكتبها الثقافة الغالبة.

حاليًا أحد أهم التوجهات الرائجة في مجال النشر هو إعطاء الأولوية لما يسمى بكتب «أصواتنا نحن»، في عام ٢٠١٥ أطلقت مؤلفة كتب اليافعين، كورين دوبيس، هاشتاج #أصواتنا-نحن على تويتر، لتشير به إلى الكتّاب من الجماعات الأقل تمثيلًا في سوق النشر، الذين يستخدمون تجاربهم الشخصية لينطلقوا منها في الكتابة:

([https:// www.readbrightly.com/ why we need- diverse- lit/](https://www.readbrightly.com/why-we-need-diverse-lit/)).

على سبيل المثال، بدلًا من قراءة كتاب لمؤلف أمريكي أبيض يكتب عن تاريخ سكان أمريكا الأصليين، تقترح كورين أن على الأطفال أن يطلّعوا على كتابٍ ألّفه بالفعل كاتبٌ من سكان أمريكا الأصليين، «أصواتنا نحن» أصبحت تشكّل حراكًا ديناميكيًا في عالم الأدب، اللغة الثرية تمثّل رؤية متبصرة للعادات والتقاليد ووصفًا للأثر العاطفي الناتج عن الأحداث التاريخية والذي عبّر عنه الناس الذين عاشوا في قلب هذه

التجارب. «أصواتنا نحن» في النشر تعبر عن الفرق بين «التعلم عن» و«التعلم من»، هناك تشبيه قد يساعد: بدلاً من قراءة دليل سفر كتبه ناس لم يعيشوا تجارب أصيلة في المكان الذي تريد التعلم منه، ستختار أن تتعلم من شخص نشأ في المكان الذي تريد أن تسافر إليه.

الكتاب الجدد حالياً يوسعون كيفية تلقينا للغة الإنجليزية (من حيث الإيقاع والمفردات والفروقات الطفيفة) وكيفية إحساسنا بالاتصال مع بشر قد نكون عرفناهم لكن من دون أن نفهمهم، إنهم أيضاً يعرضون لنا نماذج يُحتذى بها من المجتمعات التي ينتمون إليها والتي تمثل قيم مجتمعاتهم وتجاربهم ومعتقداتهم، وفي المقابل أيضاً يعرضون رؤيتهم حول تاريخنا المشترك. تنوع وجهات النظر يولد تبصرات مدهشة أيضاً. لتنشئ مفكرين ناقدين ابحت دائماً عن مزيد لتفكر فيه ومزيد لتضعه في اعتبارك، تلك هي بعض الأسئلة المفيدة التي قد تطرحها على نفسك:

- حين أنظر إلى رفوف مكتبتنا، ما العالم الذي أراه منعكساً على اختياراتنا في الكتب؟

- أي الكتب تعكس تجاربنا لأطفالنا؟

- أي الكتب تساعد طفلي على التعلم عن خبرات مختلفة لخبراتنا؟

- هل أضفت كتباً تستكشف الموسيقى، والعلوم، والتاريخ، والجغرافيا، والطعام، والرياضيات، والفن؟

- هل لديّ كتب مكتوبة بناءً على أبحاث بالإضافة إلى كتب مبنية على تجارب شخصية؟

ملاحظة: لا الأبحاث ولا التجارب الأصلية تلقائياً تؤهل الكتاب أو لا تؤهله للثقة به، من المهم قراءة مراجعات ممن ينتمون إلى مجتمعه، ومعرفة كيف استقبل الكتاب، في الواقع، مَنْ مثّلوا داخله؟ هل كان دقيقاً في رسم صورة عن هذا المجتمع وزمنه؟

- هل هناك كتب بديلة مثّلت هذا المجتمع/الحدث/الحقبة بشكل أفضل؟

- هل هناك تشكيلة من الكتاب (من حيث الجنس، الجنسية، العرق، القدرات، الحالة المادية الاجتماعية، التوجهات السياسية وهكذا)؟

- هل هناك خليط من الشخصيات الرئيسية.

- هل هناك خليط من وجهات النظر (التاريخية، الشخصية، الإحصائية، التحريرية، الفنية، الواقعية)؟

عن طريق صناعة مكتبة متنوعة في التصنيف والتمثيل ستثري تربة الفهم للطلاب، والقراءة بقربٍ وذاتية ستعزز تفكيرهم الناقد، سيجمع طفلك مجموعة أدوات أفضل لاستخدامها في فك شفرات المعلومات، وفصل الحقائق عن رواياتها ووضع تجربة الكاتب في عين الاعتبار كأحد مصادر السلطة على الموضوع المكتوب، في الفصل التالي سنتحدث عن كيفية قراءة هذه الكتب بعمق.

الفصل الثامن

القراءة - تحرك ببطء لكي تصل إلى الأعماق

«بينما نتعمق أكثر داخل تبصراتنا، نصل أحياناً إلى معتقدات تتجاوز أي معلومات أعطاها الكاتب لنا، هذه التبصرات تعمل كأساسٍ للأفكار الجديدة التي لم تكن موجودة قبل وجودنا، بل وربما قبل وجود أي أحد. في الأساس نحن نتحرك في أثناء قراءتنا الخبيرة، بدءاً من السطح وصولاً إلى أعماق مستويات التفكير».

ماريان وولف

لا يمكنني تخيل الحياة من دون كتب، ما يبدو لي أنه قد يكون صنفاً من التعذيب أن تعيش في زمن لا توجد به متعة الانعزال مع انحناء الظهر والنظر إلى الأسفل والتكوم جانباً مع كاتبٍ سيأخذك معه في رحلته الخاصة. رغم ذلك فإن القراءة كما نستمتع بها (أن نقرأ لأنفسنا في صمت) قد ظهرت متأخراً في مشهد الوجود الإنساني، معظم البشر في معظم الأزمان لم يتمكنوا من تقليب صفحات كتاب للتوحد مع ما

يكشفه كاتبه سواء كانت رواية رومانسية أو شرحاً دقيقاً لكيفية دوران الكواكب حول الشمس.

الحكي الشفهي للقصص حول نار المخيم والمناظرات في الساحات العامة هما ما ظهرأ أولاً، إنهما ممارستا التواصل العتيقتان المعروفتان، واللتان وُجدتا في المجتمعات الإنسانية في كل مخبأ وزاوية على كوكبنا.

لكن القراءة والكتابة جديدتان وفقاً لهذا المقياس، رغم ذلك، هل كنت تعرف أن الجميع لم يرهما كهبتين لمسيرة تطورنا كبشر؟ أفلاطون في كتابه «فيدروس» يسجل الحوارات التي تمت بين سقراط ومريديه، سقراط يحذر فيها من الكتابة بطريقة تشبه طريقة تحذير معظم آباء اليوم لأبنائهم من ألعاب الفيديو: «احذر! هناك خطر قادم! هذا سيفسد دماغك!»، وهذا ما قاله سقراط: «اكتشافكم هذا (الكتابة) سيخلق حالة من النسيان داخل أرواح المتعلمين لأنهم لن يستخدموا ذاكرتهم، سيثقون بالمصادر الخارجية المكتوبة ولن يتذكروا بأنفسهم، سيصبحون مستمعين لكثير من دون أن يتعلموا منه شيئاً، سيبدون كما لو كانوا يعرفون كل شيء وهم لا يعرفون في الواقع أي شيء، ستصبح رفقتهم متعبة، لأنهم سيملكون مظهر الحكمة من دون جوهرها».

بوم! سقط المايك من يدي يا سقراط! هل يمكنكم تخيل رد فعله إن رأى الفيسبوك؟ «مستمعين لكثير من دون أن يتعلموا منه شيئاً، سيبدون كما لو كانوا يعرفون كل شيء وهم لا يعرفون في الواقع أي شيء، ستصبح رفقتهم متعبة...»، أرتجف الآن عند قراءة هذا، هل أساهم الآن

في «استعراض الحكمة من دون جوهرها» بتألفي لهذا الكتاب؟ الثقافة الشفهية كان محتفى بها لأجل حيويتها وتجدها، ولأنها كانت تبني الحكمة كمشروع مجتمعي ومن أجل صالح المجتمعات. الثقافات الأصلية ما زالت مستمرة في تقدير عاداتها الشفهية لأن ذلك هو ما يعيد تنشيط لغاتها العتيقة، ويعيد تذكيرهم بالهوية المشتركة، ويحافظ على الروابط المجتمعية، وهذا يشبه ما فعله الإنترنت في مشروع القراءة الجماعية وتكوين المجتمعات؛ هناك حيوية وتجدد في التدوين والكتابة على السوشال ميديا والتعليق على المقالات الإخبارية ومساحات النقاش وغرف المحادثات الفعالة والمثيرة. هل نرى الآن مزيجاً من الحالتين؟ حالة القراءة الفعالة والتفكير المندفع في هذا العصر الشجاع الجديد، يمكن تسميتها بحالة «التركيز الموزع»؟

العقل المشغول

قديمًا في أول الزمان، كان من الضروري للنجاة في هذا العالم العدائي أن يعتمد البشر على تعويد خلاياهم العصبية على ما يُسمّى بـ«التركيز الموزع»، يتأقلم المخ على توزيع تركيزه ليعرف كيف يهرب من المخاطر باستمرار، ليكون في حالة تنبه دائمة ليحمي نفسه في أثناء قيامه بعدة مهام على التوازي. حفيف في الأشجار أو صوت زئير بعيد أو تغير بسيط في درجة الحرارة أو أي أشياء من هذا القبيل ستعمل كنقرات للتنبيه أن لدينا بيانات لفحصها ونتعامل معها في الحال لنبقى آمنين. ثقافتنا الشفهية المتجددة هي انعكاس لهذا النمط من التركيز،

التقاليد الشفهية يُعاد تشكيلها باستمرار استجابة للحظة الحالية، يتدرَّب أعضاء المجتمع على قصتهم المشتركة، ويعبِّرون عنها بطريقتهم الخاصة، ليقوموا بتعديلاتهم وتوسيعاتهم في السرديات، وليضيفوا التقاليد والطقوس الجديدة، وليرسخوا المعنى الذي أنتجته الجماعة وليرفعوا من قيمة حفظه.

بينما كانت اللغة الشفهية تشق طريقها داخل عالم الكلمة المكتوبة (سواء كانت تُرسم على جدران الكهوف أو تُكتب على البردي أو تُحوَّل إلى مخطوطات)، جُمعت القصص والتواريخ داخل سرديات واحدة. المخطوطات الناتجة عن ذلك كانت تُقرأ باستمرار كتلاوات في المجموعات القرائية (في الكنائس أو ساحات المدن)، في الواقع حتى المتعلمون الذين كانت لديهم ميزة استطاعة أن يقرأوا لأنفسهم في صمتٍ، كانوا يقرأونها جهرياً لأنفسهم، القديس أوغسطين في العام ٣٨٠ بعد الميلاد أظهر اندهاشاً حقيقياً حين رأى القديس أمبروز يقرأ لنفسه في صمتٍ (من دون حتى أن يحرك شفثيه!)، بينما ازدادت شعبية الكتابة كطريقة لتسجيل المعلومات وتحويلها، بحلول العصور الوسطى كان كثير من الناس الذين لا ينتمون إلى طبقات النخبة باستطاعتهم القراءة. بدأ استخدام القراءة كأداة خاصة لتوجيه النفس وحفظ التسجيلات بدلاً من الاعتماد على الأداء الإرشادي لقادة المجتمعات.

اتخذت اللغة أشكالاً جديدة أيضاً، أُضيفت المسافات بين الكلمات وعلامات الترقيم، يمكن للكُتَّاب الآن أن يحرِّروا كتابتهم، مما مكَّن الكُتَّاب من تقديم حجج أفضل وأكثر تفصيلية وتعقيداً، بدأت

القراءة والكتابة بتحويل الكيفية التي يفكر بها البشر.

احتاج الناس إلى وقتٍ وحدهم ليقروا حول فكرة وليتأملوا فيها وليربطوها بفكرة أخرى، كان هناك تحوُّل جذري على وشك الحدوث في دماغنا من حالة توزيع التركيز إلى حالة العمق في التركيز. كاثرين هيلز، أستاذة اللغة الإنجليزية في جامعة كاليفورنيا، تصف جيدًا هاتين الحاليتين من التركيز: «حالة التركيز العميق رائعة لحل المشكلات المعقدة التي تأتينا من مصدر معين، لكنها تتحقق على حساب التيقظ البيئي ومرونة الاستجابة. التركيز الموزع يتفوق في التفاوض السريع مع البيئة المتغيرة التي تنافس فيها بؤر عديدة على انتباهك، عيها هو عدم الصبر على التركيز لمددٍ طويلة على شيء غير تفاعلي كرواية من الحقبة الفيكتورية أو عملية حسابية معقدة».

الصحافة المطبوعة تفجرت في المشهد في القرن الخامس عشر، وحفّزت العقل على الدخول في حالة التركيز العميق، «تطوّر المعرفة أصبح يتزايد في كونه فعلاً شخصياً؛ أصبح كل قارئٍ يكوّن عقله الخاص وفهمه الخاص للمعلومات والأفكار المنقولة له من خلال كتابة مفكرين آخرين». هذه القدرة على القراءة المنفردة، وعلى الجلوس مع الأفكار واستخلاص الاستنتاجات منها بدّلت جذرياً تصورنا عن التعليم. كان منتظرًا من التلاميذ أن يجعلوا التعليم ذا معنى لهم عبر التفاعل بطريقة التركيز العميق، مؤسساتنا الأكاديمية تبنّت أسلوب «التركيز العميق». أدركت هيلز رواج هذه الفكرة: «في سياقٍ تطوري، لا شك أن التركيز الموزع تطور أولاً، أما التركيز العميق فهو رفاهية نسبية، لأنه يحتاج

إلى بيئة جماعية لا يحتاج فيها المرء إلى أن يبقى طوال الوقت متيقظاً للخطر». مع وضع هذا في الاعتبار بنينا مدارسنا ومكتباتنا لتوفر الهدوء والمساحات الخاصة المحمية من الضوضاء والمقاطعات، والتي تسمح بالتركيز في أثناء القراءة، ودربنا معلمينا على الإيمان بتعلم التركيز العميق كعادة مفتاحية للطلاب النابه. رغم ذلك، ففي أثناء الممارسة غالباً ما يتم التركيز على الهدوء أكثر من العمق، غالباً ما ينتظر الآباء من أبنائهم أن يجلسوا هادئين في أثناء حل واجباتهم ليثبتوا أنهم في حالة تركيزٍ عميقٍ.

وها نحن ذا في القرن الحادي والعشرين وهناك تغير جذري جديد في طريقه للحدوث، بوجود الإنترنت على هواتفنا أُلقي بنا إلى الوراء مجدداً لنكتسب عادات الماضي: التركيز الموزع، هذا الاحتياج البدائي إلى مراقبة البيئة ولتبقى منتبهاً للاقتحامات، قد عاد لينتقم، الخوف من تفويت الفرص أصبح حقيقياً! ربما لن يقاطعنا خنزير على وشك أن ينطحنا، لكن - لا سمح الله - قد يفوتنا تعليق على إنستجرام! النقاط الحمراء، وأصوات التنبيهات والاهتزازات على هواتفنا، تجذب انتباه أعيننا أو آذاننا أو تهتز داخل جيوبنا، نشعر بأننا مجبرون على مقاطعة أنفسنا، إنها برمجة قديمة، موغلة في القدم، لكن يجب عليك أن تعرف أن شركات التكنولوجيا سعيدة باستغلالها.

شركات السوشيال ميديا كالفيسبوك تصمم منصاتها لتضع عليك أكبر ضغط لتبقى أونلاين، «السمات التي تبدو غير مؤذية...»: تفاعلات الإعجاب والحب التي ترسل إليك العاطفة والتقدير، زر السحب الذي

يجدد الشاشة بمعلومات جديدة، الشريط الذي يرصد تفاعلاتك مع الأصدقاء، التمرير اللانهائي للأشياء، جميعها تنويعات على تقنيات التلاعب النفسي الذي ابتدعها مخترعو ماكينات المقامرة. إنهم يعطون وعودًا بمكافآت عاطفية واجتماعية ثم يعطون هذه الجوائز بطريقة غير متوقعة: «تبعات هذا الضغط الخوارزمي هي أننا أصبحنا مدربين على القراءة بسرعة والتفاعل بسرعة من دون تفكير، طوال اليوم وكل يوم، مُفعّلين حالة التوزيع والتنبه الدائم في أدمغتنا. ادمج هذا الضغط على التفاعل سريعًا مع ذاكرتنا حول اختبارات الاختيار من متعدد، مع ضغطه الزمني على اختيار الإجابة الصحيحة، وستبدأ في رؤية لماذا كثير منا مهووس بالاستجابة سريعًا لكل تغريدة وتحديث فيسبوك في الحال، معلنين أننا دائمًا في المكان الصحيح!».

لكن نوعية القراءة التي تمكّن من التفكير النقدي تحتاج إلى العمق، وهذه هي نوعية القراءة التي لم نعد نقوم بها بسهولة، لأن هواتفنا الذكية حرفيًا تعيد تشكيل وصلات الأعصاب داخل عقولنا، يؤكد ذلك نيكولاس كار في كتابه «السطحيون»، ما يفعله الإنترنت في عقولنا هو: «كمجتمع أصبحنا نكرس وقتًا أقل لقراءة الكلمات المطبوعة، وحتى حين نقرأها فإننا نفعل ذلك خلال زحام الإنترنت المتعجل»، بعد أكثر من مائة صفحة من البيانات والأبحاث في كتابه يشرح كار: «هناك شيء معين واضح جدًا، إن كنت على وشك اختراع وسيط سيعيد هيكلة دوائرنا العصبية بأقصى سرعة وكفاءة ممكنة مع معرفة ما نعرفه اليوم عن مرونة الدماغ العصبية، فغالبًا سينتهي بك الأمر بتصميم ما يشبه الإنترنت».

أنا لا أعلم عنك كثيرًا، لكن أنا قارئة مشتتة في البيئة الرقمية الحالية،
أتنقل بين المقالات (ممررة عيني على المحتوى) باحثة عما أتمنى أن
أجده، وهذا يحدث لمرات أكثر مما أريد أن أعترف بها، أعامل نسخي
المطبوعة من الكتب كالمواقع الإلكترونية، أقلب صفحاتها، أتجاوز
معظم المحتوى حتى أجد ما يخطف انتباهي، بدلًا من أترك الكاتب
يشرح حجته للنهاية عن طريق الفصل تلو الفصل بالترتيب، أبقى نحو
من ثلاث إلى خمس دقائق على الموقع قبل أن أضغط رابطاً آخر يقودني
إلى موقع آخر، إنني أعيش على نظام الوجبات المعلوماتية السريعة
لأكثر من عشرة أعوام.

وهذا يسبّب لي المشكلات الآن، تصف إخصائية علاج التخاطب
ريتا تشيفاتسو هذا النمط من القراءة بـ«التسنجب» (من السنجاب).
أعيننا وانتباهنا يقفران داخل الصفحة، باحثين عن قضمات من
المعلومات ليمضغها سريعًا، بدلًا من متابعة النص وقراءته بحرصٍ.

خبيرة التعلم الشهيرة ماريان وولف تدرس هذا التحول في طريقة
قراءتنا، وما يعجبني في وجهة نظرها أنها لا تصمنا بسبب طريقة تغيير
الإنترنت لعاداتنا في القراءة، بدلًا من ذلك فهي مهتمة بكيفية تطوير كل
من تعلمنا من الكتب وتصفحنا الرقمي، تقترح وولف أنه بحلول الصف
الرابع يمكن أن يصبح الأطفال ما تسميه هي بـ«المتعلم المزدوج»،
وتقول: «حتى أتأكد بالأبحاث من العكس، فأنا مقتنعة الآن أن ما
نحتاج إليه هو بناء مسار لتطوير الطفل المتعلم المزدوج، مسار يعلم
جيدًا مختلف أنواع القراءات الجيدة للأطفال، تمامًا كما أنا وأنت،

يمكننا أن نتجه إلى الكتب وأن نطبع الأشياء حين نحتاج إلى توظيف انتباهنا الأبطأ». تدرك وولف أن كبار اليوم الذين نشأوا على عادات القراءة بالتركيز العميق يملكون سهولة أكبر في استدعاء هذه المهارة عند الحاجة حتى وهم يستقبلون المعلومات رقميًا، وتكمل: «إن الأمر في النهاية يتعلق بجودة الانتباه، نحن نريد أفضل أشكال الانتباه من أبنائنا على مر الزمن، أنا وأنت لا نحتاج إلى القراءة العميقة في أغلب إيميلاتنا، لكننا نحتاج إليها فيما يحتاج منا إلى تفكير جيد، إنها مهمتنا أن نساعد أبنائنا على تجربة قوة النظامين، لنساعدهم في تطوير وموازنة كليهما».

هذا التغير القادم لا محالة هو على أي حال عودة إلى حالة التركيز الموزع، إنه طريقتنا الوحيدة للتفاعل مع أي نص، سواء كان على الإنترنت أو غيره. المشكلة مع القراءة بالتركيز الموزع اليوم هي أن الكلمات التي نستهلكها غالبًا ما تبقى على مستوى السطح من تفاعلنا الفكري، وما نريده هو تنمية هذه القدرة على ربط هذه الأفكار المتنوعة ببعضها ببعض في حين نصنع المعنى لأنفسنا، وهذا ما نحتاج فيه إلى حالة التركيز العميق.

التعافي النصي

يتربى أطفالنا الآن على نظام الوجبات الرقمية السريعة، تبدو الكتب غامضة وغريبة بالمقارنة مع باقي النظام، سواء مع كتاب أو قصيدة أو مقال أو تغريدة، فإن القراءة هي أشبه بالجلوس على كرسي داخل

غرفة المعيشة الفكرية للكاتب. أتذكر الأيام الأولى في غرف نقاشات الإنترنت، وكيف ظهر فيها الانطوائيون بعد أن خرجوا من جحورهم! هذه الأرواح الخجولة استطاعت أن تضع أفكارها داخل الحوار عن طريق الكتابة من دون أن يقلقوا من مقاطعة الانبساطيين لهم أو إرباك أفكارهم التي تكوَّنت بحرص. سمحت لنا القراءة بالتعرُّف على دواخل كل منا، وظهر الإنترنت ليصنع معه عصرًا ذهبيًا من المشاركة المتبادلة وتفهم الآخر، كلما كانت لنا منافذ دخول إلى أرواح بعضنا البعض، تراجعت الكراهية وتفجر الحب؛ بوم! لكن، تلاشى حلم تفجر الحب داخل عالم السخرية! تحولت القراءة من لذة في العزلة إلى مجازفة قد يحدث بسببها سوء تواصل في العلن، هناك شيء ذو معنى اكتسبناه من انتقال القراءة على الإنترنت، لكن بالمثل هناك شيء آخر قد فقدناه.

البيئة الرقمية أصبحت اليوم تشبه حفلة بغرف كثيرة وعدد لا نهائي من الحضور، المحادثات دائمًا في طور التفعيل في كل مكان، وربما ستشعر كما لو كانت هناك كرة لعب تُقذف وتُلقف في الأرجاء، يمكننا تعلم كثير عن طريق الدُّلوف والخروج من هذه المحادثات، لكن بعكس اليوتوبيا المتفائلة فإن كثيرًا منا (بما فيهم أنا) تخيل أن هناك تبعات شريرة ستظهر خلال عقود داخل مناخ النشر العالمي، بدأ البشر يطمحون أكثر إلى أن يكونوا منتجين لا مستمعين. أن تملك منصة تتمكن من خلالها من نشر أفكارك لنطاق غير محدود من القراء، هو في الحقيقة تجربة مُسكِرة، أن تكون قادرًا على الرد في الحال على من ينشرون، لهي أيضًا تجربة مغرية جدًا. وفي كثير من الأحيان، تأتي هذه المرجعية بشكل

صريح وصادم؛ نتاجاً للحظة سريعة من التفكير، يدخل أطفالنا إلى هذا العالم المتعجل حين يشاركون في محادثة داخل عالم الإنترنت. في الحقيقة هم لا يعرفون عالمًا لا يوجد فيه ذلك! هذا الضغط من أجل التفاعل مع كل شيء يمكن أن يُضعِف حب القراءة الورقية بداخلهم حيث لا يوجد أي تحفيز أو تفاعل مكثف. «القراءة وحدك» لا تشبه هذه الحفلة مطلقًا.

الترياق لهذه الحالة غير المعنى بها من الكتابة العالمية هو أن نختار بأنفسنا أن نقرأ بعمقٍ، وأن نتفاعل مع ما نقرأ بانتظامٍ، القراءة بعمق مع إعطاء تأمل صبور لكل فكرة هو أشبه بالانعزال في ركن هادئ داخل حفلة مع شخص واحد، حيث لن يقاطعكما أحد. القراءة بمعنى الاستماع تعني أن تبني فهمك الخاص لا أن تهلّل للكاتب أو تصحّح له. بإعطاء الكاتب المساحة التي يحتاج إليها لشرح حجته أو يشارك قصته ستكون للقارئ الفرصة الأكبر لأن يتأثر به، أليس هذا هو السبب الذي يكتب لأجله أيُّ منا؟ نريد أن يُستمع إلينا وأن نُعرّف وأن نُؤخّذ بجدية. القراءة العميقة تعني أن لا أحد سيتوقع منك أن تعلق، على الأقل ليس في الحال، ورغم ذلك فإن الحوار الداخلي بين النص والقارئ يمكن أن يكون ثريًا وغير مفلتر.

من أجل أن تعمل القراءة كقوة تعليمية لأطفالنا فإننا -الكبار- نحتاج إلى خلق ظروف تمكّن للقراءة العميقة أن تزدهر. الكتب (الورقية، غير الموجودة على جهاز رقمي) هي الأفضل لتدريب أطفالنا على أن يكونوا قراء عميقين، وعلى أن يفكروا بشكل نقدي في محتوى

ما يقرأون، وهذا لن يأتي إلا بممارسة تجربة قرائية غامرة عميقة تتحرك ببطء. بشكل طبيعي، فإن احتراف القراءة هو عامل مفتاحي هنا، إن كان الطفل ما زال يعاني مع فك تشفير الكلمات فإن القراءة الصامتة العميقة لن تأتي إلا بعد تجاوزه لهذه المرحلة. وما هو جميل في ممارسة القراءة العميقة هو الطريقة التي تتراكم بها في عمر الطفل، الروابط والملاحظات التي سيأخذها طفلك ستحدث داخلياً وغالباً بوجه خفي عنك، إنها الوضعية العقلية الصبورة التي تُتخذ تجاه الكاتب، التي تسمح للقارئ باستخدام وعيه وتؤدي إلى التفكير جيداً وبعمقٍ.

القراءة العميقة تشفينا وتمنحنا هدايا، كإشعال خيالنا وإيصال خلفياتنا المعرفية بمفاهيم جديدة، تبهجننا بألعاب الكلمات والإحالات، تلهو ببناء الجملة، وتنتج معتقدات وتبصرات جديدة. القراءة العميقة تعني «الاستماع»، إعطاء كل التركيز لسماع صوت واحد، تعني أن تفسح طريقاً معك للكاتب حتى تجد طريقك أنت معه، إنها فعل ثقة حين نقرأ ونفرش الأرضية للكاتب ووجهة نظره داخل أنفسنا. نحن لسنا ملزمين بإعطاء موافقة أو رفض، يمكننا أن نعيش بجانب المعلومات الجديدة لنتركها تستقر قبل أن نطلق عليها الأحكام، إنها هذا التفاعل الذي يحدث ببطء مع الأفكار ويؤدي إلى الإحياء الفكري الذي نتمناه لأنفسنا وأبنائنا.

في الحقيقة، ممارسة القراءة العميقة قد تساعد الطفل الذي يعاني مع أي مفهوم، الطفل الذي يعاني مع عملية حسابية أو فكرة معينة في العلوم قد يحتاج فقط إلى وقت أطول في الجلوس معه قبل أن يطلب

منه أن يؤدي. إحدى الطرائق التي يمكن بها مساعدته هي طباعة المعلومات وتشجيع الطفل على أن يقرأها بصمتٍ من دون مقاطعة قبل أن يحاول معها ثانية، أحياناً في أثناء اندفاعنا من أجل تجاوزها وإتمامها فإننا نتجاوز على عجلة العمل الداخلي الذي يأتي من التركيز العميق على الكلام المكتوب من دون أي تشتيت (حتى تشتيتك لنفسك!). بدلاً من ذلك، تقترح تشيفاتسو أن تجعل طفلك يقرأ جهرياً لأن هذا يوفر مزايا إضافية: ١- يبطئ القارئ. ٢- يسمح بإعطاء تغذية عكسية. ٣- يستدعي الانتباه. فكّر في الطريقة التي يميل بها الكبار إلى قراءة تعليمات القيادة جهرياً، القراءة جهرياً أحياناً تضيف تركيزاً أكثر من أجل فهم أفضل.

إحدى الطرائق التي نقيس بها إن كان القارئ قد قرأ بعمق هي أن نطلب منه إعادة صياغة رؤية الكاتب بدقة (من دون أن يتفق معها بالضرورة، لكن أيضاً من دون أن ينتقدها على الأقل)، هذا ما يوجد وراء سيكولوجية «السرد»؛ أن تعيد حكي رسالة الكاتب محافظاً على نكهتها الأصلية الموجودة في كلمات الكاتب. فكّر في السرد كالعلاج الزواجي، يتوقع منك الكاتب أن تنصت إلى شريكك من دون مقاطعة، لتعيد صياغة ما سمعته (من دون أن تربطه بدوافع من تخمينك)، الأمر أصعب مما يبدو لأننا مستعدون جداً لوضع الافتراضات التي تلائم رؤيتنا نحن.

الاستماع من خلال الكتابة يمكن أن يكون عذاباً مستمراً (تماماً كالعلاج!) إن كانت وجهة النظر تعارض ما تريده أن يكون صحيحاً،

أو إن كان خط القصة مربكًا. القراءة ليست ممتعة دائمًا، لكن أن تستمع إلى الكاتب فهذا معناه أن تجلس بهدوءٍ، وأن تنصت بصدقٍ، وأن تعيد صياغة ما سمعته بدقة قبل أن تندفع لتكوين رأيك. القراءة الورقية تعطينا فرصة أفضل لأن نجلس مع وجهة نظر غير مريحة بالنسبة إلينا. هذا النوع من القراءة يبدأ من عند تصديق أن الكاتب هو كيان عاقل أو على الأقل أن الأفكار التي يطرحها الكاتب مترابطة بشكلٍ ذي معنى للكاتب، حتى إن كانت تتحدى حقائق مؤسسة أو تبني انحيازًا ما، إنها مهمة صعبة إن كنت تقرأ نظرية مؤامرة أو كتابة تتهمك بأنك جزء من مشكلة بنيوية.

الفرصة التي تعطيها لك القراءة العميقة هي إمكانية التوقف مؤقتًا إن احتجنا، يمكننا أن نجلس مع فكرة أو مع وجهة نظر شخص ما من دون أن نُستدعى لتقييمها، يمكننا أن نسمح لمشاعرنا أن تتبع خطى سردية أطول من مجرد اتخاذ قرار التعليق على السوشيال ميديا أو نشر الرأي على مدونة، القراءة العميقة أيضًا تسمح لنا بتطوير حدٍّ صحي يفصل ما بين الكاتب والقارئ. حين نكون على موقع سوشيال ميديا فإننا غالبًا ما نشعر بضغوط تجاه إعلان موقفنا كفعلٍ يضيف إلى النزاهة الشخصية في مجتمعنا، القراءة في عزلة وبعمقٍ تمكّن القارئ من إلقاء نظرة على الأفكار من دون أن يعلن موقفًا ما بدقة للآخرين.

الوهم الذي يوحى به الإنترنت هو أن كل ما يمكن أن نود معرفته قد خُزنَ بالنيابة عنا من دون أي مجهود مطلوب منا، كنتيجةٍ تُعلّمنا كيف نتذكر أين نجد المعلومات بدلًا من أن نتعلم تذكّر المعلومات نفسها،

وهذه خسارة واضحة للتفكير لأن عقولنا لم تُعد تعرف كيف توصل الروابط التي تنتج التبصرات بسهولة. يعرف أطفالنا كيف يستجيبون لمدخلات الحياة الرقمية المتنوعة، وألعاب الفيديو، والرسائل النصية، وصناعة الفيديوهات. أتذكر أن ابنتي يومًا ما كانت تتعامل مع ست نوافذ مراسلة نصية مفتوحة بينما تحل واجبات الرياضيات، لقد طوّرت هذه المرونة الهائلة في الانتباه التي تنتج عن حالة التركيز الموزع، ورغم هذا فإن إتقان مسألة حسابية جديدة في هذا النمط من المذاكرة، لن يسعفها، هنا ستحتاج إلى أن تعطي الأمر تركيزًا حصرًا، إنه واجبنا نحن، كآباء ومعلمين، أن نعزز هاتين المهارتين، أن نعلّم أطفالنا كيف يقومون بهذه التحويلة العقلية من حالة التركيز الموزع إلى حالة التركيز العميق لتساعدهم في التمرس على التعلّم بالغمر.

تمرين العقل

عادة القراءة العميقة آخذة في التلاشي بسرعة، لنستفيد من تعلم التركيز العميق علينا أن نرعى الحفاظ على تلك العادة، وفي هذا قد عوّدت نفسي على الحفاظ على عادة القراءة الورقية بشكلٍ دائمٍ، أرى القراءة العميقة خير مثال على تمرين العقل. نحن نختار باستمرار أن نشترك في صفوف العجلات الدوارة أو أن نتدرب من أجل ماراثونات التزلج من أجل صحتنا، حتى وإن كانت أول خمس دقائق في أي تمرين كدحًا شاقًا، إن كنا نود الحفاظ على لياقة أدمغتنا فعلينا أن نُمرّنها عبر تمرين أنفسنا على الإبطاء من وتيرة قراءتنا والتركيز على نص واحد

لمدة كافية من الزمن، حتى وإن كانت الدقائق الخمس الأولى أيضًا ستكون كفاحًا شاقًا، يمكننا أن نهيئ ظروفًا تدعم حالة التركيز العميق (كالتى تخلقها لنا المكتبات العامة)، ومن ثم نبني استعدادنا لهذه القراءة الهادئة الصبورة العميقة.

تمرين: القراءة العميقة

التركيز المستمر على مصدرٍ واحدٍ للمعلومات (كتاب، مقال، بحث) في المرة الواحدة لمدة من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، مع وضع هدف القراءة لمدة عشرين دقيقة من دون انقطاع، لتنمية هذه الممارسة من المفيد أن تستخدم كتبًا ورقية بدلًا من القراءة الإلكترونية، سيأخذ الأمر من سبع إلى عشر دقائق لتستقر، وخمس عشرة دقيقة لتغرق في حالة التركيز العميق، استهدف الدقائق العشرين من القراءة الصامتة لعدة أيام كل أسبوع هو روتين رائع لتؤسسه مع عائلتك وأبنائك، خُذ راحتك إن كنت تريد وضع هدف على مدى أقصر إن كان هناك من يعاني من قفلة القراءة أو للأطفال الذين يجدون صعوبة في الجلوس بهدوء، بعض الأطفال يستفيدون من القراءة التشاركية حين يأخذون أدوارًا في القراءة جهريًا مع إرشاد أحد الآباء في تقسيم الفقرات.

هناك أبحاث تقول نتائجها إن وجود جهاز لوحي أو جهاز كمبيوتر معك في الغرفة يسحب كل انتباهك بعيدًا عما تقرأ حتى وإن كان مغلقًا، لذا سيساعدك، ليس فقط أن تغلق هاتفك، بل أن تضعه في غرفة أخرى كي لا تتمكن حتى من رؤيته، إن كان لا يزال في مجال رؤيتك فهو لا

يزال تشتتاً لعقلك، وهذا يشبه وضع كيس من البطاطس المقلية على طاولة المطبخ في مقابل وضعها داخل الدولاب المغلق. ما هو خارج مجال بصرك هو في الحقيقة خارج عقلك، المعلق السياسي عذرا كلاين حكى لنا في البودكاست الذي يقدمه أنه اضطر إلى شراء خزانة بها ساعة منبهة ليستطيع إبعاد هاتفه الخلوي داخلها حين قرر قراءة كتاب، وهذا ليستسلم تمامًا لفكرة أن ليس في إمكانه الوصول إليه حتى إن أراد، هذا ما قد يصل إليه استنزاف الدماغ إن كنا نعتمد على هذه الأجهزة لمدة ثماني ساعات أو أكثر يوميًا.

كل أطفالك، وعلى الأقل شخص بالغ واحد، عليهم أن يكونوا جزءًا من تمرين القراءة العميقة التالي، اجعل كل فرد من الأسرة أو كل طالب في الفصل يضع هاتفه في سلة، وانقل السلة إلى غرفة أخرى، اضبط ساعة مؤقتة واختر مكانًا دافئًا لتجلسوا جميعكم فيه في نفس الغرفة، اقرأ لنفسك في صمتٍ حتى يتوقف مؤقت الساعة، الأطفال الذين لا يستطيعون القراءة بعد يمكنهم تصفُّح كتاب في أثناء الجلوس في حجر آبائهم إن كانوا أصغر من أن يتمكنوا من التصفح وحدهم. هناك ملاحظة قد تفيد: الأطفال الأصغر يستجيبون جيدًا لرؤية شمعة مضاءة وقت القراءة بصمتٍ، إنها تعمل كإشارة لفكرة أن الجميع سيصمت الآن، بمجرد أن تنتهوا من القراءة اطلب من أحد أطفالك أن ينفخ بها ليطفئها.

خطوات القراءة بعمقٍ

- ١- أغلق المشتتات (جمّع الهواتف في سلة في غرفة أخرى).
 - ٢- اقرأ صفحات الكتاب بالترتيب.
 - ٣- اقرأها بوتيرة مريحة (نحن لسنا في سباق).
 - ٤- اقرأ من دون أن تطرح أسئلة أو تقوم لإحضار وجبة خفيفة.
 - ٥- اقرأ مع جميع العائلة.
 - ٦- بعد أن تكتسب مهارة قراءة مستمرة كافية، شجّع على عادة القراءة ليلاً في السرير (مستوى الخبراء).
 - ٧- بالتدريج زد وقت القراءة بدءاً من خمس إلى سبع دقائق.
- الهدف:** أن تقرأ لعشرين دقيقة من دون انقطاع لعدة أيام كل أسبوع، بمجرد أن يتوقف المؤقت تكون قد انتهيت، من دون حاجة إلى أن تتبع قراءتك ببعض من أسئلة الفهم والتحليل، دَع كل شخص يستمتع بما قرأه، وأن يحتفظ لنفسه بمشاعره وانفعالاته. بمجرد أن تتحول القراءة العميقة إلى عادة طبيعية خذها إلى مستوى أعلى، اقترح أن تأخذوا كتاباً في أثناء الانتظار عند طبيب الأسنان بدلاً من الآيباد أو إلى أي مكان به وقت انتظار.

أنشطة يمكن القيام بها بموازاة القراءة العميقة

القراءة العميقة تمكّن الطلاب من الربط بين عديد من الأفكار والأشكال المتنوعة للمعنى الشخصي، يقرأ البالغون الأدب والكتب الفكرية من أجل أن يستمتعوا ويزدادوا وعيًا. الارتياح في أثناء القراءة يسمح لهم بفرصة أكبر لتكوين معانهم الشخصي، ولمقارنة ما يقرأون بتجاربهم الشخصية وبالرؤية الكونية التي يتبنونها، يمكن للطلاب أن يصنعوا تلك الروابط أيضًا، إن غيرنا طريقة تفكيرهم في القراءة وأعطيناهم المساحة ليتواصلوا مع ما يقرأون ليصنعوا منه معانيهم الشخصية.

باحثة ستانفورد سارة ليفين تقترح أن نعطي الأطفال والمراهقين أسئلة تجتر ما هو حاد بداخلهم، تقترح أن نستخدم مدخل الموافقة والرفض لتحفز استجاباتهم الشخصية لقراءة الأدب، ما تسميه هي بأسئلة «مع، ضد، كلاهما، لماذا؟» في هذه الممارسة، فإن شريك القراءة (الأب أو المعلم) سيسأل سؤالاً مستفزاً، مثل: «هل هذا المشهد في القصة يبدو لك إيجابياً أم سلبياً؟»، سيرفع حينها الطلاب إبهامهم إلى أعلى في إشارة إلى الموافقة والعكس في حالة الرفض أو كلا الإبهامين إلى أعلى وأسفل تعبيراً عن الموافقة على أشياء ورفض أشياء أخرى، ثم سيُدعى الطلاب لشرح إجاباتهم. وفي العائلة قد تبدو حالة رفع الإبهام وإنزاله مُلفّقة قليلاً، ولهذا فإن ما نحاول قوله هو أن مفهوم اللعبة فقط هو المهم، وأن الهدف هو بلورة علاقة الطفل بالنص الذي

يقرأه وليس بالكاد إعادة صياغة معلومات النص، وتلك أشكال أخرى من الأسئلة التي يمكن أن تطرحها لتحفز هذا النوع من التأمل:

- هل أنت متعاطف أم لا مع هذه الشخصية؟

- هل الطقس في هذا المشهد يعبر عن علامة قدوم أمور أفضل أم العكس؟

- كيف تشعر حيال تكرار هذه الكلمة في النص؟

الأسئلة التي تستدعي ردود الأفعال الأصيلة من الطالب ستساعده على تنمية المعنى الشخصي الذي كوّنه مما قرأ. في أثناء تخرجي كان الأساتذة يكلّفوننا بقراءات ثم يطلبون منا أن نكتب حولها أبحاثاً تأملية من خمسمائة كلمة تتحدث عما قرأنا؛ أحببت هذا التمرين، كان الحوار الذي أقيمه مع نفسي بعد القراءة يؤدي بي إلى تفكير مثمر ومستمر معي في حياتي كبالغة. لننشئ مفكرين ناقدين نحتاج أولاً إلى ألا نفقد مهارة القراءة بعمق، ولا نريد أن ننسى أن القراءة تنتفع بالكتابة والنقاشات الملحقة بها والتي تجعل المعنى منها أوضح وأكثر قيمة شخصية، الكتابة هي أحد أشكال التركيز والتعلم العميق أيضاً، الممارسات التالية ستزيد من نطاق اتساع قيمة القراءة العميقة وستمكن روابط كثيرة من أن تتكوّن، جرّب هذه الممارسات مرة أو مرتين شهرياً.

ذوو الأعين الالامعة (من خمس إلى تسع سنوات): مهمة نسخ

تبنت حركة التعليم المنزلي الموجودة اليوم، مع كثير من المدارس في أوروبا، ما يُسمّى بـ«مهمة النسخ» كطريقة لحفظ الفقرات ذات

المعاني المهمة من القصائد والمسرحيات والكتب، شعبية النسخ آخذة في التزايد في الأبحاث المعرفية أيضًا.

هكذا يعمل الأمر: ينسخ الطالب فقرة من اختياره، غالبًا بخط اليد في دفتر ملاحظات (الكتابة الإلكترونية وتحويل المكتوب إلى ملف رقمي لحفظه وطباعته أيضًا مقبول)، يختار الطلاب فقرات تعني شيئًا شخصيًا لهم. في عائلتي سَمَّينا هذه الفقرات «السطور الذهبية»، وبعد نسخ كل سطر ذهبي يكتب الطفل بعد ذلك جملة أو اثنتين ليفسر اختياره له مع كتابة تاريخ النقل، مع الوقت يكون قد تكوَّن للقارئ ألبوم قيم مما قرأه واستخلص منه أهم ما فيه. مهمة النسخ تساعد الكاتب على تقدير جمال الأدب وقوته، وتشجّع على إعادة قراءة المنسوخ أيضًا، تتضح الإطارات وتتكوَّن الروابط التي ربما لم تكن بهذا الوضوح في أثناء القراءة.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عامًا) :

كتاب الأماكن العامة

كثير من الكُتّاب والباحثين يحبون أن يحتفظوا بما يُسمَّى بـ«كتاب الأماكن العامة» وهي دفاتر ملاحظات مصنوعة شخصيًا، تجمع التأمّلات والملاحظات والأفكار المترابطة والاقتباسات القوية. محتويات الدفتر ليس المقصود منها أن تتحول إلى سردٍ متماسكٍ، هي فقط مجموعة من الأفكار والاقتباسات المتنوعة لباحثي عصرنا الحالي الصغار، أقترح أن يُجمّعوا محتويات الدفتر في أثناء قراءتهم في حين يقرأون أي كتاب، لا حاجة إلى أن يفعلوا ذلك كل يوم لكن بين كل بضعة فصول سيكون

جيدًا جدًا. ربما أيضًا يضيفون رسمًا سريعًا لشخصية من الشخصيات أو لخريطة أو لقائمة من الكلمات الجديدة مع أسئلتهم وردود أفعالهم الشخصية. سيتحوّل الدفتر بعد ذلك غالبًا إلى مذكرات ثمينة لمرحلة عمرية ما في حياة الطفل، هذه الممارسة تشبه التقاط صورة فوتوجرافية كل بضعة أسابيع لعقل طفلك، في النهاية ستحصل على اليوم كامل من اللقطات العقلية.

حادو الذكاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا) :

نصوص التأمل

للقراء المراهقين، الآن هو وقت رائع لتتمرّن على عادة الكتابة بعد الانتهاء من فصل أو كتاب، الكتابة الحرة هي الأداة الأكثر قيمة في النهاية، (سيتعلم الطلاب كتابة مقالات التحليل الأدبي في المدرسة الثانوية أيضًا)، الكتابة الحرة تعني تحديد وقت معين سابقًا للكتابة، وأن تضبط الساعة المؤقتة ثم تبدأ في كتابة ما سيأتي إلى عقلك أيًا كان خلال هذه المدة، من دون أن تضع في الاعتبار تصحيح الهجاء أو علامات الترقيم، فقط انسخ شريط الأفكار الذي يعبر في دماغك بمجرد أن يحدث، لأننا نستخدم الكتابة كاستجابة للقراءة، أقترح أن نستهدف فيها جوانب مما تمت قراءته، إليك بعضًا من الأفكار (هذه الأفكار مكتوبة ليقرأها أبنائوك المراهقون).

أفكار لنصوص التأمل بطريقة الكتابة الحرة

١- اختر كلمة واحدة من قراءتك اليوم واكتب عنها، مثلاً ربما تكون قراءتك عن «الفردانية» أو «انعدام العدالة»، ضع المصطلح الأساسي على مقدمة الصفحة ثم اكتب. في كل مرة تشعر أنك عالق أعد كتابة الكلمة في بداية السطر ثم استمر في الكتابة، ربما يساعد أيضاً أن تستخدم ورقة بيضاء من دون سطور، ثم اكتب داخل دوائر أو بالونات كطريقة لِعَنْقَدَةِ الأفكار المتنوعة بعضها مع بعض.

٢- أما في الأدب فاكتب عن أسلوب سرد، أو دوافع شخصية، أو أثر آخر مشهد قرأته، أو اقتباس من النص.

٣- للكتب الفكرية، أعد صياغة الطرح أو البيانات بكلماتك الخاصة، أو أعد كتابتها كما لو كنت تكتبها لطفل ذي خمسة أعوام، أو اكتب عما يشرك فيها من معلومات جديدة أو وجهة نظر جديدة لتُوضَع في الاعتبار.

الخطوة التالية هي أن تُلَمَّع هذه الكتابات الحرة لتحوّلها إلى نصّ شخصي تأملي من خمسمائة كلمة، والهدف هو التصارع مع أو تحديد الفكرة الأكثر «بقاءً»، اكتبها على ورقة واطلب من أبنائك أن يطلعوا عقولهم في الاتجاه الذي يريدون، القراءة العميقة والتأمل غير المحدود يضعان أساساً عظيمًا للعمل الأكثر عمقاً في التفكير النقدي.

بمجرد أن يكتشف أطفالك قوة القراءة، سيحين وقت تعميق صلتهم
بالموضوع الذي يدرسونه عبر التجارب المباشرة وغير المباشرة وعبر
قوة الخيال.

الفصل التاسع

التجربة: دخول منطقة أكثر حميمية

«أن تتصرف بطريقتك المعتادة بناء على طريقة تفكير جديدة أسهل من أن تفكر بطريقتك المعتادة مطبقاً تصرفات جديدة».

جيرى ستيرنين

أغلب الناس يتفوقون على أن القراءة تُعتبر مفتاحاً للتعليم العظيم، ولكن لا يعترف كل الناس بأن القراءة قد تكون خطراً على التنمية الأكاديمية.

وهنا أنا أعرف، القراءة توفر تفاصيل قد لا تتمكن من الوصول إليها بالتجربة المباشرة، لكن رغم ذلك من الأسهل أن ترسم استنتاجات مرتبة وواثقة بنفسها من دون أن تكون اختبرتها في العالم الحقيقي، حيث مطلوب منها أن تثبت نفسها وهي تنطلق في الواقع من دون أن تكون مدعومة بتصميم جميل لموقعها على الإنترنت مثلاً، التجربة تضع الأفكار في موضع الاختبار.

يجري الأمر هكذا: تأتي لك فكرة في أثناء الاستحمام، تعجبك فكرتك، ثم تأخذها لتضعها في صيغة مكتوبة، تبخر الكلمات، ومحاولتك لكتابتها في الحال تكشف أن هناك افتقارًا إلى الوضوح، هذه هي قوة التجربة، إنها تقودك إلى الدقة، وتكشف لك ما تعرفه وما لا تعرفه، تمامًا كما تجعل الكتابة الأفكار مرئية، التجربة تجعل التعلم مرئيًا، إنها تنقلنا من الثقة (أنا أفهم المعلومة) إلى تواضع المبتدئ (في الواقع أنا لا أفهم) ثم مع الوقت إلى مرحلة (أفهمها الآن لأنني اكتسبت فيها مهارة).

الأمر يشبه قراءة موسيقى البيانو، ثم وضع أصابعك على لوحة المفاتيح، في النهاية لن تستطيع تذكر ما ظننت أنك فهمته حين قرأت السطر الموسيقي، يدرك لن تطيع ما يمليه عليهما عقلك، أنت تعلم أن عليك تقويس أصابعك وتحريكها بسرعة معينة ثم النقر على هذا المفتاح ثم على هذا المفتاح، التجربة تعتبر تعليمية ومثيرة للأعصاب في آنٍ، التدريب يعيد تشكيل مسارات عقلك العصبية ليساعد يديك في معرفة ماذا عليهما أن تفعلًا وكيف ومتى. التجارب المباشرة يتم تعلمها داخل الجسم وعن طريقه من أجله، إن تعلمت لعب البيانو فإن قراءتك عن الموسيقى بعد ذلك ستحدث عندك على مستوى آخر من التقدير لبقية حياتك، تبصراتك ستنبئ من التجارب المباشرة وليس من الكتب التي قرأتها.

التجارب غير المباشرة أيضًا لها تأثير في جودة تفكيرنا، الأدب التاريخي (الأفلام، المسرحيات، العروض الموسيقية)، والوثائقيات،

وتقارير الأخبار، وحفلات الموسيقى، والمقابلات تعطينا مدخلًا لفهم البشر والأماكن والعمليات التي لن نستطيع أبدًا الوصول إليها مباشرة. فيلم به أزياء وأجواء عصر تاريخي معين يمكن أن يثري جدًا طريقة تفكيرك في هذا العصر. مشاهدة مقابلة مع قائد عالمي ستعطيكم معلومات لن تجدها في مقال جريدة (ما تقوله لغة الجسد). التجارب غير المباشرة تضيف تعقيدًا وتفاصيل على تأملاتنا، استدعاء خيال طفل هو طريقة ثالثة لتعميق التفكير النقدي، حين لا نتمكن من الحصول على تجربة مباشرة أو غير مباشرة يمكن لخيلنا أن تعبّر عن خلال انطباعاتنا المبدئية عما إن كنا نعرف كيف نستخدمها على التوالي. الروايات على سبيل المثال تساعد القراء على تخيل وجهة نظر شخص آخر بعمق، الروائي البريطاني إي. إم فورستر يقول في سلسلة محاضراته المسماة «جوانب الرواية»: «نحن لن نفهم بعضنا تمامًا أبدًا في الحياة اليومية، لكن البشر في الروايات يمكن فهمهم كليًا من القارئ إن أراد الروائي ذلك، يمكن لحيواتهم الداخلية أن تُكشف تمامًا كحيواتهم الخارجية». اختبار شعور الحميمية مع الشخصيات باستخدام خيالنا هو ما يجعلنا نكتسب صورة أكثر اتساقًا مع بعضها عن التاريخ (التي يشار إليها الكاتب معنا، ونعيد خلقها نحن في عقولنا)، التجارب المباشرة وغير المباشرة والتخييلية جميعها تضيف عمقًا إلى الفهم. أطفالنا (ودعونا نقولها، البالغون أيضًا) هم بالطبيعة قصار النظر، نحن نرى العالم عبر العدسات التي خلقتها هوياتنا (كما ناقشنا في الفصل السادس)، التجارب تسمح لنا بتوسعة وإدخال مفاهيم جديدة وقصص منطقية جيدة داخل إدراكنا،

مهما حاولت أن تفكر فيها من زوايا مختلفة، فستبقى التجربة قُبلة الحياة التي يلزم إعطاؤها للتفكير النقدي لإحياء رحلته، وهي ضرورية جدًا.

عقلك يخوض تجربة

للوهلة الأولى، قد تجد أن بعض المواد الدراسية تصلح بشكل أكبر للتجارب كالكيمياء في المعمل، لكن على أي حال معظم هذه المواد لا تدرس بهذه الطريقة، ربما لهذا نجد معارض العلوم ومسابقات الرياضيات والمحاكاة التاريخية والمجلات الأدبية لها شعبية كبيرة. هذه الأنشطة المعتمدة على التجربة مصممة لتسري الحيوية في هذه المواد الأساسية، إن سألت المراهقين عن موادهم المدرسية المفضلة فسيجيبونك على الأرجح بالتصوير أو الفن، وبرمجة الكمبيوتر، والمسرح أو الرياضة، ماذا يجعل هذه المواد مختلفة عن الدراسات الاجتماعية أو الرياضيات أو الإنجليزية؟ هذا لأن المواد الاختيارية تشجع الأطفال على أن يقوموا بفعل الأشياء، يُوثق بالأطفال ويُعطوا أدوات (سيلعبون آلة موسيقية، سيمرون كرة القدم، سيكتبون أكواذاً، سيشكلون صلصالاً، أو سيعلقون أضواء مسرحية)، ينجذب الأطفال على نحو طبيعي إلى التفكير الذي سيُطبَّق، وللمفارقة، معظم المواد التي يحبونها تُصنَّف كمواد غير أساسية، كما لو كنا قررنا أن التعليم الحقيقي يجب أن يكون مملًا، وما عداه هو تسلية.

وكما تبين، فإن المواد الاختيارية تصل إلى قلب ما نسميه «التعلم الجيد»، التجارب المباشرة تعيد هندسة أدمغتنا للتركيز الصافي وإتقان

المهارات، ربما تستدعي شعور المذاكرة من أجل اختبار ثم اجتيازه، ومن ثم تدرك أنك إن خضعت لنفس الاختبار بعد أسبوعين فإنك لن تتمكن من حلّه مجدداً، لكن طفلاً يعزف الفلوت في مسابقة فرقة موسيقية ربما سيتمكن من عزف نفس المقطوعة لمدة شهر أو أكثر، ما الفرق؟

أيّا كان ما «ستحفظه» سيُخزّن مؤقتاً في الذاكرة العاملة وليس بالضرورة سيُخزّن في أرشيف ذاكرة المدى الطويل، أحب تعريف نيكولاس كار لنوعيّ الذاكرة: «إن كانت الذاكرة العاملة هي لوحة الملاحظات في العقل، فإن الذاكرة طويلة المدى هي نظام حفظ الملفات». الأطفال ذوو الذاكرة العاملة القوية يحصلون على علامات جيدة وعلى ميزة أكثر من غيرهم، إنهم قادرون على حفظ المعلومات، وباستطاعتهم حفظ ملاحظات المحاضرات على اللوح الجاهز في عقولهم واسترجاعها بسهولة في اليوم التالي من أجل الاختبار، لكن للحصول على تبصرات دائمة وذات معنى، فإن ما تم تعلمه يحتاج إلى أن يذهب إلى الذاكرة طويلة المدى. الذاكرة طويلة المدى تمكّننا من تكوين مفاهيم معقدة، تشكّل روابط متعددة (ما يسميها الباحثون بالمخططات)، بين الذكريات والعلاقات واللغة ووجهات النظر الشخصية، في الحقيقة تلك واحدة من الأسباب التي تجعل التجربة البصرية تدعم ما يقرأه الطلاب، «إحدى أكثر الطرائق فعالية في تشجيع المعلومات على القفز من الذاكرة قصيرة المدى إلى الذاكرة طويلة هي أن تدعم النص بالصور». تعرض الدراسات أننا نحتفظ بما يقرب

من ١٠ إلى ٢٠ بالمائة من المعلومات المكتوبة أو المنطوقة، لكن نحو ٦٥ بالمائة من المعلومات حين تُعرَض بصرياً، فإننا حتى نتذكر شكل الصفحة وسُمتك الكتاب حينما قُرئت المعلومة، هذا مثال على كيف تساعدنا تجربة القراءة على تخزين ما تعلمناه عبر القراءة نفسها. في الواقع، تلك واحدة من الأسباب التي يفضّل بسببها الكثيرون القراءة الورقية بدلاً من الإلكترونية، تستخدم عقولنا الذكرى البصرية للمعلومات على صفحات الكتاب لتساعدنا على استعادة ما قرأناه.

التجربة تمكّن الطالب من أن يصنع المعنى مما قرأه، بشكل شخصي وحيوي، المفارقة هي أن أطفال اليوم (وكبارهم!) قليلاً ما يشعرون بأن عليهم تذكّر المعلومات التي يقرأونها، كل البيانات التي نحتاج إليها متاحة للبحث عنها على الإنترنت، لأننا نعلم أن هواتفنا تحمل كل شيء يمكننا أن نحتاج إلى معرفته يومًا ما، أصبحنا أقل انتباهًا لالتقاط التفاصيل، ولم يعد علينا أن نسترجعها كلها، لذا فلا نفعل، وبدلاً من أن نزداد ذكاءً كما وعدنا آلهة الإنترنت فإننا أصبحنا أكثر اعتمادية وأقل تركيزاً.

هذه الملاحظة تذكّرني بما أشعر حين أشاهد مباراة كرة قدم حية لمدرسة ثانوية، غالباً لا أرى هبوط الكرة حتى وإن بقيت عيناى مُسلّطتين على الملعب، عقلي يريد إعادة لحظة هبوط الكرة، أصبح من الصعب على عقلي أن يعالج المعلومات في الحال، لقد دربت عقلي على أن مصور المباراة هو من سيعطيها الانتباه الكافي، حين أشاهد المباريات القومية أعتمد على إعادة البث في التلفزيون لأرى تسديد الهدف، ولأن معظم ملاعب الثانوية ليس بها شاشات عرض فإنك إن

فَوَّتْ لحظة التسديد فإنها قد فاتتك! في الواقع يمكنك حتى أن تفوتّها حتى وأنت تشاهدها، تلك هي الفكرة، أننا نتوقع من شخص آخر أن يركّز انتباهه بدلاً منا.

يسأل الأطفال: «لَمْ عليّ أن أُنْتبه؟ مع أن كل شيء على هاتفي، آلتِي الحاسبة، ومساحتي السحابية التخزينية، وجهازي اللوحي»، ومع أن جميعها بالفعل اختراعات مذهلة (تخزين البيانات في الحال هي اختراع مفيد لجميع أزمنة الإنسانية)، فنحن أيضاً نواجه معضلة. البيانات المخزنة تبقى بعيداً عن حيواتنا اليومية حتى تأتي اللحظة التي نحتاج فيها إلى استخدامها، على يدٍ ربما تكون هذه المعلومات مستعدة لتُستخدَم (أهلاً بمعلومات الضرائب!) وعلى اليد الأخرى يمكن أن تكون هذه المعلومات ما زالت مبهمة تماماً (أهلاً مجدداً بمعلومات الضرائب!)، إن لم تكن لديّ خبرة كافية في المجال لأطبّقها إذن فماذا ستصنع هذه المعلومات لتفيدني؟ بينما أجد صعوبة في تتبّع معلومات الضرائب على الإنترنت فأنا أفضل كثيراً في قراءة الوصفات، أعلم أي الوصفات ستعطي مذاقاً جيداً، وأيها لن ينجح ببساطة عبر قراءة المكونات وطريقة التسوية، وهذا بسبب أنني خبيرة في المطبخ لمدة ثلاثين عاماً، كل تلك الخبرة العملية توجّه قراءتي للوصفات، وهو ما يساعدني بدوره في إطلاق الأحكام الجيدة.

عالم الأعصاب ديف إيجلمان يشرح أن في كل مرة نخوض فيها تجربة، فإننا نُعدّل دائرة النواقل العصبية في أدمغتنا، الهدف؟ هو إدخال برمجة الطريقة الأكثر فعالية لإتمام فعل ما، في الواقع بل هو

أيضاً يفترض أن كلما كنت موهوباً أكثر زادت احتمالية قضائك آلاف الساعات من التمرين، ولهذا تتحسن مجهوداتك، وتبدو كما لو كانت حدثت بسهولة. في الحقيقة فإن التدريب يعيد تشكيل المخ على أن يتعلم ثم يعرف، الرياضيون الأكثر موهبة وأعضاء الجيش والمؤدون هم غالباً الأكثر انضباطاً، يتدربون بصرامة، ويدخلون المعلومات المستقاة من تجاربهم داخل مساراتهم العصبية في المخ، لكي ينفذوا أفعالهم أوتوماتيكياً وقت الحاجة، نفس عملية إعادة التوصيل في المخ تحدث مع الرياضيات والفنون، والكتابة ودراسة الاقتصاد، كل مادة لها عنصر يعتمد على الخبرة إن حاولنا متعمدين أن نجده. التدريب يجعل التقدم حقيقياً، المؤدّون لديهم أدمغة ليراقبوها. وفقاً لباحثة الدماغ دكتور باربرا أوكلي، يميل الأطفال إلى أن ينقسموا إلى نوعين من المتعلمين، الأول تسميه بـ«طلاب سيارات السباق»، والآخر بـ«رياضي المشية». التحدي هو أن بعض الطلاب لديهم -قطعاً- شيء ما مشابه لأدمغة سيارات السباق، يمكنهم التفكير سريعاً جداً، وفي الفصل هم غالباً أول من يرفع أيديهم. لكن كما سنرى أن السرعة ليست ميزة بالضرورة، فكّر فيها بتلك الطريقة، سائق سيارة السباق يتمكن من الوصول إلى خط النهاية بسرعة لكن كل شيء حوله في الطريق يمرّ على عينه بشكل ضبابي وغير واضح. على الجهة الأخرى فإن من يتمشّي يكون أبطأ كثيراً لكن يمكنه مد يديه ليلمس أوراق الأشجار التي يقابلها، وليشم رائحة أشجار التوت في الهواء، وليرى الأرناب الصغيرة تقفز وليستمع إلى أصوات الطيور، إنها تجربة مختلفة تماماً عن تجربة من يقود سيارة سباق، وفي جوانب كثيرة هي تجربة أكثر ثراءً وعمقاً.

طالب سيارة السباق في العادة يُكافأ في المدرسة، سريعو التعلُّم غالبًا ما يُنظر إليهم كأذكياء، بطيئو التعلم على أي حال لا يُكافأون على إيقاع تعلُّمهم، في الواقع هم غالبًا ما يُوضعون في خانة المتأخرين أو الأقل ذكاء. تشير أوكلي إلى أن الفرق بين هذين النوعين من المتعلمين يمكن فقط أن يكون كيفية استخدامهما لذاكرتهما العاملة وذاكرتهما طويلة المدى: «مصطلحا الذاكرة العاملة والذكاء يصفان عمليتين مترابطتين، إن كان الشخص ذا سعة ذاكرة عاملة أقل فإن الذاكرة تخلق روابطها العصبية وتقويها في جزئها طويل المدى، هذه الروابط قد توسّع ذاكرتهم العاملة في نفس الموضوع».

ما تشرحه أوكلي هو أن الأطفال ذوي الذاكرة العاملة الأكثر قوة يمكن ألا يكونوا بنفس القوة في التفكير النقدي، إنهم يرون تعليمهم من خلال عدسة الأجوبة الصحيحة أكثر من كونه أداة للتعمق والتوسعة، ولأنهم يأخذون وقتًا أقل في تخزين المعلومات فقد لا يأخذون وقتًا كافيًا في تأمل تداعياتها. رأينا هذا في سيناريو اختبار الخيارات المتعددة في الفصل الثالث، وهذا ما يجعل هذه التجربة محورية. الطلاب من جميع الأنواع، وتحديدًا أصحاب الذاكرة العاملة الأقل قوة، يحتاجون إلى مدخل أكثر شمولًا، القراءة الممزوجة بالتجربة تعطي المتعلمين أفضل فرصة لتكوين روابط عصبية تجعلهم يحصلون على أقصى استفادة مما تعلّموه ليكون متاحًا لهم حين يحتاجون إليه.

تُحذّر أوكلي من التكرار المبالغ فيه من دون فائدة لها معنى، بالطبع لا يريد أحد أن يقوّي روابطه العصبية من خلال مقاربات مُملة ومُمتية،

بإعطاء وقت وممارسة إضافية يمكن للأشخاص ذوي الذاكرة العاملة الأقل قوة أن يكونوا بنفس مهارة المتعلمين ذوي الذاكرة العاملة الأكثر سعة في مجال تخصصهم، بل وربما أفضل. ترى أو كلي قيمة في أنواع معينة من التمرينات التي توفر أساسًا للتعليم عمومًا في مجالات أخرى، تعليم التدرج مفيد للبيانو، وتعليم جداول الضرب سيوفر سهولة لمن يتعلم الرياضيات، لكن التمرين من دون سياق هو ما سيؤدي إلى الإحساس بالمشقة والانفصال في أثناء التعلم.

الفصول الاختيارية ترفع مستوى هذه اللعبة كثيرًا، على الجميع أن يؤدي إجاباته لا فقط أن يتذكرها كمعلومة صحيحة، بشكل متكرر يتذكر -بفخر- الكبار ذوو الأداء المنخفض في المدرسة الثانوية كيف كُلفوا بإدارة عروض مواهب أو بقيادة فريق طائرة، بشكل ما نقص المهارة في أداء الاختبارات لم يكن له أي علاقة بمشاركتهم الفعالة ومهاراتهم في القيادة في الأنشطة الخارجية.

التجربة المباشرة

أفضل طريقة نتعلم بها هي مزيج من القراءة المتمعنة والتجارب المباشرة، لتتعلم الزراعة أو العزف على آلة موسيقية، لتصبح طبّاخًا أو جراحًا عظيمًا، لتصلح السيارات أو لتختبر أمان كريّمات الحلّاقة، لتطير الطائرات أو لتحوّل الرياح إلى طاقة، فإن التعلم النظري لن يكون كافيًا وحده أبدًا، التعليم العالي يعترف بذلك، التدريبات والإقامات وبرامج الاعتماد جميعها مطلوبة للتأكد من أن الإتقان الحقيقي قد تحقق بعد الانتهاء من تعلّم الكتب داخل الفصول!

لا أريد من جراح أن يصلح كاحلي المكسور لمجرد أنه حصل على درجة ممتاز في اختبار ما، أريد من طبيبي أن يكون قد فتح بضعة كواحل من قبل ذلك. أنت كشخصٍ عادي قد تفهم الكلمات التي تشرح كيف تصلح شيئاً في سبابة مطبخك، لكن دعنا نكتشف إلى أي مدى قد فهمت حين تحاول تنفيذ هذا التصليح! اجتياز اختبار على الورق ليس كمثل اجتيازه أسفل حوض المطبخ، يُفعّل التفكير النقدي حين يضع الأطفال ما تعلّموه تحت اختبار التجربة، وليس بالكاد اختبار الورقة.

أتذكر ديفيد سي. روي الحرفي في كونتيكت، روي لديه خلفية في الفيزياء، وزوجته لها خلفية في النحت، بمساعدة من زوجته صنع روي أكثر من ثلاثمائة تصميم متحرك لأعمالٍ منحوتة، قطع فنية خشبية مصممة ميكانيكياً لتتحرك في أنماط مبهرة بصرياً من دون أي تدخل إلكتروني، أحد أنجح ميكانيزماته للتحرك بالرياح سمح لإحدى المنحوتات أن تبقى في حالة حركة لمدة ٤٨ ساعة. شرح روي أن الهدف كان صناعة تصميم يستخدم الطاقة بشكل يجعله يستمر في الحركة معتمداً على ذاته. تلك المنحوتات فائنة، قال روي في حوار مع مجلة وايرد Wired إن معظم أعماله نتجت بطريقة التجربة والخطأ، وهذا ما أذهلني، صدمني أن كل تدرياته في الفيزياء لم توفر له تلقائياً كل الإجابات قبل أن يضع تلك الآليات تحت الاختبار. أحب أن يشاهده يعمل، كأن هناك رقصة يتناغم فيها خياله مع علمه مع قدرته على حل المشكلات، الخلفية التعليمية والخبرة تصنعان معاً حليفين قويين، جنباً إلى جنبٍ تحفزان التجربة والتبصر والحلول الأفضل، هل شاهدت

قبل ذلك أطفالاً يرتبون صفّاً مستنداً إلى بعضه من قطع الدومينو فقط ليهدموه بنقرة إصبع واحدة؟ لقد تعاملت مع هذا النشاط باعتباره ممتعاً ويصلح لملء الوقت في يوم ممطر دافئ، لكن بعد مشاهدة ديفيد روي حضرني ذكرى قديمة لابني مع هوسه بالدومينو، هناك عملية موترة مطلوب تنفيذها لترتيبها على مسافات مناسبة وفي محاولات التجربة والخطأ مع إضافة المنحنيات، وفي اختيار ما إن كانت القطع سترتب تصاعدياً أم تنازلياً. النظريات والتخمين واختبار كل تسلسل قطع قبل توصيله بالبقية كانت كلها قرارات على ابني أن يتخذها، والإثبات على جودة ما تم تحصيله من تدريباته المستمرة على بناء تلك التسلسلات لم يكن يظهر إلا بعد انتهائه من البناء كاملاً. أتذكر لحظات إحباط كثيرة حين كان يهدم تسلسلاً كبيراً عن طريق الخطأ أو حين يخطئ في ضبط المسافة بين قطعتين ليتسبب ذلك في تدمير البناء بأكمله، كانت هناك لحظة حبس أنفاس حين ينقر الطفل أول قطعة دومينو، حين نبدأ في مراقبة أول قطعة تتساقط وصولاً إلى آخر قطعة، هذه هي قوة التجربة المباشرة، ربما تتساءل كيف يمكن استحضار هذه القوة إلى دراسة المواد الدراسية التقليدية، لتصبح أي معلومة ذات معنى شخصي، فإن التجارب المباشرة هي الطريق الذي يجب أن ننطلق فيه.

المواد الأساسية

حين علّمت الرياضيات لأطفالي كمعلمة منزلية، كنت قلقة حيال ما إن كنت سأتمكّن من تجاوز مهاراتي الضعيفة فيها، بحثت في الوسائل المتاحة لتدريس العمليات الأساسية، وجربت فكرة مذهلة مع ابنتي جرت بهذا الشكل:

- اختر شيئاً يمكن عدّه (كالأصداف البحرية).
- أعد تصنيفها في مجموعات تمثل كل مجموعة منها جدول ضرب.
- هناك ثلاث مجموعات تتضاعف فيها الصدفتان إلى ست أصداف.
- أعد تصنيفها في مجموعتين تحتوي كلّ منهما على ثلاث أصداف.

اقترحت على ابنتي أن تريني جداول الضرب للعدد اثنين باستخدام إناء من الأصداف البحرية، ثم اتجهت لأغيّر حفاظات طفلي الأصغر في حين تنهي هي مهمتها، حين رجعت وجدت أن ابنتي ذات الأعوام التسعة صنعت شكلاً فنياً جميلاً من الأصداف البحرية التي بدت على شكل الرقم اثنين متبوعة بعلامة إكس أيضاً مصنوعة من الأصداف، ثم رقم اثنين آخر ثم خطين متوازيين صانعين علامة = ثم أخيراً الرقم أربعة، هي لم تفهم ما أردتها أن تفعله، بدلاً من ذلك، أعادت إنتاج

العملية الحسابية باستخدام الأصداف البحرية بدلاً من القلم، كيف فسرت لي ذلك؟ هذا ما تبدو عليه جداول الضرب، لقد تذكرت كيف تبدو المشكلة، رغم ذلك لم تكن قد فهمت بعد ما هي الرياضيات، الجمال في هذا التمرين -الفاشل على أي حال- هو أننا اكتشفنا معاً الفجوة في عقلها حيال عملية الضرب، كان ليفوتني هذا إن كانت قد جاوبت الأسئلة الموجودة في كتاب التمارين، لكن بإعطائها مهمة فقد كشفت لي الرابط المفقود بين كيف تعمل الرياضيات، وكيف تبدو الرياضيات. لعبنا بكثير من الأشياء المعدودة حتى أصبح لديها حسٌ متماسك بكيفية عمل تلك الطريقة المختصرة للجمع المتكرر، في الواقع لقد وضعنا هذه العمليات على أوراق ملاحظة مستخدمين القراءة كنظام دعم خلفي. أدركت بعد وقت أن تلك تحديداً كانت هي الخطوة المفقودة في تجربة تعلّمي أنا للرياضيات، لقد عزّزت ابنتي كفاءتها في الرياضيات عبر التجربة العملية والقراءة كليهما.

ساعدني لكي أفعّلها وحدي

ماريا مونيتسوري تقول إن الطلاب، في نمط الفصل الدراسي التقليدي، يمكن أن يُسمَعوا كثيراً يصرخون قائلين: «أريد أن أقوم بذلك بنفسِي!»، لكن في مساحة التعلُّم بالمونيتسوري يُسمَع الأطفال قائلين: «ساعدني لكي أفعّل ذلك وحدي»، الكبار هم أفضل الأصدقاء الذين يمكن لأطفالنا أن يحظوا بهم! كم واحداً منا يتذكر بعاطفةٍ مدرب رياضية أو مدرس مسرح من طفولته؟ هؤلاء الكبار الذين وثقوا

بك وآمنوا بقدرتك على فعل المهام الكبيرة غالبًا ما يُنظر إليهم كأفضل المعلمين (يا للعجب!). هؤلاء المعلمون ركزوا على مساعدة الأطفال على النجاح، حين يقول طفل: «أريد أن أستخدم حفارًا كهربائيًا»، ماذا ستفعل؟ هل ستعطيههم كتابًا عن الحفارات الكهربائية؟ في الحقيقة المهم هو إيجاد فرصة للتعاون مع ابنك، أطفال اليوم معزولون ومحميون تمامًا من جميع أنواع الخطر (أو بالأحرى التجربة)، لا عجب أن عالم ألعاب الفيديو مُغرٍ لهم إلى هذه الدرجة، إنه عالم من المغامرات غير المخطط لها، ويمكن فيه استخدام أدوات الكبار لتحصل على تجربة عملية ذات معنى وتحت سيطرتك بالكامل، تمامًا كالمايكروسكوب، تمامًا كالساكسفون، تمامًا كالفأس، التجارب المباشرة هي طريق مختصر للتفكير النقدي، إنها تحتاج من الطالب إلى أن يعدّل ويؤقلم أفكاره واختياراته على رد الفعل الذي يحصل عليه من العالم الحقيقي.

يقع الأطفال بشكل طبيعي في حب بعض التجارب المباشرة، والتي غالبًا ما نشير إلى أنها شغفهم واهتماماتهم، الشغف يعلم أطفالك ومراهقك مهارات تفكير نقدي لا تُحصى كلما خاضوا أكثر داخل تفاصيل تلك الموهبة أو النشاط تحديدًا، لكن من أجل تنمية نطاق واسع من مهارات التفكير النقدي، تصبح أحيانًا التجربة الجديدة تمامًا هي المعلم الأقوى، الطفل الذي ينجذب إلى سرعة وانطلاق اللعب بالألواح التزلج قد يتعلم معها مجموعة كاملة أخرى من مهارات التفكير النقدي في أثناء تعلمه الزراعة. الإيقاع الأبطأ والصبر على رؤية

النتائج والطقوس اليومية لتعلّم البذر والري والتعامل اليومي مع الطبيعة والطقس والفصول، هي ما تؤدي إلى مهارات كالإصرار والملاحظة الدقيقة والاحتفاظ بجدول والاستجابة للبيئة وإعطاء الرعاية. تخيل كم سيكون مفيداً لطالب في إتمام مرونة جسده ونظرته للعمق والسرعة وتتبع الاتجاهات في أثناء التزلج أنه قد حصل على تجربة تعلم زراعة متكاملة! حين تحدد المهارات التي تريد لأطفالك أن يكتسبوها، ضع في عين الاعتبار تجربة مباشرة جديدة يمكن أن تسهّل عليهم هذا التطور. أفضل طريقة يمكن بها تقديم التجربة الجديدة لهم هي عن طريق القيام بنشاطٍ معهم. استعِر شيئاً مما يعرفونه لترشدهم في أول خطوة في التجربة الجديدة: «هل تتذكر تلك الحيلة التي تعلمتها من التزلج لمدة ساعة كاملة؟ الصبر على بذر حديقتك سيشبه ذلك، إنه فعل متكرر على مدار الوقت سيؤدي بك إلى نتائج مذهلة».

التجربة غير المباشرة

طريقة أخرى للحصول على الخبرة في أثناء التعلم هي عن طريق التجربة غير المباشرة، ليس كل شيء نريد أن نعرفه يمكن أن نحصل عليه بالتجربة المباشرة (كمعرفتنا بالتاريخ)، ليس فقط هذا، نحن لا نملك الوقت لتحويل كل ما نريد أن نعرفه إلى تجربة مباشرة، من يستطيع تعلم كل آلة موسيقية في أوركسترا فقط ليحصل على معرفة أفضل حول الإكسيليفون والصنج؟ نحن نلجأ إلى الخبراء في الحقول المتنوعة لأن لديهم المعرفة الضرورية لتعليمنا أو لمساعدتنا أو لتسليتنا، التجربة غير

المباشرة قد تُكسبنا رهافة ووعياً وتقديرًا في التعامل مع موضوع معين،
التجارب غير المباشرة تقع تحت تصنيفين:

- مشاهدة خبير.

- تقريب التجربة لنفسك.

ربما لا تتعلم أبدًا كيف تعزف آلة ما، لكن الذهاب إلى حفلة
موسيقية سيتيح لك أن تشاهد عازفين مهرة في أثناء عملهم، وهذا ما
سيزيد تقديرك للموسيقى والموسيقيين. الوثائقيات تعرض تبصرات
الخبراء في أي عدد من الموضوعات، بداية من نفخ الزجاج كفنٍّ إلى
المهرجانات الدينية في الدول الأخرى، إلى كيفية عمل نظام العدالة
الجنائي في حياتنا، زيارات أماكن تشبه مبنى الكابيتول أو مصنعًا، أو
مزرعة، أو مأوى مشردين، أو مكان عبادة، أو ملعب رياضة هي ما تضع
الطلاب في صلة مع الخبراء.

طريقة أخرى لتشارك بشكلٍ غير مباشر في حقل دراسي هي تقريب
التجربة، حين أصبحت عائلتي مولعة بمراقبة الطيور، تساءل أطفالي
كيف تبقى الطيور دافئة في أثناء وجودها في المياه المجمدة، لقد
تعلمنا أن الطيور لديها غدة زيتية فوق ذيلها توفر لها تغطية حامية لمنع
انخفاض حرارة الجسم. وجدت تجربة تقريبية لكيف يعمل شعور
الطبقة الحامية، هذا هو ما فعلناه: أولاً ملأنا دلوًا بالمياه والثلج، ثم
غطينا إحدى أيادينا بمادة دهنية ثم وضعنا اليد الأخرى في الثلج لشعر
بقشعريرة الثلج، ثم انتظرنا لنرى كم المدة التي يمكن لهذه اليد أن
تحمل فيها البرودة حتى نضطر إلى إخراجها، ثم وضعنا اليد الأخرى

المغطاة بالمادة الدهنية ثم قسنا مجددًا المدة التي يمكن أن تتحملها، وتفاجأنا بالنتيجة، اليد المغطاة بالدهون بقيت دافئة (لمدة أطول مما كنا نمتلك الصبر لقياسها)، لذا أصبحنا نفهم الطيور في باحة منزلنا بطريقة أفضل كثيرًا!

هناك طرائق كثيرة لتقريب التجارب، القراءة تعطي مدخلًا للأحداث التاريخية والأماكن البعيدة وللناس الذين لن نقابلهم أبدًا، الأدب التاريخي يوفر تفاصيل مكانية ويعطي تجربة أكثر حميمية لدوافع الشخصيات وعادات التفكير والتحديات الشخصية في العهود المنصرمة.

باستثناء آلة الزمن فنحن لن نتمكن أبدًا من خلق تجربة مباشرة للتاريخ، يتحتم علينا الاسترشاد بالوثائق التاريخية لزيارة مدرج الكولوسيوم في روما أو للذهاب إلى متحف أو لمشاهدة فيلم من حقبة زمنية ما. ربما نجرب أن نعيش على أضواء الشموع ذات مساء لتقريب تجربة كيف كان يعيش الناس من دون كهرباء، أو أن نمشي خلال ساحة معركة أو أن نزور مقبرة دُفِن فيها الجنود المحاربون، فإن هذا سيقرب لنا إدراك إحصائيات عداد الموتى بشكل أكثر حقيقية. في مسرحية كالبؤساء يمكن أن تعطي للطالب حسًا أكثر حميمية لما كان موجودًا على حافة الخطر في أثناء الثورة الفرنسية، مسرحية هاملتون الموسيقية الشهيرة قامت بهذا الدور مع الطلاب الأمريكيين المعاصرين، أصبحت الأغاني مفتاحًا أساسيًا داخل الوثائق المتنوعة التي كُتبت في أثناء تأسيس الولايات المتحدة.

معظم تجارب الكيمياء المطبخية مصممة لتكون تجارب غير مباشرة، الإعصار في الزجاج، والقرنفل الذي يتغير لونه، وبركان صودا الخبز الشهيرة، والألعاب (كل ألعاب الواقع والإنترنت) جيدة جدًا في توفير التجارب غير المباشرة، في البيع والشراء وفي تتبع الخرائط، والعناية بحيوان منزلي أو عائلة، وبناء عالم، وأن تكون محققًا، وخلق هوية، والتعلم حول ثقافات أخرى؛ التجارب غير المباشرة تستدعي التفكير النقدي بطرائق مختلفة لتعيد تشكيل الأفكار المخزنة سابقًا ولتعمل على تعميق أي فهم سطحي وإضافة الرهافة والتقدير اللازمين للتعامل مع أي موضوع.

المشاركة عبر الخيال

طريقة أخرى لاستجلاب التجربة إلى الحياة في أثناء التعلم هي عن طريق خيالات أطفالنا الغنية، آخر الأبحاث حول الذاكرة طويلة المدى تقول بأن صناعة الذكرى ليست فقط تخزين بعض الحقائق في مجموعة من الملفات العقلية، هناك ديناميكية غالبًا ما تكون مفقودة في أثناء الحوار عن الذاكرة والتعلم، كما يقول إدmond بلير بول في عمله المهم «التذكر والنسيان»: «المشاعر، الرؤى، التذكيرات... جميعها تحفز الخيال، و«الخيال» هو أساس الذاكرة وليس السعة التخزينية».

حين نحفز عواطفنا ونستخدم خيالاتنا نكون أسرع في الاسترجاع والاستفادة مما حفظناه في ذاكرتنا طويلة المدى، يستخدم أطفالنا خيالاتهم بشكلٍ طبيعي لزيادة حميميتهم مع أي موضوع يحبون.

يرتدي الأطفال ملابس شخصياتهم الخارقة المفضّلة، ويمثلون أنهم يمتلكون قواهم الخارقة، حين قرأت روبين هود لابني الأكبر أراد بعدها أن يمتلك وشاحاً أخضر وقبعة، ارتداهما لشهور متنقلاً بهما بسهولة خارج وداخل هويته المتخيلة، برامج المسرح توفر نفس النوع من التجربة، ألعاب تمثيل الأدوار تسمح لك بتبني وجهة نظر مختلفة عنك عبر الخيال، الأطفال الصغار الذين يرتدون ملابس الأطفال الأكبر منهم ليلعبوا بها ألعاب تقمص أدوار قد اكتشفوا سرّاً صغيراً لقوة الخيال، وهو أنه يمكنهم بسهولة أن يفصلوا هوياتهم عن هويات الناس الذين يتقمصون أدوارهم، هذا يعني أنه إن كان طفلي كروين هود فسيسرق الأغنياء (أي سرقة خزانة مطبخي) ليطعم الفقراء (أي أخته الصغيرة)، فعليّ ألا أقلق أن ابني سيسرق الناس في العالم الحقيقي، بدلاً من ذلك فإن الأمر أشبه بكما لو كان قد ألقى بتعويذة مؤقتة على نفسه ليرى كيف سيكون شعور تبني وجهة النظر تلك، يتظاهر الأطفال بكونهم كلاباً عبر الزحف على أربع وتناول الطعام من طبق على الأرض فقط لينظروا إلى العالم من عيني الكلب، يتظاهرون بأنهم مدرسو مدرسة وملكات، وأيتام حرب ورياضيون مشهورون، نحن ككبار نشجع هذا النوع من اللعب، إنه تجريبي وله جذور في الخيال ولا يشكّل تهديداً على القيم التي نعلمها لهم في الأسرة.

حين يصبح المراهقون ممثلي مسرح فإنهم يأخذون هذا النوع من ألعاب التظاهر إلى مستوى جديد، إنهم يدخلون قصة مكتوبة ويتعرفون على دوافع الشخصيات ويختفون داخل فعل التمثيل، لا يعد المراهق

في هذه اللحظة حاضرًا باختيارات ودوافع الشخصية التي يجسدها على المسرح، الآن الممثل هو شخص معاق، أو أوتوقراطي جشع، أو عضو في مقاومة. يسمح التمثيل للممثل ببناء حائط داخله يفصل بين الشخص الذي يكونه والشخص الذي يجسده، لا أحد يغادر المسرحية وهو يعتقد أن الممثل له نفس معتقدات الشخصية التي جسدها، لكن بسبب التمثيل فإن الطالب يصبح على درجة أكثر حميمية من تفهّم منطق وجهة النظر الأخرى، وبالمثل تأتي ألعاب الفيديو بأنماطٍ متنوعة تسمح للأطفال بزيارة عوالم بديلة وبخلق هويات أصيلة، وفي بعض الأحيان تسمح لهم بتجربة التعاطف، حتى الألعاب التي تشبه جرانديفت أوتو Grand Theft Auto المعروفة بضربها عرض الحائط بالقانون والنظام، تسمح للاعبين باختبار العالم من دون قيود على مسافة آمنة، بعض الألعاب تتميز في إعطاء الأطفال دعوة ليسكنوا عالمًا جديدًا تمامًا عليهم، على سبيل المثال، لعبة الفيديو المسماة «أبدًا لست وحدك» معروفة بكونها لعبة عالم كامل، إنها تعرض سكان ألاسكا الأصليين كرواة قصة لتقديم حياة شعبهم الأصلي وعاداته للاعبين، «إنها تقدّم عادات الناس غير المحتفى بها عالميًا وتضعها في النور بثقة بقيمتها الجوهرية».

تقدم اللعبة مدخلًا داخل خيال ألاسكا للاعبين الغريبيين عنها، وبدلًا من ذلك فإنها تقدم للاعب الألاسكي تجربة أن يكون له تمثيل في لعبة فيديو، وهو ما سيسمح له بأن يشعر بأنه مرئي وذو صوت مسموع. التجارب المدفوعة بالخيال تعطي الطلاب فرصة ليتقمصوا وجهة نظر غريبة عنهم من دون خوف من خيانتهم لهوياتهم، حين نقرأ وثيقة

تاريخية نشعر بشكل طبيعي بإحساس التجذر داخل هوياتنا وتتفاعل بشكل عاطفي مع المحتوى، حين ندخل خيالنا لتتقمص رؤية شخص آخر للعالم (سواء عبر مشاهدة فيلم أو قراءة أدب تاريخي أو تمثيل أدوار)، فنحن نُنحّي جانباً رغبتنا في الموافقة أو الرفض، ببساطة نكتسب مدخلاً إلى طريقة أخرى في الوجود، يسمح لنا الخيال بقياس وجهة نظر جديدة علينا، بأن نرى نفس المنظر من منظور رسم جديد (كما ذكرنا في الفصل الثاني حين كنا نناقش المنظور في الرسم).

الحيل السحرية

هناك جانب آخر من قوة الخيال والتجربة في التفكير النقدي: الأطفال أذكاء، سؤالهم المُلح هو: «هل يمكنني الاعتماد على هذه التجربة، هذه الأرجوحة، هذا الشخص، هذا الشعور، هذا الاعتقاد، هذا البيت، هذه البيانات، هذه اليد، هذا المعلم، وجهة النظر تلك، هذا المجتمع؟»، تذكر أن إحدى المهارات المفتاحية في التفكير النقدي هي القدرة على تحري الموثوقية. التجارب المبكرة، تجارب الأطفال المبكرة مع الخداع لها تأثير كبير على كيفية تفكيرهم. فكّر في الحيل الورقية وخفة اليد، إنها تثير دهشة الأطفال وتبهجهم لأن الطرائق الموثوقة لمعرفة شيء ما تُعرّف عن طريق التعرف على الطرائق الأخرى التي لا يمكن أن تكون موثوقة، لم يكن هناك أي عملة وراء أذني ورغم ذلك فإن الساحر استخرج واحدة. المفاهيم الغربية عن سانتا كلوز وجنية الأسنان هي أمثلة على الخداع المقبول ثقافياً والذي يستهدف خيال الطفل، يرى الأطفال تلك القصص

والمعتقدات سحرية ومبهجة وقابلة للتصديق لأول وهلة، وفي النهاية يُفكِّك هذا الوهم وتُبطّل تعويذة سانتا كلوز وجنية الأسنان للكشف عن كونهم خيالات. تعرّض الطفل الأول لفكرة أن الواقع لا يتماثل مع ملاحظاته ومعتقداته هو لحظة إدراكية مهمة، ما هو مخبأ عن النظر وما يظهر فجأة داخل الصورة هو ما يخلق انطباعاً دائماً عند الطفل، تبدأ أمخاخهم بتعديل نفسها لتستوعب المعلومات الجديدة داخل رؤيتها الكونية: «ليس كل شيء أراه أو أصدقه حقيقياً».

حين يذاكر الطالب أي مادة فإن المفكر الماهر يريد أن يعرف ما هو مخبأ عن نظره في هذا النقاش، يريد أن يفهم إن كان هذا التقرير موثقاً، هل يمكن للطالب أن يتعرف على ما استُبعد من النقاش؟ هل سيُثار فضوله حيال نقاش آخر؟ هل يمكن لطفل أن يتحرى جودة تجربة ما؟ هل يمكن له أن يلاحظ الإحصائيات المضللة ليكشف الادعاء؟ تلك هي الخدع السحرية للمفكر الناقد الماهر. التدريب الأكاديمي في الإنسانيات أو في التاريخ، أو العلوم الاجتماعية، أو الأدب، أو العلوم السياسية، أو علم النفس، أو اللاهوت، أو الاتصالات، أو اللسانيات، أو الفلسفة... جميعها تحتاج إلى نفس مجموعة المهارات.

تحدي التجربة في أثناء التعلم

الجزء المخادع في الاعتماد على التجربة هو أن موضوعيتنا تكون مغلفة برؤانا والمعنى الذي نصنعه لأنفسنا، قدرة أي شخص على التفكير الناقد تتأثر بكل من تجاربه الإيجابية والصادمة على حدّ

سواء. التجارب التي نصنعها لأبنائنا يجب أن تكون معززة لهوياتهم من دون أن تقلل من شأن الهويات الأخرى في نفس الوقت، وهذا أفضل أساس للتعلّم الصحي الذي يقدر كرامة كل شخص. كثير من اللحظات التاريخية المهمة كانت صادمة للبشر الذين مروا بها، وآثار الصدمة تستمر اليوم في الأجيال اللاحقة.

لقد ذكرت سابقاً أن التمثيل يمكن أن يكون أداة جيدة لاستحضار التجربة داخل التعلّم، هناك نوعٌ مختلفٌ من لعب تمثيل الأدوار يمكن أن يكون خطراً، إعادة تمثيل الأحداث التاريخية داخل الفصول تعرّضنا لخطر إظهار عدم الاحترام أو خطر إساءة تأويل الأحداث التاريخية، وهذا قد يكون خطيراً، على سبيل المثال سنة ١٩٧١ نظّم معلمي في الصف الخامس فصلي في شكل محاكمة للمشاركين في القوات النازية بعد نحو عشرين عاماً من انتهاء الحرب العالمية الثانية، كلّفني المدرس بدور محامي الدفاع عن هيرمان جورينج، أحد أتباع هتلر المخلصين، وفي سن العاشرة كان عليّ أن أجد له مبرراً لمشاركته في الهولوكوست، ناقشت تاريخ الحرب مع والدي الذي كان يعمل محامياً، وقضيت ساعات أقلب في موسوعات العالم التي نمتلكها، حاولت أن أضع نفسي مكان عميلي، وبنيت دفاعاً بالفعل، جورينج كان يتبع الأوامر، ولم يكن قادراً على اتخاذ قرارات عقلانية بسبب إدمانه المورفين لمدة عشرين عاماً من عمره، حكم الطلاب على جورينج بالإدانة لمشاركته في قتل أكثر من ستة مليون يهودي. لأكن صادقة، جزءٌ مني كان محبطاً من الفشل في تبرئته، لقد كنت طفلة ووضعت كثيراً من الجهد في تلك

المهمة، أخذ الأمر مني عدة سنوات لأكتشف كم كانت هذه التجربة مضللة، مبدئيًا كان أكثر من ٨٠ بالمائة من طلاب مدرستنا يهودًا، هل لك أن تتخيل الطلاب اليهود يجلسون في المحاكمة في حين أسترسل أنا في إلقاء دفاعي الأبله عليهم، وأنا أعرف أن بعضًا من هؤلاء الطلاب ينتمون إلى عائلات قُتِل منها كثيرون في مخيمات اعتقال النازية؟ كم كانت تلك تجربة تعليمية مضللة!

مشروع ١٩١٦ الذي أطلقته نيويورك تايمز وجد محاولات غريبة أخرى لجعل التعلُّم حول العبودية تعلُّمًا بالتجربة، أحد الكبار يتذكر مناظرة حدثت في الفصل (جين زاي، ٣٣ عامًا) ويكتب: «لقد كنت على الجانب المعارض للعبودية، لذا نهضت وتكلّمت مع الفصل عن العائلات التي يتم تفريقها عن بعضها، والرضع الذين يتم انتشالهم من أحضان أمهاتهم، أذكر هذا النشاط بوضوح شديد لأنني ظننت أن حجتنا هي الأسهل والأوضح ببساطة، وأنا سنكسب النقاش بشكلٍ طبيعي، لقد صُدمت حين وجدت الحكام يصوّتون ضدنا!». هل من الأخلاقي أساسًا أن توضع العبودية كقضية للأطفال للتصويت عليها بنعم أو ضد؟ مدرسة أخرى من إنديانا أرادت من طلابها أن يختبروا ما يُسمّى بـ«الممر الأوسط Middle passage» (الرحلة العابرة للمحيط الأطلنطي التي مات فيها أكثر من مليوني إفريقي في أثناء نقلهم إلى أمريكا كعبيد)، لذا طلبت من طلابها أن يتكثروا على الأرض ثم بدأت في تكرار إغلاق الإضاءة وإنارتها في الغرفة قائلة لهم: تخيلوا الأمواج العتيدة وأصوات الرعد المرعبة. قالت لطلابها إن هذا ما شعر

به الأفارقة السود في هذه الرحلة المرعبة، هذا التقليل، والتعامل غير المدرك لحجم الكارثة، والظلم الذي تعرّض له الأفارقة الذين خُطفوا وعُومِلوا بإساءة وعنف من أجل بيعهم في الأسواق بالإكراه، لا يمكن أن يكون مقبولاً.

في شتاء ٢٠٢١ أعطت إحدى المعلمات تكليفاً كتابياً لطلاب المرحلة المتوسطة، كُلّفوا بكتابة رسائل كما لو كانوا مستعبدين، التوجيهات كانت تقول بأن عليهم إخبار عائلاتهم في إفريقيا عن حيواتهم في المزارع وعن العائلات التي يعملون لديها، وأن يصفوا مهامهم اليومية وأيامهم الماضية التي لم يكونوا يعملون فيها، بصرف النظر عن أنه أصلاً لم يكن مسموحاً للعبيد بتعلّم القراءة والكتابة، هذا التكاليف الكتابي هو عدم إدراك وإساءة في حق التجارب الحقيقية التي عاشها المستعبدون. الفصول التي تحاول خلق محاكاة لتلك الأحداث التاريخية في الحقيقة تعرّضها لخطر أن تتحوّل إلى محاكاة ترفيفية، كما أن هذا يعرّض القضية لاحتمال أن يُنظر إليها بطريقة أن كل شيء يحتمل الصواب والخطأ، وأن لكل جانب وجهة نظره، في الحقيقة ليس كل شيء كذلك.

العبودية والمجازر هما دائماً جريمتان أخلاقيتان، ومحاولة جعل المرء تخيّل نفسه جزءاً منها هي محاولة لوضع الأمر في غير حجمه الحقيقي وتعرّضها لإساءة الفهم بطريقة لا يجب التغاضي عنها.

الحراك الذي يشجع تلك الأنواع من تجارب المحاكاة في الفصول يُسمّى بحراك «التاريخ الحي»، اكتسبت شعبية في التعليم في العقود

الأخيرة لكنها تعرضت للانتقاد خلال السنين القليلة، التجربة تفيد لكن ينبغي لنا الحذر بخصوص ما سَيُعَلِّم، من المهم أن نسأل عما يُخْبَأُ عن النظر في هذا النشاط وما يُبرِّز على الجانب الآخر.

في أثناء البحث في آثار إعادة تمثيل الأحداث الكارثية في التاريخ، قابلني مقال كتبه أحد المتحمسين لفكرة التاريخ الحي، وصف المدرس تجربة إعادة تمثيل صنعتها طالبة لزملائها في الفصل عن سكان أمريكا الأصليين، بَنَتِ الطالبة مخيم نيران زائفًا وارتدت ما وصفه المعلم بـ«قبعة وقميص أصليين مصنوعين منزليًا» ثم وَزَعَت على الطلاب غليون سلام مزيّفًا في حين أخذت تحكي لهم عن حياتها في القبيلة، استدعى المعلم تلك التجربة قائلاً إن طلابه كانوا منجذبين للغاية، وهذا ما جعله يرى أن الدرس كان ناجحًا.

عَبَّرَ سكان أمريكا الأصليون كثيرًا عن أن تقاليدهم مقدسة، وأن غليون السلام وقبعات الرأس والريش الذي يستخدمونه في احتفالاتهم؛ ليست مصنوعة لتتم محاکاتها أو استخدامها من غير المتممين إلى قبائلهم، هذا المثال من تجارب التاريخ الحي اتخذ مسارًا منحرفًا. تخيّل طالبًا غير كاثوليكي يعيد خلق تجربة الكنيسة مرتديًا ملابسها بشكل مصنوع منزليًا ومقدّمًا نفسه كأحد القساوسة للطلاب، معظم الكاثوليكين سيعتبرون هذا مهينًا وتدنيسيًا. المحاكاة تجازف بنقل ما هو مقدس أو ما هو صادم من مجتمع إلى مجتمع آخر بشكل غير سليم أو لا يليق، حتى وإن كانت الدوافع نبيلة، هناك طرائق أخرى للتعلم تحفظ كرامة الثقافات الأخرى وتحميها، إحداها زيارة المعالم التاريخية.

المعالم التاريخية

قرأت مع أطفالي كتبًا حول العبودية وإلغائها والتحرر منها حين كنت أعلمهم منزليًا في أثناء وجودنا في كاليفورنيا، حين سكنا في سينسيناتي لأول مرة رأيت أنا وزوجي فرصة لإعطاء أطفالنا تجربة لتعزيز قراءتهم، أخذنا عائلتنا في رحلة إلى جنوب أوهايو في يوم شتوي في يناير، زرنا منزل رانكين، المحطة الأولى في خط القطار الشمالي، يقع منزل الرانكين أعلى نهر أوهايو ويطل على مدينة كنتاكي، يتم تذكر جو رانكين وعائلته كأحد أهم مرشدي قطار الأنفاق.

في اليوم الذي زرنا فيه هذا المكان كانت درجة الحرارة ١٦ فهرنهايت، ونحن كسكان كاليفورنيا لم نكن نعرف أن علينا البقاء داخل منازلنا حين تكون درجة الحرارة أقل من ٢٠ فهرنهايت، لفننا أنفسنا في معاطف استعرناها وتكومنا في السيارة من أجل الوصول إلى محطتنا، شعرنا بالرياح تعتصر خدودنا في أثناء مشينا من مكان موقف السيارات إلى المنزل الشهير، لقد أبهرنا بكونه صغيرًا جدًا مع العلم أن جون رانكين كان له ثلاثة عشر ابنًا! مشينا حتى نقطة الحراسة في نهاية الباحة، بدأ الثلج يتساقط، نظرنا من أعلى قمة المنحدر إلى ندف الثلج التي تسير مع النهر النابض الهائل، تعجّب أحد أطفالي: «كيف يمكن لأي إنسان أن يعبر نهر الأوهايو وينجو منه؟»، في أثناء ارتجافنا من البرد تساءلنا أيضًا كيف عبر هؤلاء الشجعان النهر ثم تسلقوا قمة التل وهم في غمرة ابتلالهم من دون أن يتجمدوا حتى الموت وصولًا إلى المنزل الذي أنقذ حياتهم.

لقد أذهلتنا الشجاعة والمسافات التي كان عليهم أن يقطعوها
هرباً من العبودية، وبالمثل شعرنا بالتواضع أمام المجازفات التي كان
على عائلة الرانكين أن يأخذوها ليؤمنوا لهم انتقالاً آمناً إلى الحرية،
وبالطريقة المعطاءة التي استخدموا بها منزلهم الصغير لحماية هؤلاء
الذين سافروا تلك المسافة الهائلة على قدميهم، كل القراءة وكل الأفلام
التي صُنعت عن التحرر من العبودية لم يكن لأحدها نفس التأثير الذي
كان ليوم متجمد في يناير، التجارب تحفز التفكير النقدي لأنها تتشابهك
مع المشاعر والمهارات والخيالات، لنبدأ في التفرقة بين ما هو مألوف
وما هو غامض حين نضيف التفكير النقدي إلى عدة أدواتنا.

نشاط : أسئلت للتأمل

- هذا سؤال جيد لتسأله لأي شخص يعبر عن رأيه بشكلٍ قطعي :
- ما التجربة التي خضتها مع هذه القضية / الشخص / الموضوع؟
 - سؤالان جيدان لتسألهم أنفسك في أثناء التدريس :
 - هل أضفت تجربة مباشرة أم غير مباشرة إلى هذا الموضوع؟
 - هل هناك طريقة لائحة لاستخدام الخيال لاكتساب حميمية أكثر
مع هذا الموضوع؟
 - القراءة والتجارب وسيلتان ضروريتان لاكتساب مداخل أكثر لأي
حقل دراسة. في خضم عملية الترويج للتفكير ذي الجودة، الأداة التالية
ستقلب الافتراضات والتصورات السابقة رأساً على عقب، المواجهة
هي الأداة الأكثر فعالية في تنمية العقل!

الفصل العاشر

المواجهة - أن تراوغ المراوغة

«ينبغي للحب والعاطفة أن يتسعا بما يكفي لاستيعاب الضحية والجاني. أخلاقيات المواجهة تعتمد على تغيير المرء لموقعه، وعلى الوصل المجتمعي من أجل مشاركة الحياة مع الآخرين رغم الاختلافات». ماركوس ميسشر، أخلاقيات المواجهة

حين كنت في مرحلة التخرج، أخذت درسًا غير حياتي، عرض علينا البروفيسور محاضرة متميزة في اليوم الأول (كان هذا تقريبًا ما شاركه معنا):

قصة أمريكا تبدأ هكذا:

السفينة نينا والسفينة بيتا والسفينة سانتا ماريا عبروا البحار الغدارة حاملين على متنها كريستوفر كولومبوس وطاقمه إلى العالم الجديد، أرض من الفرص، بعد سنوات عبّر قارب آخر اسمه «ماي فلاور» المحيط الأطلنطي بعدد أكبر من الأوروبيين وأرسى أساسًا للمجتمع

الحر في العالم الجديد، هؤلاء الحجاج هربوا من الاضطهاد الديني وبنوا تأسيسًا لنوع جديد من الحكومات يعامل كل الناس بمساواة، بإعطائهم حقوقًا لا يمكن سلبها منهم وبترويج الحرية الدينية.

استمعت إلى ذلك وفكرت في أن ها نحن مجددًا نتحدث عن تاريخ الولايات المتحدة، ثم توقف البروفيسور وقال: «من الذين لم يكونوا على تلك المراكب؟ قصة مَنْ هي التي لم تُرو؟ من يجلس الآن في هذه المحاضرة ويعلم أن تلك القصة لا تعبر عنه؟».

بوم! ضربة قوية لجهازي العصبي، لم أفكر قط في تلك الأسئلة، والحقيقة أن حتى أجدادي لم يكونوا على تلك القوارب، عائلتي أيرلندية ولم ينتقلوا إلى الولايات المتحدة حتى حدثت مجاعة البطاطس بعد ذلك بقرون، لكن بطريقة ما كان يعرف المرء نفسه من ضمن هؤلاء الحجاج.

تابع بروفيسور كلارك، كانت هناك قوارب أخرى، سفن عبودية كانت تنقل المستعبدين الأفارقة عبر المحيط رغمًا عن إرادتهم، كانوا يتمردون ليحافظوا على أنفسهم، قاوموا الاستعباد، عُوِّلوا بوحشية، من حكى تلك القصة؟ وفي أي سن سمع أحدنا بتلك القصة في المدرسة؟ كنت أعرف أنني لم أسمع قط بتلك القصة تُحكى بهذه الطريقة في المدرسة، توقف دكتور كلارك ثم تابع:

من أنتمي إليهم لم يأتوا خلال الدفعة الأولى من القوارب ولا على الماي فلاور، جلست في فصلي وأنا في الصف الثاني، وأنا أعلم أن القصة التي يحكيها أستاذي ليست قصتي، من أنتمي إليهم جاءوا على

سفن أخرى، على سفن الاستعباد، نعم ورغم ذلك فقد قاوموا الاستعباد بكل طاقتهم، المستوطنون البيض لم يأتوا إلى العراق الخالي أو إلى عالم جديد، كان هناك بالفعل من يعيش في أمريكا الشمالية وبنى مجتمعاته لنفسه بالفعل، هؤلاء السكان الأصليون تم غزوهم وفي أحيان كثيرة قُتِلوا وأجبروا على مغادرة الأرض، بينما حدث كل ذلك فإن أحفاد كل الوافدين إلى أمريكا يجلسون في الفصول من دون أن يسمعوا أيًا من تلك القصص.

كانت لغته مختلفة عن أي لغة سمعت بها سابقًا أي قصة عن تأسيس الولايات المتحدة، هذا يشبه الطريقة التي نظرنا بها إلى قصة الخنازير الثلاثة في الفصل الأول، لقد وُجِّهْتُ بتحوُّل في وجهات النظر، كانت عندي سردية واحدة تتحكم في رأسي ظننت أنها الأكثر صدقًا حول تاريخ أمريكا لأنها كُرِّرت كثيرًا، لقد دُعيت للاستماع إلى رواة قصص آخرين لأوسِّع وجهة نظري ولأضيف وجهات نظر وأفكر مرة أخرى في القصة التي أتبناها. كان هذا اليوم نقطة تحول في حياتي، لم تكن القراءة هي ما غيَّرت ما كنت أعتقد، ولم تكن رحلة ميدانية ولا محاكاة للتاريخ، بدلًا من ذلك لقد كنت مدعوة إلى مواجهة التجربة المختلفة تمامًا عني التي تعبر عن البروفيسور وذكريات صفه الثاني، هذا ما تعنيه المواجهة.

الطريق الذي تحتاج إليه لتصبح مفكرًا ناقدًا يتضمن القراءة بقرب وعمقٍ لتوسع أساس معرفتك، إنها تجعل الجسم بأكمله يتفاعل مع تجاربك، وهو ما يجعلها تطبع نفسها في ذاكرتك طويلة المدى. هناك

طريقة ثالثة لتطوّر بها مهارتك على التفكير النقدي رغم أنني أعتبرها الطريقة الأكثر أهمية والأكثر خطورة على حدّ سواء، كالسكين تقطع في منتصف مللنا الدراسي وما نتعامل معه باعتباره مسلمات، المواجهة هي تلك السكين، إنها تقطع داخل قناعاتنا الأساسية، النتيجة؟ الكشف والتبصرات ولحظات الدهشة، المواجهة تنجز عملها خلال المرات الأولى، أول مرة نسمع وجهة نظر أو نخوض تجربة، أحياناً خرق قاعدة قد يسبّب مواجهة، وعلى أي حال، أقوى المواجهات هي التي تحدث حين نقابل بشراً مختلفين ونسمع كيف يحكون قصصهم.

التعريف المألوف لكلمة «مواجهة» هو أن تقابل خصماً ما، هذا يذكّرني بالحكايات الكلاسيكية التي يقابل فيها البطل ساحرة أو ذئباً، ربما من أسس لهذا الشكل من الحكايات هي جدة بمكانة أم للحكايات الخرافية، حتى نقيّم ما إن كانت الساحرة طيبة أم شريرة فإن المواجهة هي المقابلة وجهًا لوجه مع المجهول.

المواجهة تسلب منا إحساس اليقين حين تهاجمنا فجأة، تضع جهلنا وقلة كفاءتنا في العرض العام، من قد يحب هذا الشعور؟ لكن إن صمدنا للمواجهة وعشناها، يا إلهي، كم من القصص التي سيكون علينا أن نعيد حكايتها! تخلق لنا المواجهة كنزاً من التبصرات، وعياً جديداً، حميمية، تواضعاً وتقديراً عميقاً لما نعرفه الآن ولم نكن نعرفه قبلاً، ما نتعلمه لا يصبح فقط جديراً بالذكر لكن أيضاً يكتسب معنى شخصياً. المواجهات تقوم بشيئين بشكلٍ جيدٍ جداً، تحدّي رؤانا الشخصية وتطلب منا أن نقيّم سرديات مجتمعا، المواجهة هي تجربة تحوّل.

تدفع المواجهة المتعلمين إلى آخر حدودهم، في بعض الأوقات تبدو كما لو كانت خطوة جريئة إلى الوراء في كل من الفهم والمهارة، فكّر في تعلم لغة جديدة، في اليوم الأول ستنتقل من التحدث الطلق بلغتك الأصلية إلى التأثأة كالطفل في اللغة الأخرى. المواجهة يمكن أن تكون مربكة وأحياناً صادمة، ما كنا نشعر بأنه طبيعي يتحول إلى غريب، ما نعرفه يصبح قيد المراجعة، تنمّي المواجهة استراتيجيات تفكير نقدي إضافية كتعلم تحمّل مسؤولية المجازفة وتعويد أنفسنا على التسامح مع عدم راحتنا، التفكير في تفكيرنا، الشعور بالحنين إلى طريقة أخرى للوجود.

في كتابها «تجديل الأعشاب الطبية» تُورد عالمة النبات الأمريكية الأصلية روبين وول كيميرير شرحاً رائعاً ما أقصده بالمواجهة. في أحد الفصول الدراسية أخذت روبين مجموعة من طلاب الكلية داخل الغابة لتقضية نهاية أسبوع هناك من دون معدات حديثة، كان مطلوباً من الشباب بناء ملجأ من النباتات وإيجاد مصادر للطعام مستقاة منها، ومعرفة الأدوية الطبيعية لمعالجة حروق الشمس والخدوش، لساكني المدينة كانت الرحلة شاقة، توقع الطلاب مواجهة مع الطبيعة، أكدت لهم كيميرير «الغابات هي المكان الأكثر أماناً على وجه الأرض». ظل الطلاب متوجسين قليلاً من التعمق في الأحراش، أخرجت لهم كيميرير قائمة من الأشياء التي تعرف أنهم لن يجدوها في أي بركة: أفاعي البحر، الرمال المتحركة، السلاحف البرّة العضاضة (التي تتوارى حين تشعر بحضور البشر).

مع صيحات الدعم، تقدم الشجعان داخل المياه الغامضة ثم شجعوا الآخرين على أتباعهم، بدأوا في حصد النباتات وتعلّم كيفية طبخها على النار، بنوا ملجأ مما جمعه من النباتات الأرضية، عالجوا خدوش بعضهم بعضاً طبيعياً باستخدام النباتات، بينما تتابعت الأيام، أصبحوا أكثر راحة، تم تحدي رؤاهم الشخصية، اتضح أن المكان ليس خطيراً، الغابة بها ما يكفي من الحماية، أُعيد ترتيب هوية مجتمعهم، الآن هم ليسوا مجرد سكان مدينة لكنهم متدربون على النجاة أيضاً، يتعلمون مهارات عملية من البروفيسور الحكيمة التي قضت آلاف الساعات في البرية، لقد انتقلوا من الاندهاش إلى الافتتان، حين عادوا إلى فصلهم الدراسي كانت رؤيتهم قد تحولت، قبل نهاية الأسبوع أقرّ كثير بأنهم كانوا غير عابئين بعالم الطبيعة وبعد رحلة التخيم أصبحوا يشعرون بحميمية تجاهه ورغبة في حمايته. مخاوف الطلاب المبدئية لم تكن لها علاقة بالواقع لكن برؤاهم المتخيّلة (الغابات المخيفة) وبالقصة المعتادة عند سكان المدينة (الطبيعة للمخلوقات وليست للبشر)، المواجهة في البداية أربكتهم وأفزعتهم، لكن بنهاية الأسبوع بدّلت المواجهة ما كانوا يظنون أنهم يعرفونه عن التخيم، تركتهم بعلاقة جديدة تماماً مع الطبيعة، هذا ما تفعله المواجهة.

تُخرجك المواجهة من منطقة راحتك لتُدخلك في منطقة انعدام مهارتك، والوعي الذي تملكه لن يكون كافياً ليسعفك في وقتها، بينما هناك تجارب تضعك في المركز (أنا سائح أبحث عن أماكن سياحية مصمّمة خصيصي لي)، فإن المواجهة تضعك خارج المركز (أنا

مغترب أعيش في الخارج، أحاول مع اللغة ومع التأقلم مع السكان المحليين)، أنت تملك اختيار تجاربك ولكن لا تملك طوال الوقت اختيار مواجهاتك، التجربة العادية تُبنى من مخزون المهارات الموجود عندك بالفعل، ستكون هناك تحديات بالطبع، لكن التجربة هي شيء يمكنك تصوره، مثلاً بمجرد أن تتعلم قراءة الموسيقى يمكنك أن تتخيل العزف على عديد من الآلات، إن كنت تجد متعة في المطبخ، يمكنك أن تختار خبز المعجنات كتحدي أكبر، تلك هي آلية التعلم المدرسي، تقدم المعلومات بشكلٍ متدرجٍ حتى تستطيع البناء عليها لنجاح أكبر.

المواجهات، على الجانب الآخر، تحفز نوعاً آخر من التفكير والتعلم، إنها توصل الطلاب إلى ما أسميه باحتفال التبصرات عبر خلخلة ما اعتادوا التسليم به، في مثال إجازة التخيم، طلاب كيميرير سبق لهم أن زاروا الغابات قبل هذه المرة، ما لم يفعلوه قبلها كان هو الاعتماد عليها، لقد رأوا الغابات والأشجار كنوع من مشاهد النزهة وليس كموارد للنجاة، بتقضية إجازة كاملة هناك عن عمدٍ واجه هؤلاء الصغار البالغون الطبيعة، وما تبصروا به هو أن تلك الغابة هبة، لقد كانت داعمة لحياة الإنسان وليست تهديداً لها، لقد شعروا بحميمية مع الغابة بدلت ما كان عندهم من لا مبالاة، المواجهات غالباً ما تكون درامية ومربكة للمزاج، وكثير من التجارب الأولى تقع في هذا التصنيف، المرات الأولى لها طريق في طبع نفسها على هوياتنا، تعلق في الذاكرة دائماً لأنها جديدة بالكامل، هناك مواجهات أخرى تعمل بطريقة التغيير الذي يحدث قطرة قطرة على فترة من الزمن كترية طفل أو القيام ببحث

أو الحياة في الخارج، تدفعنا المواجهة إلى التفكير مجدداً، لنوسّع ولنقدّر ولنأخذ في الاعتبار ما هو جديد.

أحياناً تلقي بنفسك في مواجهة (الحمل أو الزواج، التحدث بلغة جديدة، الانضمام إلى حركة احتجاجية، تغيير الدين، الذهاب للعلاج، العناية بطفل، التعلم من وجهة نظر جديدة عليك)، وأحياناً يُلقى بك فيها (الحمل، الطلاق، التشخيص بالسرطان، ولادة طفل معاق، دعوى قضائية، شهرة مفاجئة، الوقوع في الحب، التعرض لإعصار)، تُبدّل المواجهات الطريقة التي نفهم بها واقعنا الحالي، ما نسلم به يُزال فجأة ونُستدعى لتعديل وجهة نظرنا لتناسب النسق الجديد.

ثقافة المواجهة

في عدة أدوات التفكير النقدي، تعمق المواجهة علاقتنا بأي موضوع أو شخص، يستكشف ماركوس ميسشر في كتابه «أخلاقيات المواجهة» سمات ما يسميه بثقافة المواجهة، ويعرّف المواجهة بهذه الطريقة: «توفر لنا المواجهة لمحة من فكرة أن هناك دائماً المزيد لتعلمه عن أنفسنا وعن الآخرين والعالم»، ويتابع ليقول: «كل مواجهة تتضمن اختياراً، أن تتفاعل أو تتجاهل، أن تقبل أو ترفض»، مفهوم المواجهة يفرض حدوثاً في تغيير ديناميكية قوة ما. لحظة حدوث إدراك أن مواردنا الحالية لا تناسب التحدي الذي نواجهه هي اللحظة المحورية في المواجهة. تغيير ديناميكية القوة تضعنا في تواصل مباشر مع الطرائق الجديدة للرؤية. حين حكى أستاذاً تاريخ الولايات المتحدة من خلال

قصته الشخصية، فتح عينيَّ على رؤية مختلفة تمامًا للعالم، المثير هو أن في إمكاننا تدريب أنفسنا وأولادنا على إدراك لحظة المواجهة لكي نكون متبهيين لما تسعى اللحظة لتعليمه لنا (بدلاً من أن نبقي عالقين في عقولنا، نقاوم وننكر ونحكم عليها).

في الفصل الثاني أشرت إلى كتاب يُدعى «تأثير النظرة الشاملة»، المبدأ الذي يحمل نفس الاسم هو وسيلة فعالة جداً لتحفيز حدوث مواجهة، في الكتاب حين تمكّن رواد الفضاء من النظر إلى كوكبنا من الفضاء، تحرّروا حينها من الرؤية الوحيدة التي عرفوها للكوكب باعتباره أرضاً حصرية للبشر. لقد واجه الرواد الأرض بشكلٍ جديدٍ رغم أنهم عاشوا عليها حياتهم بأكملها. بطريقة مشابهة يمكننا أن نستدعي «تأثير النظرة الشاملة» في المواد الدراسية والعلاقات، وهو أن نساعد أبناءنا على الخروج من أنفسهم بما يكفي لتحفيز طريقة جديدة للرؤية. ليست كل المواجهات بنفس ضخامة الطيران في الفضاء، البعض فقط ومضات صغيرة من التبصرات، عثرت ابنتي على اكتشافٍ مذهلٍ حين استخدمت استراتيجية أصداف البحر لتعلّم الضرب، كانت تلك مواجهة حسابية، ماذا عن فنون اللغة؟ حين أعمل مع الأطفال على كتابتهم، أوفّر لهم استراتيجية لمساعدتهم على النظر إلى كتابتهم بأعين جديدة، أقترح عليهم طباعة المسودات مع ترك مساحات بين الكلمات ثم قص الجمل من الصفحات وفردها على مساحة يمكن النظر إليها من أعلى؛ رؤية الجمل متحررة من سياقاتها ستدفعك إلى أن ترى ما يمكن تطويره في كتابتك وسيكسبك عقلية المحرر في أثناء الكتابة.

المواجهة هي عملية إثارة طريقة جديدة للرؤية عن عمدٍ لنصل إلى مجموعة من التبصرات الجديدة، تأتي المواجهات بأشكالٍ مختلفة لكن دعونا نلقي نظرة على ثلاث طرائق منها:

- جرّب شيئاً لأول مرة.

- اكسر قاعدة.

- قابل شخصاً.

جرّب شيئاً لأول مرة

لا تستهن أبداً بقوة الجديد، أمخاخنا تعشق حقاً ما لا يزال بغلافه! التجديد هو المفتاح لتحفيز جميع التأمّلات الداخلية الجريئة، مرّاتنا الأولى تصنع لنا الذكريات، إنها تتطلب أن نستجمع شجاعتنا لنلقي بأنفسنا في المجهول. التحضير لأي مواجهة أولى قد يساعد، سواء عن طريق القراءة، أو الحوار، أو التجارب ذات الصلة، بمجرد أن يتم التحضير سيحين الوقت لتقديم المواجهة الجديدة التي ستدفع الطفل إلى البحث عن مصادر جديدة. إيقاظ مساعٍ جديدة عند الطفل سيزيد استعداديته لمواجهة التحدي القادم، أداة التفكير النقدي التي تساعدنا على الانغماس فيما هو جديد هي الاستعدادية للجرأة، في عاداته الستين للعقل يصف متخصص التعليم آرثر كوستا المفكرين الماهرين بالأشخاص الذين يدفعون أنفسهم إلى حدود كفاءتهم، إنهم يأخذون ما يسميه هو «بالمجازفات المسؤولة». هؤلاء المفكرون سيختارون

لأنفسهم التجارب التي تتطلب قدرًا كبيرًا من المرونة والعفوية والفشل المحتمل، إنهم يستخدمون التجارب السابقة وخلفيتهم المعلوماتية لتساعدهم على تقييم حجم هذه المجازفة. إنهم يرتجلون ويتكرونها ويمدّدون خيالهم، معظم تجارب ألعاب الفيديو تعطي تجربة تقع في هذا التصنيف، التحديات والمستويات الجديدة تُبقي المواجهة مستمرة، المهارات التي تحتاج إليها لتنتقل إلى مستوى أعلى ستتحداك وفي نفس الوقت ستبني على ما سبق واكتسبته من مهارات.

بعض الأمثلة الأخرى على المرات الأولى هي: الحصول على رخصة غطس أو إنقاذ حيوانات أو السفر في رحلة تبادل ثقافي، أو تعلم لعب آلة موسيقية، أو بدء مشروع، أو التأدية على مسرح، إلخ، الطفل الباحث عن المغامرة سيطور مهارة جيدة على إدارة المجازفات. نتائج هذه المجازفات ستتنوع في المهارات التي ستكتسب، لكن الثمار المؤكدة طرحها هي الثقة المتزايدة والعمل بطريقة تعاونية مع الآخرين والاستعدادية لاختبار أفكار واستراتيجيات جديدة.

هناك ملاحظة لتوضع في الحسبان في أثناء الدخول في إحدى التجارب الأولى، أن التجارب الأولى هي أحداث تحصل لمرة واحدة، لهذا فقد تترك انطباعًا خاطئًا. ما يجعل المواجهة أداة عظيمة لتطوير التفكير هي كونها ستكرر مع الوقت، أعطاني ابني شرحًا ممتازًا لهذا السيناريو بالتحديد، أحد أصدقائه حصل على منحة دراسية في الهند، في أول يوم منحة في نيودلهي رأى فيلاً يمشي وحده في منتصف الشارع في المدينة، ماذا كان أول ما طرأ على باله؟ تلك حقًا هي الهند، لقد كوّن

انطباعًا فوريًا بناءً على الصور النمطية التي كَوَّنَها سابقًا في أثناء حياته كأمرئكي. للمفارقة، بعدما عاش في الهند لمدة سنة، لم يَرَقُطْ أي أفيال تتجول في الشارع مجددًا، احتكاكه المنتظم بالهند على مدار السنة أعاد تشكيل كل ما كان يظن أنه شائع وكذلك ما كان يظن أنه غير شائع. تبين أن تجوُّل الأفيال في الشارع هو شيء نادر، اللقطة الوحيدة لا تُعد مواجهة، إنها لحظة من انحراف المسار قد تؤدي إلى تكوين انحياز أو كبر خفي إن تُرك من دون مراجعة. حين يدخل أطفالنا تجربة أولى من المهم تذكيرهم أن حدثًا واحدًا لا يُعد هو آخر حدود المواجهة، ولا داعي إلى تكوين الاستنتاجات فوريًا. اليوم الأول هو بداية العلاقة التي ستكونها مع المواجهة على مدار الوقت.

اكسرقاعدة

كما أكدت من بداية الفصل، المواجهات تكشف رؤانا الشخصية في حين نواجه نحن سرديات المجتمع، ما هو شائع بشكل أساسي يمكن اعتباره قصة المجتمع المنطقية حول ما ينبغي لنا تعلُّمه مع الوقت حتى يصل الطفل إلى كونه بالغًا. يسير التفكير بطريقة إن كان الطلاب يعرفون ما ينبغي لهم تعلُّمه، ثم تم تعليمهم القواعد والعمليات اللازمة لذلك، فإنهم سيصبحون متعلمين تعليمًا جيدًا، لكن ما الذي سيحدث إن لم يعرف الطفل كيف يصل بين نقاط ما تعلمه ليصل إلى صناعة المعنى منه؟ ماذا إن لم يُعد النظر في رؤاهم؟ مثلاً يمكن للطفل أن يعرف كيف يحل ورقة عمل لكن لن يكون بالضرورة قادرًا على استخلاص مفادها

في كتابته الشخصية، استرجاع ما تعلمه والحصول على تبصرات منه لن يكونا النتيجة إن كانت استراتيجية التعلم تهدف إلى المذاكرة ثم الحفظ ثم أداء الاختبار.

حين شاهدت أبنائي يبذلون جهودًا لتصحيح إملاء كلماتهم، سألت نفسي لماذا لا يسترجعون ببساطة ما علّمته لهم؟ ثم فكرت في حقيقة أن البالغين يعتمدون على العادة وعلى المعنى الشخصي وعلى الحس الذي كوّنه لما هو مناسب وما هو غير مناسب. أردت أن يكتسب أبنائي هذا، فأصبحت مهتمتي هي: «كيف يمكن أن أحفز تكوين المعنى عند أطفالي؟»، تساءلت: ماذا يمكن أن يحدث إن كسرنا القواعد ثم استكشفنا الإجابات الخاطئة والنظريات غير المألوفة؟

بدأتُ مع قواعد الإملاء، إحدى الطرائق التي يمكن أن تفكر بها في علامات الترقيم هي اعتبارها لغة أخرى يجب تعلّم قواعدها، تتغيّر علامات الترقيم بناءً على كل لغة ونظام كتابة. في الإنجليزية هناك سلسلة من النقاط والخطوط التي تتواصل مع القارئ، قواعد علامات الترقيم من شبه المستحيل إتقانها لكن رغم ذلك فإن عند معظمنا القدرة على الكتابة بأريحية كافية مع علامات الترقيم للوصول إلى نتائج جيدة، لماذا؟ لأن الكبار طوّروا علاقة شخصية مع علامات الترقيم بمرور الوقت بطريقة تحمل معنى شخصيًا لهم.

طريقتنا المعتادة لتعليمها هي عن طريق تدريسها كمجموعة من القواعد، ومن ثمّ محاسبة الأطفال على المفقود منها في كتابتهم، غالبًا بعلامات حمراء، يُكرّر الأطفال أخطاءهم مرة بعد الأخرى، وحتى عند

البالغين، كثير منا لا يزال يجد نفسه متأففاً من قواعد الفواصل والفواصل المنقوطة، لذا قررت أن أخوض تجربة مع أطفالى .

بدلاً من تدريسهم متى وكيف من المفترض أن تظهر الفواصل فى الجمل، حضرت درساً لكسر القواعد بدأته بقراءة جملة ذات فواصل، وفى أثناء قراءتى أظهرت سكتات مؤقتة عن الفواصل، وسألت أطفالى: «ماذا لاحظتم فى أثناء قراءتى؟»، لم يلاحظ أحد منهم أى شىء، لقد كنت بالنسبة إليهم أقرأ جهرياً كالمعتاد، لذا خطوتى القادمة كانت إضافة الفواصل بعد كل كلمة، أعطيت الصفحة لأحدهم وطلبت منه أن يقرأها جهرياً تحت إرشاد الفواصل .

قرأ وبحسه الطبيعى لم يتوقف عند الفواصل الإضافية، أوقفته وقرأت ثلاث كلمات مع توقفات عند الفواصل بهذه الطريقة: «لقد، وقف، ثم».

ثم أعطيته الورقة ليقرأها مجدداً وهو يطبع الفواصل: «لقد، وقف، ثم، قام، بالحركة، والتقط، الكرة، ثم، ألقى، بها».

هذه المرة تعالت الضحكات، بدت الجملة مضحكة جداً مع كل تلك السكتات، بدت غير طبيعية، اقترحت على طفلى أن يزيل كل الفواصل التى لا يريد ثم يقرأ مجدداً، مرة أخرى وهو يطبع ما تبقى من الفواصل، أزال قليلاً منها ثم قرأ مجدداً، بقيت الجملة مضحكة! استمررنا فى اللعب مع إزالة الفواصل وإضافتها حتى اتضحت لنا أفضل الأماكن لإضافتها، تماماً كما كانت فى نسختها الأصلية، أعدنا قراءة الجملة جهرياً مع وعينا أن فى هذه المرة كنّا نطبع الفواصل بالفعل وهى فى الأماكن الصحيحة .

انتقلنا إلى جملة أخرى، أزلتُ جميع الفواصل منها من البداية، قرأناها منطلقين من دون أي سكتات، سألتهم: كيف شعروا بها؟ هل أردتم التوقف في أي وقت؟ قرأنا الجملة مجددًا ولاحظنا أن أنفاسنا الطبيعية تتعارض مع تدفقها، اخترنا وضع الفواصل بين تلك الكلمات، في النهاية قارنا اختياراتنا بالنسخة الأصلية، في الحقيقة لقد قمنا باختيارات مختلفة عن اختيارات الكاتب الأصلية، وهذا ما فتح نقاشًا مختلفًا تمامًا حول استخدامات الفواصل التي لا تعني بالتقاط الأنفاس أكثر من التحكم في المعنى.

يمكن لهذا النشاط أن يتوسّع أكثر في العصر الرقمي، لن أنسى أبدًا ابنتي في سن الجامعة وردّ فعلها على نصّ أرسلته إليها؛ انتقلت من المزاج الدافئ الودود المرسل لإيموجيز تعبر عن الحب والسعادة إلى حالة من الرسمية والصرامة، حين سألتها ما المشكلة قالت لي: «لقد أنهيت رسالتك السابقة بنقطة، لماذا أنتِ غاضبة مني؟»، اتصلتُ بها وتبين أن نقطة نهاية الجملة لها معنى في عالم التواصل الافتراضي يقول بأن هناك شعورًا بعدم الارتياح ورغبة في إنهاء الحوار. ظننت أن إضافة النقاط في نهاية الجمل تعبر عن الترقيم الجيد!

أبناء العصر الرقمي الآن يعيدون اختراع كيفية استخدام الترقيم لأنهم يقضون وقتًا طويلًا جدًا على الإنترنت، تويتر وإنستجرام يعملان بتعداد الحروف، وكثير من منطديات النقاش تتضمن قاموسًا كبيرًا من الإيموجيز التي تُستخدم بديلًا عن الكلمات، وعادات التواصل تؤسّس طرائق مختلفة للفرقة بين الاحترام والاستهزاء.

إن كان لي أن أطبق المواجهة بطريقة «اكسر قاعدة» اليوم، فسأدعو عائلتي إلى تطبيق الرسائل السريعة، وأرسل إليهم جميعاً رسائل بها علامات ترقيم غريبة لنناقش كيف جعلتهم يشعرون! هل يمكنني التواصل من دون كلمات بالاعتماد فقط على الإيموجيز؟ أتذكر تحدياً رقمياً انتشر منذ سنوات كان يدور حول شرح حبكة رواية باستخدام الإيموجيز فقط. مونتانا ابنة صديقتي باتريس أرسلت حبكة رواية البؤساء بأكملها مستخدمة إيموجيز الأعلام الفرنسية والأرغفة والبنادق والوجوه، إن كان لديك علمٌ سابق بالقصة فستمكن من تتبعها بسهولة بمجرد النظر في كل صورة.

يمكننا أن نسأل أسئلة أخرى: ما التغييرات التي أتمنى أن تنتشر في طريقة ترقيم الناس لرسائلهم؟ ما اختلافات الأنماط بين الأجيال؟ كسر القاعدة يمكننا من تحفيز تأمل الذات وتصحيحها، إليكم بعض مواجهات نفس النمط التي يمكنكم استشارتها:

- اقرأ الصفحة الأخيرة من أي كتاب أولاً ثم اسأل: ماذا سنفهم من القصة إن قرأنا صفحتها الأولى أولاً؟ ماذا نتوقع أن يكون موضوع الكتاب؟ ثم اقرأ الكتاب وقارن بين ما توقعته وما وجدته، جرّب هذا مجدداً مع كتاب آخر، ولكن اختر صفحة عشوائية منه لتطلع عليها قبل أن تقرأ واسأل نفسك: ما الذي يمكن أن نعرفه عن القصة من تلك اللمحة؟ ثم اقرأه وقارن مجدداً توقعاتك بما وجدته.

- اقرأ كتاباً من الخلف إلى الأمام، كيف تشعر بذلك؟

- جرّب أن تدع طفلك يخلق حواراً بناءً على قصة حكيته له،

ليحوّلها إلى قصة مصورة أو نصّ حواري، كيف يغيّر هذا من قراءتك للقصة؟

- جرّب أن تحوّل الشرير في فيلم إلى بطل، كيف ستعيد حكي القصة؟

- تخيل تاريخًا بديلاً، ماذا إن لم تكن هناك قط تجارة عبودية؟ ماذا إن خسر الحلفاء الحرب العالمية الثانية؟ ماذا إن كتبت النساء الدستور؟ ماذا قد يكون قد اختلف؟ قد يحتاج هذا إلى بعض البحث.

- فكّر في طرائق جديدة للخسارة في لعبة، كم طريقة وجدت؟
- فكّر في القضايا الاجتماعية، ماذا قد يحدث إن قرر أحد أصحاب الشركات أن يدفع الرواتب بناءً على أحجام العائلات، ليحصل الشخص الذي لديه خمسة أطفال على راتب أكبر مما يحصل عليه الشخص الذي ليس عنده أولاد، كيف سيغير هذا من أحجام العائلات والطريقة التي يرى بها العاملون وظائفهم؟

- حوّل القصيدة إلى نثر أو خذ فقرة من نصّ نثري وحوّلها إلى قصيدة.

- نفّذ وصفة خبز، ضاعف بعض المكونات وقلّل من مكونات أخرى، ماذا وجدت؟

- اختر مقال رأي يتفق ابنك مع طرحه، واطلب منه أن يعيد كتابته من وجهة النظر الأخرى من دون أن يكشف أبداً اعتقاده الحقيقي.

- غير كل ضمائر المذكر في نصّ ما إلى ضمائر المؤنث والعكس،
ماذا سيكتشف ابنك؟

أن تكسر قاعدة يعني أن تثير علاقة مختلفة بين الفعل الأصلي
وطريقة التفكير فيه، هذه المواجهات هي مثيرات عظيمة جدًا لعادات
التفكير.

قابل شخصًا

أود أن أقول إن الآخرين «راديكاليات مجانية»، هم لا يخضعون
لأبنيتنا الفكرية التي تقول من نحن، وكيف ينبغي لنا أن نتصرف، لديهم
هوياتهم المعقدة وسرديات مجتمعاتهم ورؤى ليطرحوها، يستجيبون
لنفس المثيرات التي تتعرض لها بطريقة مختلفة، يصنعون معاني قد
تبدو متشابهة مع معانينا لكن بفحصٍ أقرب سنجدّها مستقاة من مصادر
مختلفة. أسرع طريقة لتنمية عقل هي عن طريق مقابلة عددية من البشر،
أسهل طريقة للقيام بذلك هي عن طريق التجارب غير المباشرة كقراءة
كتاب أو مدونات شخصية أو مشاهدة فيلم أو مشاهدة محاضرة أو
خطاب من تيد. حين نطلع من بعيد على الرؤية الكونية لشخصٍ ما فإننا
نعطي أنفسنا فرصة لمشاهد كيف كشفت الحياة عن نفسها لهم. يمكننا
أن نلاحظ ما لا نتفق معه من دون أن نقلق بأن هذا سيسيء إليهم، هناك
وقت وخصوصية متاحان ليعطينا الفرصة لتكوين رأي حول ما يبدو
غريبًا وجديدًا علينا.

على أي حال، إن كانت لديك فرصة الحصول على مواجهة مباشرة
مع شخص حقيقي فخذها، إن كنت تريد أن تعرف ما هو شعور أن تكون

متدبّيناً، أو تفهم تجربة اللاجئين، أو لديك تساؤلات حول كيفية عمل علماء الفيزياء الفلكية، فإن أفضل طريقة في حالة التجارب المباشرة هي أن تكون صداقة مع هذا الشخص؛ هناك عدد لا نهائي من البشر بعدد لا نهائي من وجهات النظر في انتظار معرفتها. إحدى الطرائق التي ستزيد من قدرة طفلك على فهم العالم هي أن تقاوم النزوع داخل مأوى يحميه من البشر الذين يفكرون بطرائق مختلفة في محيط العائلة والأصدقاء، بل وإقامة العلاقات معهم بدلاً من ذلك، هذا أيضاً سيزيد من اكتساب مهارات المعيشة (على سبيل المثال، تعلم كيفية تحضير أكالات من ثقافة أخرى).

في تربية الأطفال يمكننا أن نخطئ بإعطائهم حساً أقوى من اللازم بهوياتهم ليصبحوا بذلك غير مستعدين لتحمل أي بشر مختلفين قد يقابلونهم في عالم التنوع الذي يعيشون فيه. من المهم للأطفال والمراهقين أن يتعلموا حول أنماط حياة المجتمعات المختلفة عنهم قبل أن يقابلوهم على الحقيقة. أتذكر حين انضم أطفالني إلى صفّ تعلم تمثيل شكسبيري مصمم للمراهقين، جاءوا إلى المنزل بعد أول يوم محمّلين بالأسئلة حول الأديان والأعراق والهويات المختلفة لأصدقائهم الجدد، هذه المواجهات أدت إلى نمو هائل خلال جميع السنين التي حدثت على مدارها، اتفاننا أو اختلافنا لا يعني شيئاً حين نقابل شخصاً وجهاً لوجه. علاقاتنا ليست موضوعات للنقاش، المفتاح في مواجهة الآخرين هو تطوير مهارة التفكير النقدي التي تُدعى «التسامح»، لكن دعني أقولها بطريقة مختلفة بما أني سأستخدم المصطلح هنا بمعنى ربما لم تسمع به من قبل.

التسامح

في لعبة الحياة، إحدى البطاقات التي نحب أن يلعبها من نقضي وقتًا معه هي «التسامح»، نريد أن نفهم وألا يُحكّم علينا، أن نجد القبول، لكن البشر لا يكونون بنفس السرعة في إبداء تلك الاستعداديات حين يقابلون أشخاصًا من خارج مجتمعاتهم المختارة. حتى حين يقوم الأمريكيون بالاستفتاء على قرار فإنهم يتوقون إلى ظهور بعض من روح الكرم بين أصناف البشر المختلفة، إنهم يستشهدون بالتسامح والتعاطف لأنهما صفتان مفقودتان قومياً بشكل أساسي، لو كنا فقط أقل نقدًا بعضنا لبعض، يطلب الآباء من أبنائهم باستمرار أن يتسامحوا مع هم أقل منهم في الامتيازات، أو مع أصحاب الديانات الأخرى، أو مع هؤلاء الأطفال غربيي الأطوار في المدرسة. أدت كثير من الانقسامات السياسية والدينية إلى حالة من الارتباك وعدم الثقة لا حلَّ معها سوى التمسك بالتسامح، كأن الأمر عبارة عن تمسك بالتحضر رغم جميع الانزعاج والضيق الذي نشعر به حيال نفس الأشخاص.

رغم ذلك، فإن كيفية الوصول إلى الهدف ما زالت غير واضحة، ما المهارة التي نحتاج إليها لنعرف شخصًا مختلفًا عنا؟ إنها ليست القدرة على التسامح معهم، ولكنها القدرة على التسامح مع عدم راحتنا نحن، وهذا يعني ملاحظة ردود أفعالنا الجسمانية والأفكار الدفاعية التي تأتي إلينا، والصور النمطية التي نحفظ بها لحماية تفكيرنا. الوعي بالذات هو المفتاح، لقد اختبرت مثلاً رائعاً على فعالية المواجهة في المغرب،

على نحو طبيعي فإن تجربة الحياة في الخارج هي بالأساس مواجهة ممتدة بدءًا من اللغات وحتى الطعام وعادات التسوق إلى كيفية تكوين الأصدقاء. إليك مثالًا على مواجهة معينة يشرح جيدًا كيف كان التسامح مع عدم راحتي هو المدخل لحدوث تبصر كبير، كنت أسكن في حي يبعد عدة أميال عن المدينة، أسهل طريقة للوصول إلى المدينة كان عن طريق التاكسي، ولانتظاره تجمّع الجيران تحت علامة انتظار التاكسي، أول مرة اقتربت من تلك العلامة وقفت عند ما ظننته الطابور، كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص مجتمعين أمامي، حين وصلت السيارة حدث شيء أذهلني، الشخص الذي كان يقف في مقدمة الصف لم يكن هو أول من ركب، لقد تم الدفع بها جانبًا وتقدمت امرأة أخرى لتدفع بنفسها وابنتها إلى داخل التاكسي وهي تصيح بالجميع أن يتعدوا، لقد كنت مصدومة صدمةً مزللة، رد فعلي الفوري كان الفرع والغضب، لماذا لا يستطيع هؤلاء الناس أخذ أدوار، كيف سأتمكن من الحصول على تاكسي وأنا امرأة طولي خمسة أقدام وإنشان، وقفت عند علامة التاكسي لمدة ساعة أشاهد شخصًا تلو الآخر يقفزون بأنفسهم داخل التاكسيات قبل أن يتمكن أحد من إيقافهم.

كنت في حالة يُرثى لها، لم أتمكن من استجماع شجاعتي لمنافسة الزحام والحصول على حقي رغم احتياجي إلى الذهاب إلى المدينة، كانت اعتراضاتي على الأسلوب بلا أي طائل، لقد خضت المعركة في عقلي مرة بعد مرة وخسرت في كل مرة، هذا لن يجدي في شيء، يجب على أحد أن يوقف تلك الفوضى، والآن إن أردت أن أحصل على

تاكسي فسيتحتم عليّ التعامل مع الواقع من دون النظر إلى رأيي فيه. في أثناء وقوفي في نفس حالة الصدمة جاءت صديقة مغربية وسحبتني من ذراعي لتلقي بي داخل التاكسي معها، حتى حينما كان عقلي ما زال يصيح أن هذا غير لائق، ربما تشعر أنت بهذا أيضًا إن كنت تنتمي إلى ثقافة الانتظار في الطابور.

ما كان عليّ تعلّمه ليس هو التسامح مع النظام المغربي، ولكن كان عليّ التسامح مع عدم ارتياحي معه، لقد تسامحت مع الغضب الذي شعرت به، وحكمي على النظام بكونه غير منطقي، ومن ثمّ تعلمت كيف أحصل على تاكسي، وهذا ما كان يعني التسامح مع عدة انزعاجات أخرى، وهي أن أصبح عدائية، وأن أدفع بأجسام الآخرين بعيدًا لأفسح لنفسي الطريق.

مرّت الشهور وتطورت مهارتي في الأمر، زارتنني أختي ومشينا إلى علامة انتظار التاكسي، كنت قد نسيت أن أمهد لها الأمر، تجمّع عدد من الناس وكنت قد تعلّمت أن هناك نظامًا خفيًا آخر وراء هذا النظام، أنت لن تذهب أبدًا لتأخذ أول تاكسي سيصل، وأيضًا لن تنتظر أن يعطيك أحد دورك، عليك فقط أن تنتظر أن يحصل شخصان أو ثلاثة قبلك على التاكسيات ثم تتقدم أنت لتحصل على نصيبك، سحبت ذراع أختي حينها ودفعتها إلى داخل التاكسي لتصبح هي: ماذا تفعلين؟! فتحت الباب وأنا أ منع أي شخص آخر من الدخول وأصبح بالعربية: «ابتعدوا! هذا دوري»، وبهذا ابتعدت الجموع، وجلسنا نحن في سعادة إلى طريقنا إلى قلب المدينة، تعرضت إرين لنفس الصدمة التي تعرضت

لها منذ شهور، تساءلت سريعاً عن طبيعة ما حدث، وتفاجأت أنا بنفسى حين وجدت نفسى لم أعد أشعر بأن هذا النظام مريع.

فى الحقيقة اكتشفت شيئاً خلال تلك المواجهات المتكررة، إن كنت متأخراً على ميعادك يمكنك أن تعلن حاجتك إلى الحصول على تاكسى أولاً، وستفسح لك تلك الجموع مجالاً لتأخذ توصيلتك أولاً قبل من يستحقونها بالفعل. كان الأمر بسيطاً لكن نادراً ما أجده يحدث فى الولايات المتحدة حيث تُستبعد ظروفنا الشخصية من أجل الالتزام بالأدوار تحت أى ظرف. ليس هذا فقط، لكن مشهد النساء اللائى يرتدين أغطية للوجه والرأس وهن يستحوذن على مساحات ويرفعن أصواتهن ليحصلن على أدوارهن جاء ليفكك تماماً كل شيء ظننت أنى أعرفه عن طبيعة المرأة المسلمة.

اكتشفت أن التسامح ليس فقط التنازل من أجل الآخر مع نظرة شفقة، لكن أن تكون واعياً بذلك كفايةً لتحمل انزعاجك لمدة طويلة بما فيه الكفاية لترى من أمامك وتتعلم منه. التسامح مع مشاعرك وأفكارك الخارجة عن السيطرة سيسمح للمواجهة بأن يكون لها أثرٌ فعّال عليك. أتذكر بوب فرانسيس، الذى أطلق بابويته بحملة أسماها «ثورة الرقة»، كان جوهر رسالته هو أننا اعتدنا أن نكون غير عابئين، هذا الشعور يدعمه اختيارك لأن تبقى بعيداً عن الآخر، أن تخلق قصصاً عن مجموعات البشر الغربية عنك وأن تقرأها بدلاً من أن تقابلهم بالفعل. ربما نسمي أنفسنا متسامحين من دون أن نقابلهم بالعقل، من أجل تعميق شعورنا بالمسؤولية والاتصال بالآخر نحتاج إلى ثقافة المواجهة

التي تضعنا وجهاً لوجه بعضنا مع بعض، كما قال البابا في محاضرة تيد التي ألقاها: «إن لم أتوقف وأنظر وألمس، وإن لم أتكلم، فإنني لن أتمكن من المواجهة ولا من خلق ثقافة المواجهة». استعداديتنا للتسامح مع انزعاجنا هي ما ستسهّل المواجهات علينا وعلى الآخر، المواجهات لا تُعنى بالقبول أو الرفض لطريقة حياة شخص ما، إنها في الواقع فرص لاكتساب الفهم والتبصر.

أنشطة: أسئلة مستفزة ومجتمع متنوع

أسئلة مستفزة: حين كانت ابنتي المتعلمة منزلياً تتجهز لدراسة تاريخ الولايات المتحدة، أعلنت أنها ملّت من سماع قصة إنشاء الولايات المتحدة تُروى من وجهة نظر الرجال، تساءلت عن الدور الذي لعبته المرأة في الإنشاء والتطوير المستمر. وجدت كتاباً تجميعياً لرسائل أصلية كتبتها نساء أمريكيات بداية من الحرب الثورية حتى القرن الواحد والعشرين يُدعى «رسائل النساء»، حرّره ليسا جرينوالد وستيفن إيدلر. تلك الرسائل كانت تقارير مباشرة، قرأنا رسائل من نساء كثيرات، منهن إبيجايل آدامز، وسوجرنر تروث، وامرأة شيروكية، يكتبن للحكومة سنة ١٨١٨، كنا قادرين على طرح أسئلة مهمة كـ «ما الذي كن في حاجة إليه ولم يحصلن عليه في أثناء التأسيس؟»، و«كيف كان للنساء الملونات والساكنات الأصليات أثرٌ في حركة حقوق المرأة؟»، تلك الرسائل عبرت خلال الزمن وبدت كما لو كانت تتحدث إلينا مباشرة.

لدى أطفالنا الفرصة لمقابلة تعددية كبيرة من البشر في القصص التي تُروى في التاريخ والأدب وخلال الحركات السياسية والاجتماعية، يمكننا استشارة مواجهة معهم عن طريق طرح الأسئلة التي تتحدى السردية المجتمعية، مثلاً، تخيّل تدريس حقبة الاستيطان الأوروبي من تاريخ الولايات المتحدة، لا توجد قصة واحدة هي الصحيحة دائماً، ابدأ بسرّد القصة التي تعرفها بالفعل ثم اطرح تلك الأسئلة:

اسأل: مَنْ يحكي تلك النسخة من القصة؟

متابعة: مَنْ الذين لم يُذكروا في هذه النسخة؟ ماذا نعرف عنهم؟

تساؤلات أكثر: ماذا كان هدف المستكشفين الأصليين؟ من كانت له السلطة في الأمر بتنفيذ المستوطنة؟ من كان يعترف بالسلطة، ومن لم يكن يعترف بها؟

اسأل: ماذا كانت مهمة المستوطنين الأوائل؟ من استفاد مما حدث ومن لم يستفد؟

فكّر: من يقرر من هم الأبطال في التاريخ؟ وعلى أي أساس؟ من يقرر من هم الأشرار وعلى أي أساس؟

اسأل: ما الأصوات التي تُجوهلت في التاريخ؟ وما الأصوات التي اعتُرف بها؟

تساؤلات أكثر: ما القيمة الكامنة التي يُروّج لها في هذه النسخة من القصة؟ ومن قبل من؟ ما الجيد فيها؟

بالإضافة إلى طرح تلك الأسئلة، يمكن للطلاب أن يراقبوا ردود أفعالهم ليلاحظوا ما المثير للانزعاج وعدم الراحة لهم، إليكم بعض الأسئلة التي قد تساعدهم في الحفاظ على وعيهم بذاتهم في أثناء التفكير:

تساؤلات أعمق: ما الذي تريده أن يكون حقيقة؟ ولماذا تريد ذلك؟
فكر: ما الذي تخشى من أن يكون هو الحقيقة؟ من أي نسخة من القصة تخاف؟

اسأل: كيف تؤثر أو تضر تلك النسخة من القصة صورتك عن نفسك؟

تفقد نفسك: هل تلاحظ أي تغييرات جسمانية أو انفعالية على نفسك؟ ما هي؟

تواصل: ماذا تظنه قد سبب هذا الانفعال؟ وكيف تفسره؟
تلك النوعية من الأسئلة تثير مواجهة مع الموضوع، اسأل أبناءك إن كانت ردود أفعالهم مستقاة من وجهات نظر شخصية أم من سردية مجتمعية.

ثم أعد رواية التاريخ من وجهة نظر مختلفة عبر الانتقال إلى رواة قصص آخرين، حتى بنية القصة قد تجدها تغيرت، مثلاً، السكان الأصليون لأمريكا لا توجد عندهم قصة اكتشاف أمريكا، لديهم إطار آخر لعلاقتهم بما يسمونه جزيرة السلحفاة. باستخدام الأسئلة في النموذج بالأعلى اطرح أسئلة تتوافق مع النسخة الأخرى من القصة.

مجتمع التنوع

أفضل المواجهات هي التي تستمع فيها من صاحب التجربة مباشرة سواء عن طريق كتابته أو اللقاءات التلفزيونية أو مقابلته وجهًا لوجه، اقترحت في الفصل السابع أن تبني لأبنائك مكتبة التنوع، في هذا الفصل أقترح أن تملأ حياتهم بمجتمع التنوع.

- الرسائل، والمذكرات، والتسجيلات والتقارير؛ جميعها مصادر مهمة في تعلُّم التاريخ، حتى إن كنت تضيف إلى تعليم أولادك قليلًا منها فقط، فإنها ستصنع فارقًا عظيمًا في مساعدتهم على رؤية الأشخاص الحقيقيين في التاريخ. استغل الإنترنت في المساعدة على الحصول على تلك الصور والتسجيلات. هناك شيء في رؤية الكتابة بخط اليد تجعل الأمر شخصيًا جدًا مع هذا النوع من الوثائق التاريخية، للتجربة المباشرة أثرٌ نفسيٌّ يستحق أن تُحلَّله مع أولادك.

- الأفلام الوثائقية هي أداة جيدة لمواجهة شخص أو حدث تاريخي، ابحث عن الوثائقيات التي تعرض لقطات حقيقية إن أمكن، لأنها تعرض سياقًا بصريًا لتلك الأحداث التاريخية، من المهم أن تراعي سن أولادك في ذلك لأن بعض اللقطات قد تكون صادمة.

- كَوْنِ صداقات مع ناسٍ لا تشبهك، قابل عائلات من دول مختلفة، زُر أماكن عبادة، استضيف طالب تبادل ثقافي، شارك في أنشطة

مجتمعة لا تركز على معتقداتك السياسية ولا الدينية، سافر،
تعلم لغة جديدة.

أسرع طريقة لاستفزاز طريقة جديدة في التفكير هي عن طريق
حدوث مواجهة مباشرة، حين تساعد أولادك على التعامل مع التعقيد
والاختلاف سترشدهم إلى كيفية إنماء قدرتهم على المشاركة في العالم
الممتلئ بالتنوع، كلما كانوا أكثر قدرة على الترحيب بالاختلاف كانوا
أكثر مهارة في التفكير فيه (وهذا لا يعني الموافقة عليه)، وهذا ما سيقودنا
إلى الجزء الثالث. حان وقت التعامل مع تعقيد تلك الاختلافات التي
تظهر للسطح في أثناء القراءة والتجارب والمواجهات، كيف سنقيم
الأفكار والرؤى المتصارعة مع قيمنا وعاداتنا ومعتقداتنا؟ ماذا تطلب
المهمة الأكاديمية من أبنائنا؟ دعونا نكتشف.

الجزء الثالث

الخيال البلاغي

«معظم العمل الفكري يتعاطى مع فن الممكن، إنها عملية بحث عن الحفريات لا يتعمَّق فيها أحد لإيجاد الحقائق التي قد تتغير بناءً على اكتشاف معلومات جديدة».

بيل هوكس، تدريس التفكير النقدي

الخيال: الملابس التنكرية، الرسم على الوجوه، لعب الأطفال، الخيال يوقظ شعورًا عاطفيًا نحو الاشتياق إلى حياة أكثر بساطة.

كم مرة يُذكر الخيال في أثناء الحديث عن ورقة بحثية أو تقارير معمل؟ قليلًا، أقل من القليل بكثير، ألا يجب أن يُذكر أكثر؟

المصلح التعليمي بيل هوكس الذي يتحدّى التفكير النمطي في التعليم له تبصرات كثيرة حول دور الخيال تحديدًا في العملية التعليمية: «نحن نعيش في عالم يتم فيه تشجيع الأطفال الصغار على الخيال والرسم، وعلى خلق الأصدقاء الخياليين والهويات الجديدة والذهاب

أينما سيأخذك عقلك. وبينما يبدأ الطفل في النمو يُنظر إلى الخيال كشيء خطير، كقوة يمكن أن تعوق اكتساب المعرفة؛ كلما ارتفع شخص على سلم التعلم كان مطلوباً منه نسيان الخيال (إلا إن كان يدرس في حقل إبداعي، كدراسة الفن أو صناعة الأفلام... إلخ)، هل يمكن أن ترجع تلك المساحة الآخذة في الانكماش في المجال الأكاديمي إلى ما يسميه باولو فريري بإعياء السرد الذي ناقشناه في الفصل الثالث؛ الظاهرة التي يعتمد فيها النجاح الأكاديمي على القدرة على التكرار والإعادة وإعادة الصياغة؟ وما نحن هنا نفكر بطريقة نقدية في التفكير النقدي، ما الذي يسبح أيضاً في حسائنا الفكري؟

ناقشنا في الجزأين الأول والثاني من الكتاب الجوانب التأسيسية للتفكير النقدي: رواة القصص، والمراقبة الدقيقة، والاهتمام، وتكوين الهوية، والقراءة، والتجربة، والمواجهة.

السمة الضرورية التالية من سمات التفكير النقدي الواعي بذاته هي ما أسميه بالخيال البلاغي، الطلاب الذين يتمرنون عليه يتمكّنون من فحص المواد الدراسية بطريقة إبداعية وتحليلية وعاطفية، إنهم يطرحون الافتراضات والتأويلات وحلول المشكلات والتفكير في نطاقٍ واسعٍ من الرؤى، حتى العلوم تستفيد من هذا الخيال البلاغي: «الإبداع والتفكير النقدي لهما أهمية خاصة في البحث العلمي»، لأن الاكتشافات والتبصرات تأتي من معالجة البيانات عن طريق تخيل استخداماتها وآثارها، العلم ليس مجرد مجموعة من الحقائق التي نسعى لإثباتها لكنه منهجية للاكتشاف والاطلاع.

أحد المصطلحات التي نحن في حاجة شديدة إلى إعادة تعريفها هو «البلاغة»، من المفترض أن تعبّر البلاغة عن الذكاء والوضوح في المجال الأكاديمي، واستخدام تعبيرات وكلمات وحجج أفضل. أحد التعريفات التي قابلتها له في بحث جوجل السريع أضحكتني جدًا: «البلاغة: اللغة المصمّمة لتكون مقنعة ومبهرة لجمهورها، والتي غالبًا ما تُعتبر غير صادقة أو ذات معنى بما فيه الكفاية». الآن، ما هذا؟ غير صادقة؟ لم أستطع المقاومة، وجدت نفسي أخرجش في دفتر بأقصى عنفٍ ممكن: مرحلة البلاغة في التعليم تتحقق حين يفقد التعليم الصدق.

أكره أن أعترف بذلك، لكن هكذا يبدو الأمر أحيانًا، المدرسة العليا والمتوسطة تتعامل مع التعلم كقفزة كبيرة لنقوم بها، بصرف النظر عن كيف يشعر أي شخص حيال ما يُدرّس. الضغط لتحقيق الإقناع يتم التركيز عليه إلى درجة القضاء على أي فرصة للتبصر. معظم الأحيان يتعلم الطلاب من دون الشعور بأي شيء يمسه عاطفيًا أو فكريًا أو أخلاقيًا، المرحلة البلاغية في التطوير غالبًا ما يكون الشخص عندها في حالاته الأكثر إنهاكًا كما يقول البعض: «احفظ المعلومات وأعد سردها كما لو كنت تهتم، إنه تعليمك ثم احصل على وظيفة».

أنا لا أقبل بذلك! وأراهن أنك أيضًا لا تقبله.

حين أعمل مع المراهقين، أتفاجأ على نحو متكرر بقوة تبصراتهم حول ما يهتمون به، لأنهم قضوا وقتًا أقل على الكوكب فإنهم باستمرار يطرحون أفكارًا إبداعية ومقاربات جديدة حين يغمسون أنفسهم في

أي موضوع عن طريق التمرن على التفكير التخيلي. ما الذي يمكن الطلاب من دخول هذا العالم من الاكتشافات؟ في أبحاثي الخاصة خلال العقدين السابقين تأملت كثيرًا فيما يخص الفنون كما ناقشت في الفصل الرابع، اكتشفت عبر الرسم أن من أجل أن ترسم صورة ما بدقة على الورق يجب أن تتعلم كيف تراها على نحو مختلف. بيتي إدواردز مؤلفة كتاب «الرسم على الجانب الأيمن من المخ» تشرح أن كلاً منا لديه نزوع نحو الاعتقاد بأن: «أنا أعلم بالفعل كيف عليها أن تبدو»، وهي آلية تعمل في عقلنا تمنعنا من رؤية الأشياء كما هي في الحقيقة. تقترح بيتي على طلابها أن يقلبوا الصورة التي يريدون رسمها رأساً على عقب ليثيروا طريقة جديدة لرؤيتها، لاحظت حين طبقت رؤيتها كمية الخطوط والمنحنيات التي اتضحت لي وقد كنت فقط أضعها تحت مسمى «الفم» أو «الأنف». للدهشة، أصبحت دقتي صاروخية، انتقلت من عقلية «الأجوبة الصحيحة» إلى عقلية «الاستقبال ثم توليد التبصرات».

هذا ما كنا نطلبه من الطلاب حين يقرأون كتاباً أو يتعلمون قصة من التاريخ، نطلب منهم أن يضعوا جانباً ما يظنون أنهم يعرفونه ليفسحوا مجالاً لشيء جديد، هذا الشيء الجديد ليس بالضرورة صحيحاً لتفكير خاطئ، ولكن قد يكون فرصة لإثراء وتوسيع ما يمكن معرفته. بالإضافة إلى ملاحظة العلاقات بين الموضوعات والمفكرين، هدفنا هو مساعدة أبنائنا على الانطلاق خارج ما يفترضون أو يتوقعون أن يجده، وأن ندعوهم لاستكشاف ما في داخل خيالهم البلاغي. الطلاب

في هذه المرحلة سيتطورون بأفضل طريقة إن شجّعوا على تخيل جميع العلاقات في أثناء التعلّم، على سبيل المثال:

- تخيّل الحياة من وجهة نظر الكاتب.
- تخيّل تلك الحقبة الزمنية.
- تخيّل التفاوت بين الحياة العادية والحياة الملكية.
- تخيّل المعاناة.
- تخيّل كونك تنتمي إلى هذا المكان.
- تخيّل إحساس هذا الفصل من السنة.
- تخيّل مدى تقديس المعارض لوجهة نظره.
- تخيّل الإحصائيات التي يمكن أن تكون صحيحة ومضللة في نفس الوقت.
- تخيّل تجارب الطفولة المبكرة التي تلعب دورًا في اختيارات البالغين.
- تخيّل حدود ما يمكن معرفته.
- تخيّل جمهورًا.
- تخيّل أن طريقتك ليست هي الطريقة الصحيحة ولا الوحيدة.
- تخيّل أن الكاتب مخطئ.
- تخيّل أن الكاتب على حق.
- تخيّل أن هناك مزيدًا لتعرفه.

- تخيّل أن هناك حقبة كانت بها الحقائق أوضح من الآن.

- تخيّل مشروعًا بحثيًا يختبر نظرية.

- تخيّل منهجيات جديدة لحل المشكلات القديمة.

- تخيّل أن الأدب والقصص قد يجلبان أفكارًا عقيمة إلى الحياة.

- تخيّل التاريخ في عالمنا الحي.

الخيال البلاغي هو مفتاح التفكير النقدي، إنه يسمح لنا ببناء فاصل داخل عقلنا بين ما نصدقه وما نسلي أنفسنا بتخيّله، الخيال البلاغي يسمح لنا بالوقوف مع الكاتب في قضيته حتى إن لم ينته بنا الأمر متفقين معه في النتائج، إنه يجعل الخطوة الأولى من قراءة أي رأي هي فهمه وليس الرد عليه.

لأساعد شبابنا الرائعين في تطوير تلك المهارات، غيّرتُ نظرتي إلى تسلسل ونطاق العملية التعليمية في المجال الأكاديمي، وبدأت بالاهتمام بكيفية تكوين البشر لرؤاهم، ما القوى التي تحرك التفكير؟ ما الذي يوصلنا إلى استنتاج ما هو صحيح، وما هو خاطئ؟ تساءلت عن أثر المجتمع والاحتياج إلى الولاء والانتماء، تعمقت فيما يخص الحدس وتكوين التبصرات وخلق الارتباطات بين الأفكار وانعكاساتها.

كيف يمكن أن نرشد الطلاب إلى إيجاد المجازات والتشبيهات والمقارنات؟ هل يمكنهم تأويل نصٍّ أصلي من دون أن يُدخلوا اتجاهاتهم الشخصية فيه؟ (كرسالة جدي التي ذكرتها في مقدمة هذا الكتاب)، هل يمكنهم قراءة وجهة نظر لتأكيد انحيازاتهم؟ هل يمكنهم

إجراء أبحاث بطريقة فضولية من دون دفاعية عن وجهة نظر ما؟ هل سيتمكنون من تأويل ما يقرأونه ويختبرونه وهم واعون بذاتهم؟

بطريقة طبيعية تتطور تلك المهارات مع الوقت، يمكن تمرين الأطفال الصغار على ذلك بطرائق متعددة عن طريق الأنشطة المناسبة لأعمارهم التي ذكرت مثلها سابقاً، والتركيز الأساسي في بضعة الفصول القادمة سيكون على العمليات التي نستطيع استخدامها مع المراهقين لتجهيزهم لما بعد المدرسة العليا.

بينما تنفذ المهمة الأكاديمية مع طلابك، تذكر أن الهدف من التعلم ليس هو الحصول على القبول في الجامعة أو العثور على وظيفة براتب جيد، التعلم الحي هدفه هو البحث عن المعنى، وتكوين حسٍّ مرهفٍ ووعي بعلاقة الإنسان التبادلية مع الواقع. أرى الخيال البلاغي كالرياح التي تحافظ على سير قوارب الإبداع والتبصر، إنه يحرر الأفكار التي قد تُتجاهل في حالات أخرى. دعونا نلقي نظرة على وصية بيل هوكس: «حين يطلق المدرس عنان الخيال للانطلاق داخل الفصل، فإن مساحة التحولات المعرفية تنطلق معه».

الفصل العاشر

الدور المفاجئ للوعي الذاتي في التفكير النقدي

«يعرف الجسد أشياء قبل مدة طويلة من إدراك العقل لها».

سو مونك كيد، الحياة السرية للنحل

يحدث الأمر هكذا، في أثناء خوضك لمحادثة تعتقد فيها أنك منفتح لتعلم مزيد حول الموضوع، تجد شريكك في الحوار قد أطلق فكرة تتعارض مع إحدى قناعاتك، ماذا سيحدث؟ وخزة في معدتك؟ حمم بركانية تحوم حولك؟ إن قال لك هذا الشخص: «كن ذا عقلٍ منفتحٍ»، فهل هذا ممكن؟ في هذه اللحظة، وفي معظم اللحظات، ستجاهل استجابات أجسادنا، في حين سينطلق عقلنا للدفاع عن رأيه في رؤية الأمر، إن كانت وجهة نظرك تتعرض للإهانة، فماذا ستفعل؟ هل ترتفع نبضات قلبك؟ هل يغمرك الغضب؟ هل تشعر بدفقة من الأدرينالين؟ هل يخلق عقلك قصصًا حول الدلائل التي يعرضها الشخص الآخر؟ هل تشكك في مصادره أوتوماتيكياً؟ إن أخذت خطوة إلى الأمام وقررت فحص أدلته ثم وجدتها صحيحة، ماذا ستفعل؟

هل ستهدئ أعصابك؟ هل ستعترف بخطئك؟ هل ستراجع تفكيرك؟ ماذا إن كنت بالفعل قد استثمرت كثيرًا من الوقت والجهد لتبني هذه الفكرة؟ تخيّل إن كان خطأك يعني أنك اتخذت قرارات سيئة تخص نمط معيشتك ومادياتك؟ افترض أنك عضو في جماعة بناءً على تلك الأدلة، هل ستتجاوز الأمر بسهولة؟

حين كنت طالبة في جامعة كاليفورنيا، كتبت ورقة بحثية وضعتني في تلك المعضلة، انتظرت أن أحصل على تصديقٍ على طرحي، وبالفعل حصلت عليه، حتى اصطدمت مع مصدرٍ مهم وجدته معارضًا لحجتي، شعرت بالاحترق، لم أُرِد لتلك الحقائق أن تقاطع قناعاتي، هل غيّرت طرحي أو أعدت كتابته ليتضمن تلك التحديات؟ لا، ببساطة تظاهرت أن الدلائل المعارضة لم تكن موجودة، كتبت الطرح من دونها، تسمي الأبحاث هذا النوع من الانحياز بـ«تأثير الطاووس»، لم فعلت ذلك؟ ألم يكن الهدف من البحث هو التعلُّم؟ ما الذي جعلني أختار عمدًا ألا أتعلم؟ هذا هو السؤال الذي نريد استكشافه في هذا الفصل، ما الذي يعوق قدرتنا على الاستماع بإنصافٍ إلى جميع مصادر البيانات حول موضوع؟

عقول ممتلئة

إحدى أكثر أدوات التفكير النقدي المشاد بها هي «الانفتاح العقلي»، أتهكم كل مرة أرى فيها تلك الكلمة، هل هناك ما يُسمَّى بذلك؟ الانفتاح يعني الرحابة، لكنَّ عقولنا ممتلئة بآليات حماية لنفسها،

يتطلب الأمر جهداً حقيقياً لتُفسح مساحة لفكرة جديدة داخل مكتبة المشاعر والأفكار والتجارب والمعتقدات التي تملكها بالفعل على رفوف عقلك، بتعبير أفضل: كن واعياً بعقلك الممتلئ!

أن تمتلك عقلاً مفتوحاً فهذا يعني فصل مشاعرك وأفكارك واستجاباتك الجسمانية وهوية مجتمعك وولائك للجماعة عما تدرسه، وفي الحقيقة لأن البشر ليسوا جيدين جداً في هذا، بل ليسوا جيدين على الإطلاق، فإن انحيازاتنا غير المراقبة تتحكم في تفكيرنا، ومجرد إعطاء أنفسنا أمراً بأن نؤدي أفضل من ذلك لا يجعل الأمر أفضل، نحن فاشلون في إقناع أنفسنا بالانفتاح على ما يتعارض مع ما نعتقد أنه حقيقة.

الممارسة المفتاحية التي تسمح لنا بالاستفادة من مهاراتنا في التفكير النقدي ليست هي الانفتاح، ولكن هي الوعي بالذات. من دون أن نفتح عدسة الكاميرا على أنفسنا فإن كل أبحاثنا واهتمامنا ومراقبتنا لهوياتنا يمكن أن تظل تعزز أفكارنا الجاهزة بالفعل. لماذا يحدث ذلك؟ لأننا مخلصون لعاداتنا في التفكير، لقد زينا غرفة التفكير داخل عقولنا بألواننا المفضلة، ولدينا فيها كرسي كبير مريح نجلس عليه ونستمع بما سبق وكَوْنَاه من آراء.

أن تطلب من أي أحد أن يفتح عقله هو كأن تطلب منه أن يعيد تصميم دراسته المفضلة.

هل شاهدت قبلاً حدثاً رياضياً به مشجعون متعصبون؟ تلك اللحظة التي يتخذ فيها الحكم قراراً مشكوكاً فيه، من السهل جداً لحظتها توقع أي المشجعين سيقبل بالقرار، وأيهم سيعترض. المنطق لا يلعب دوراً

كبيرًا هنا، الرغبة في أن ذاتك تُعرَّف من خلال الفريق الرابع تفوق القدرة على أن تكون شخصًا ذا عقلٍ منفتحٍ على الأدلة، سيخلق المشجعون قصة لتدعم ما يريدونه أن يكون حقيقياً على نحو فوري، هل ستطلب من مشجع أن يكون ذا عقلٍ منفتحٍ؟ رجاء، لا داعي للمحاولة!

على نحو طبيعي، هناك شخصيات تحب أن تفتخر بكونها موضوعية، ستجدهم يقولون: «نعم، الحكم كان على حق»، أو «الحقيقة هي الحقيقة، بصرف النظر عن شعوري تجاهها» حتى إن كانت الحقيقة تضر بفريقهم.

معظمنا قد يلين أمام الأدلة إن وجدنا ببساطة أن هذا المعجون الجديد سيبيض الأسنان أكثر من الذي نستخدمه، لكن الأمر سيختلف تمامًا إن كانت عائلتك تمتلك شركة معجون الأسنان الذي تستخدمه منذ الطفولة. قد لا تستطيع عيناك أن تريا فعالية المنتجات الأخرى، تقول الأبحاث أيضًا إن وجودك داخل مجموعة تنتمي إليها تفرز لك هرمون الأوكسيتوسين، أحد أقوى هرمونات السعادة والأمان.

حين يتمسك الناس بما يعتقدونه حتى وهو يأخذهم إلى الأسفل، فإنهم أحيانًا يوصلون أنفسهم بأنفسهم إلى الدمار، رأيت صديقًا يعمل معلم صحة، انتهى به الأمر في المستشفى بسبب سوء التغذية، كان ينكر الأدلة التي تقول بأنه يجوِّع نفسه في أثناء رغبته في تحقيق استخراج السموم من جسمه. لقد رأيت معلمين منزليين يتمسكون بتدريس كل شيء بأنفسهم رغم احتياجهم إلى متخصص، أعرف نساء متدينات يخترن البقاء في زيجات غير جيدة لهن لمددٍ طويلة حتى بعد اكتشافهن أن أزواجهن مؤذون أو متعددون العلاقات.

كلما زاد تعلُّقنا بمجتمعاتنا ومعتقداتنا كان الأمر أصعب فيما يخص انفتاح العقل، أن تغيّر رأيك فإن هذا -أساسًا- يتطلب الاندماج في مجتمعٍ جديدٍ قد يرفضك من الأساس.

يخوض الأطفال تلك التجربة داخل أسرهم، إنهم يشعرون بتلك الوخزة حين يجربون طرح سؤالٍ يماس مع معتقدات والديهم الأثيرة. في أدبيات التفكير النقدي هناك فكرة تطفو في الأجواء طوال الوقت تقول بأن جميع أنواع الانحيازات تمنعنا من التفكير الجيد، ليصبح مطلوبًا منّا، بالإضافة إلى تفتيح عقولنا، أن نفكر كعلماء في مختبر، تقول الفكرة بأن عليك أن تكون مهتمًا بالوصول إلى ما هو صحيح بدلًا من الوصول إلى كون رأيك صحيحًا، ومن المفترض مع تلك الطريقة أن يسير التفكير أينما تأخذه الأدلة، شيء مثالي تمامًا، لكن هل من الممكن تنفيذه؟

بالطبع، الأنشطة التي تعتمد على العلوم والرياضيات، كالهندسة والجراحة، تحتاج إلى الدقة والتحديد، لكن في هذا السياق من التفكير النقدي فنحن نفحص مساحات أفكار جدالية بالتحديد، كما عرفنا خلال صفحات الكتاب فإن الأبحاث والاكتشافات تتغير من عام إلى عام ومن حقبة إلى حقبة.

«أن تصل إلى ما هو صحيح» فهذا يعني أن هناك إجابة صحيحة وحيدة تصلح لجميع الأوقات (هل تذكر معضلة الاختيار من متعدد؟)، لكن بفحصٍ أقرب فإن معظم الأسئلة المثيرة لها إجابات معقدة ومختلفة يجب وضعها في الاعتبار، فكرة «أن تصل إلى ما هو

صحيح» قد لا تساعد الأطفال حين يواجهون مصادر متعددة تتعارض مع بعضها. مثلاً حين تدرس ما إن كانت حدائق الحيوان مكاناً جيداً لحفظ الحيوانات أم لا، من السهل أن تجد دراسات تتعارض بعضها مع بعض؛ أيها صحيح؟ كيف سيتعامل الطفل مع كل هذا إن كان مطلوباً منه أن يصل إلى ما هو صحيح؟ من السهل حينها أن تستبعد الأبحاث التي لا تعجبك، وأن تعود إلى موضعك الأصلي بدلاً من تعلّم أي شيء جديد.

التبصُّر

في مهارة التفكير النقدي، دعونا نتحدث عن ملكة النحل ذات نفسها:

وفقاً لرينيه كاين وجيفري كاين خيرَي التعليم الباحثين في كيفية تكوين المخ للمعنى: التبصر أهم بكثير في التعلم من الحفظ، المعنى المحسوس يبدأ بكونه شيئاً قد لا تعرف كيف تصوغه، التبصُّر يولّد الفرح والدهشة والارتياح والطاقة، ماذا قد يحدث إن شجعنا الأطفال على توليد التبصرات بدلاً من الوصول إلى ما هو صحيح؟

أن تكون لديك تبصرات هو أن تكون قادراً على رؤية الطبيعة الداخلية للأشياء، أن تملك تبصراً يعني أن تحظى بتجربة مختلفة عن الموافقة على تجارب معملية أو التصديق على وجهة نظر دراسة ما، التبصر هو حسٌّ بالمعنى آتٍ من علاقة مع ما تدرسه، طريقة أخرى لتفكر بها في التبصر هي باعتباره اللحظة التي يقع فيها الفهم الجديد في مكانه، كما

يسميه الأخوان كايين بـ«تكوين البنية»، وما أحب أن أسميه أنا بـ«انتعاش التبصر»، لحظة ننتقل فيها من «ما هذا؟» إلى «آآه، الآن فهمتها». التبصر لا يدور بالضرورة حول التعاطف رغم أنه قد يكون حول ذلك، التبصر ليس شيئاً لتلتزم به لأنه قد يتغير، إنه يمكّننا من استعادة هوياتنا في حين نعطي التقدير الكافي لما نجده من معلومات وتجارب مختلفة، التبصر لديه ميزة كونه مؤقتاً وجاهزاً للتطور وفقاً لما يجده.

تخيّل أن تستمع إلى شخصٍ لديه وجهة نظر معارضة، وأن تكون واعياً في أثناء ذلك لما يمكن أن تكتشفه بدلاً مما يمكن أن تختلف أو تتفق معه. يصبح الهدف هو الحصول على انتعاش من التبصر مما يعرضه عليك هذا الشخص، لن تكون مهمتك هي العثور على ثقب في حجته، لكن يكون عليك أن تحبه أو تكرهه أو أن تكون حتى عقلياً معه، مهمتك الوحيدة هي أن تراه بعين جديدة، هدفك هو أن تفهم لا أن تصل إلى ما هو صحيح. يمكن لك أن تكتب وعياً بألم الضحية، أو أن تفهم أكثر دوافع مرتكب الجريمة، ربما تزداد تقديرًا لخلفية شخص أو للسياق التاريخي للموضوع؛ أن تفهم فإن هذا يغيّر هدف مهمة التعلم من حفظ المعلومات إلى هدف أكثر شمولاً يضعنا أمام سؤال: كيف يعيد ما أتعلمه تشكيل عالمي الفكري؟ هذا سؤال للتبصر.

يمكن أن يُطبّق نفس التوجه في التعامل مع الدراسات البحثية، اقرأ الدراسة البحثية المعارضة لدراستك من باب فهم ما تحاول أن تثبته، بدلاً من إصدار حكم بسرعة حدّد ما يمكن أن يؤخذ في عين الاعتبار في أثناء مناقشة الموضوع.

لقد خضت تلك التجربة في أثناء بحثي في موضوع قيمة حدائق الحيوان، لدينا في سينسياتي إحدى أجمل حدائق الحيوان في الولايات المتحدة (تأتي في المركز الثاني بعد حديقة حيوان سان دييجو، والتي كانت المفضلة عندي وأنا طفلة)، كان أبنائي متحمسين لحدائق الحيوان دائماً، لكن بينما تقدموا في السن كان فضولهم يزداد حول مسألة هل تُعامل حيوانات الحديقة جيداً؟ هل تلك حياة مناسبة لهم؟ قمتُ بالبحث، وكانت النتائج في صراعٍ مع بعضها. على جانب قالت بعض الدراسات إن تلك الحدائق تحمي الأنواع المعرضة للانقراض عن طريق تعيين البشر للاهتمام بهم، وبأن الحدائق قادرة على حفظ تلك الأنواع النادرة بعيداً عما قد يفترسها. أتذكر أنني تأثرت بشدة بدراسة أكدت أن حيوانات الحديقة يعيشون حياة أكثر سعادة واطمئناناً من أي حياة أخرى عاشوها في البرية؛ تعفيهم الحديقة من الخطر والاحتياج إلى اصطيد الطعام، إنها توفرّ وجبات منتظمة وأماناً وجودياً، في حالات كثيرة، تعيش الحيوانات المنفردة في الحديقة أكثر كثيراً من حيوانات البرية.

على أي حال هناك أبحاث أخرى تتعارض مع هذه الاكتشافات؛ هناك تقارير تقول بأن هناك بعض الأنواع، احتمالية إنجابها أقل وهي محتجزة. تعرض بعض الدراسات أنه حين تؤذي الحيوانات البشر (حتى الذين أساءوا التعامل) فإنها تُقتل، إحدى أحب الغوريلا إلينا في حديقة سينسياتي أُطلقت النار عليها بعدما تجاوز طفل صغير السور إلى داخل قفصها، لحماية الطفل قُتِلَت الغوريلا، حتى إن لم يكن الخطأ

خطأها. دراسات أخرى تثبت أن ظروف المعيشة في تلك الحدائق غير طبيعية، وغالبًا يكون الطقس المحلي مختلفًا كثيرًا عن الطقس في بيئة الحيوان الطبيعية، وهذا ما يؤثر في ارتياحهم. تشير أيضًا تلك الدراسات إلى الضغط الذي تتعرض له الحيوانات، والنتائج عن انكشافهم طوال الوقت وحياتهم داخل الأقفاص المصمَّمة لتسلية البشر.

حدسي الأولي كان يريد لرؤية معينة أن تكون صحيحة والأخرى خاطئة، ثم أبطأت من نفسي لأعيد ضبط الاتجاه، واتجهت إلى الأبحاث باستخدام «تأثير النظرة الشاملة»، فكرت فيهم من خلال سياقٍ أوسع، لاحظت أن كلا الجانبين من نقاش حدائق الحيوان يهدف إلى تحقيق نفس الشيء: الحفاظ على التنوع البيولوجي وحماية الأنواع المهددة بالانقراض. لم أعامل الأبحاث في كلا الاتجاهين على أنها في انتظار قبولي أو رفضي، بمجرد أن تأكدت بأن من قام بكلا الجانبين من الأبحاث هم خبراء مؤهلون قررت أن أترك مساحة لتأثير كلتا وجهتي النظر في تفكيري، قضيت أكثر من عام أفكر في هذا الأمر، أقرأ المقالات وأسأل الناس الذين يعملون في هذا المجال، السعي للتبصر يسمح بتلك المرونة العقلية، وبهذا تبصرت بالفعل أن السؤال يكمن في كيف يمكن أن نحفز البشر نحو حماية حياة الحيوان على كوكب الأرض، أصبحت أكثر اهتمامًا بالجدال لكن أقل اقتناعًا بما يطرحه.

من المهم الاعتراف أنه في بعض الأحيان لا تتفوق أي حجة على حجة أخرى، قراءتك لأكثر من اتجاه ستُدخلك في مباراة بينج بونج للحقائق والافتراضات، إنها تساعد في تصعيد المناظرة، وفي طرح

أسئلة أكبر، في هذه الحالة كان السؤال هو: كيف يمكن للبشر الاستمتاع بحياة الحيوان وحمايتها في نفس الوقت؟

التبصر يثير التجدد والطاقة، يربط كل فكرة بالأفكار الأخرى المحيطة بها، يمكنك أن تساعد الأطفال في فهم ما هو التبصر عن طريق وصف ما يشعرون به حين يحدث لهم، ربما يلاحظون ظهور فكرة جديدة تمامًا في عقولهم مبهرة لهم. أتذكر في سن الحادية عشرة حين اكتشفت رمزية الوردة، وكيف تشير إلى الرقة والألم جنبًا إلى جنب، لقد تفاجأت بما وجدته داخل نفسي من عمق، بصرف النظر عن أن الشعراء كانوا يقومون بهذا الربط لقرون، شعرت في تلك اللحظة أن الأمر خاص بي، تلك هي تجربة التبصر، التبصر ليس بالشيء الذي يوفره البالغون للأطفال، لكنه يأتي من داخل كل شخص منا، كل ما يمكن أن نفعله هو خلق الظروف التي تساعد على الحدوث، تلك الظروف هي:

- حرية الحق في الوصول إلى نتائج غير مؤقتة وغير أكيدة.
- المساحة للشعور بعمق.
- الحصول على الدعم لحظة الأزمة، لحظة «هذا الاكتشاف سيدمر طرحي!».
- السماح بالوقت الكافي لإعادة النظر في الأفكار.

التبصر هو ثمرة أدوات التفكير النقدي التي نحن على وشك أن نستكشفها، خلال العمل مع الأطفال في الخمس والعشرين سنة الأخيرة رأيت أن في الإمكان تعليم الأطفال أن يكونوا أقل دفاعية

ومقاومة للبيانات والأفكار ووجهات النظر الجديدة عليهم، هناك تمرينات تساعد الطلاب على القيام بالعمل الفكري الأعمق من دون الوقوف المتكرر عند شعورهم بمقاومة ما هو جديد، ستجد في هذا الفصل أنشطة مصممة للأطفال الأصغر، وأخرى مصممة لطلاب المرحلة المتوسطة والثانوية، أقترح أن تجربها مع نفسك أولاً لكي تختبر التغيرات التي ستشعر بها في مشاعرك واستجاباتك الجسمانية لتصبح أكثر قدرة على تعليم أولادك عن طريقها، من الأفضل أيضاً أن يبدأ الطلاب تلك التمرينات مع موضوعات غير مرتبطة بحياتهم ارتباطاً مباشراً ليكونوا أكثر قدرة على رؤية كيف يتشكّل تفكيرهم قبل أن يتبنوا أي آراء تجاه الموضوع بالفعل، لقد حددت تلك الممارسات الثلاث المفتاحية في عملية التفكير النقدي الواعي بذاته:

- الكشف عن انطباعاتنا الأولية.

- إدراك اختلافاتنا.

- تحديد ولاءاتنا.

الكشف عن انطباعاتنا الأولية

عقولنا وأجسادنا تعمل بسرعة، تُستثار المشاعر والاستجابات الجسمانية سريعاً حتى إن حاولنا الحد منها، قد تعمل انطباعاتنا الأولية بسرعة كعدسة متحركة في كيفية تقييمنا للمعلومات، قد تجد التبصرات صعبة في الظهور إن كان جسمك يشعر بموجة من القلق أو الغضب.

تأتي الأفكار الأولية دائماً محمّلة بالكلمات التي يألفها المرء حول الموضوع، كما أحب هنا استخدام مصطلح «الحدس»، يعبر حدسنا عن نفسه في شكل آراء حتى إن لم نكن راجعناها أو تخيلنا كونها حقيقة أم لا، دعونا نستدعي انطباعاتنا الأولية لتقف على المسرح.

الانطباعات الأولية كأداة

ذوو الأعين اللامعة (من خمس إلى تسع سنوات) :

يمكن للأطفال أن يجيبوا عن تلك الأسئلة في أثناء تفكيرهم في شيء يحبونه أو يكرهونه بشدة، كصنفٍ من الطعام أو لعبة، أو شيء وجدوه في الطبيعة كزهرة أو كوز صنوبر أو الشمس أو المحيط.

سريعو البديهة (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) :

يمكن لهم أن يفكروا في موضوع معين يستمتعون به أو يجدونه مملاً كالألعاب اللوحية أو الفلك أو الكتب المصورة أو الرياضيات أو الروايات الخيالية.

حادو الذكاء (من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عاماً) :

يمكن للمراهقين التركيز على قضايا جدلية، كالسيارات ذاتية القيادة، أو الصيد البري، أو حظر التجول.

قبل أن تبدأ الدراسة

- حين تفكر في الموضوع، ماذا يحدث في جسمك؟ هل تشعر بأي إحساس؟ ما هو ولماذا حدث؟ هل أنت مسترخٍ أم متوتر؟ سعيد أم غاضب؟ هل تؤهّب نفسك لشيء؟ هل تشعر بأي ضيق في حلقك أو معدتك؟ هل هناك أي أعراض جسمانية أخرى؟

- الآن، هيا لتقييم الأفكار التي تملكها، حدّد قاموس الكلمات المرتبط عندك بالموضوع (بكل توجهاته الإيجابية والسلبية وغير المعنية بالأمر)، حدّد حدسك تجاه الموضوع، ماذا عن وجهة نظرك الحالية تجاهه؟ هل ستُحسّن حياة أي شخص إن تبناها؟

- مثال على الشمس لذوي الأعين اللامعة: الشمس تجعل من المستحيل اللعب بالخارج.

- مثال على الألعاب اللوحية لسريعي البديهة: تلك الألعاب تجمع العائلة عليها.

- مثال على حظر التجول لحادي الذكاء: يجب أن يُوثق بأن المراهقين سيتجهون إلى المنزل في الوقت المناسب، لا أن نجعلهم يهرعون للحاق بميعاد الحظر.

الآن اقرأ واستكشف الموضوع، ساعد الأطفال الصغار على التفكير فيما يعارض انطباعهم الأولي، مثلاً إن كانوا يفكرون في ضوء

الشمس اطلب منهم أن يفكروا: متى تكون الشمس ضارة وغير مريحة، استكشفوا متى يمكن الحصول على فوائد ضوئها ومتى لا يمكن، وهذا التحري سيكون كافياً للأطفال الصغار.

للأطفال الأكبر سنًا فقد حان الوقت لاستكشاف الموضوع باستخدام الأبحاث (وليس فقط الانطباعات)، تخير -على الأقل- ثلاث مقالات لتقرأها لتطلع على أكثر من وجهة نظر، ابحث عن الموضوع، واكتب جانبه كلمة «مناظرة» لتساعد في ظهور مقالات الرأي في نتائج البحث.

بعد الدراسة

اطرح تلك الأسئلة بعد كل مقال تتم قراءته:

- هل حفّز المقال أي استجابات جسمانية عندك؟ هل شعرت بأي إحساس كالخوف أو القلق أو الغضب أو الابتهاج؟

- هل كانت المصطلحات التي تعرفها عن الموضوع قبل أن تقرأ فيه تعبر عنه فعلاً؟ هل هناك مصطلحات اكتسبت معنى جديداً بعد أن قرأت عن الموضوع؟

- كيف تنظر الآن إلى أحكامك السابقة حول الموضوع؟ هل تريد أن تجري عليها أي تعديلات؟

لا داعي لمعاملة تلك الأسئلة على أنها استجاب، يمكن أن تطرحها ببساطة في أثناء احتسائكم لبعض اللاتيه في أي مقهى، وبمجرد

أن يحصل ابنك على فرصة مراجعة انطباعاته الأولية اطرح عليه تلك الأسئلة:

- ما التبصرات التي ولدتها؟ (أفكار جديدة أو أسئلة مثيرة).

- كيف غيّرت تبصراتك ما كنت تعتقده من قبل حول الموضوع؟

الكشف عن الانطباعات الأولية هي عادة يجب رعايتها، مراجعة ما يقوله له جسمك حين يسمع بمعلومة جديدة هي طريقة جيدة لفهم أثرها فيك، حين كتبت ورقتي البحثية في الجامعة واكتشفت الأدلة المتعارضة مع أدلتي شعرت بألم في معدتي وتسارعت نبضات قلبي! لأوقف هلعي دفنت هذا المقال، وتظاهرت بأنه غير موجود، ثم شعرت بالقلق من أن أستاذي قد يكتشف أنني تجاهلت تلك الأدلة ثم يعطيني علامة منخفضة، كل تلك الأحاسيس كانت تقف في طريق تعلّمي وتكويني لرأي وإع حول الموضوع، كنت خائفة من التخلي عن انطباعاتي الأولية.

التأطير:

إحدى الطرائق التي نكوّن بها انطباعاتنا الأولية هي عن طريق وسيلة النقل التي توصل المعلومات إلينا، عادة ما تُوضع اللوحة الفنية في إطارٍ قبل تعليقها على الحائط، يعطي الإطار أناقة وألقاً وأهمية للوحة المعلّقة، وأفضل الأطر هي التي تبرز جمال اللوحة نفسها وتعزّزه، أسوأ الأطر هو الذي يفصل اللوحة عن القصة التي يحكيها الرسام من خلالها. وبالمثل، كل مصدر يدرس منه الطالب لديه إطار، قد يكون الإطار هو وجهة نظر المعلم أو الكتاب أو الرؤية الأكاديمية، قد يكون الإطار رواية

تاريخية أو خبرًا إعلاميًا، إحدى الطرائق التي يمكن التغلب بها على القوة الإغوائية للإطار هي عن طريق التعرف عليه وتسميته وتحديد ما يعطيه من انطباع أولي، الأسئلة التالية ستعمل جيدًا جدًا مع أبنائك سرّيعي البديهة وحادّي الذكاء.

الأداة: التّأطير

جرّب تلك الأسئلة:

- هل مصدر المعلومة هو إنسان؟ ماذا إن كان مظهره أو صوته يؤثر في رد فعلك؟ هل هذا الشخص له علاقة قريبة بك؟ هل يحكي عن تجارب مباشرة حدثت له أم أنه ينقل تجربة شخص آخر؟ هل لديه ما يدعم شهادته حول الآخر؟
- إن كان مصدر المعلومة هو مادة مقروءة، هل هو كتاب؟ ما نوع التغليف؟ ما تصميم الغلاف؟ هل الخبير المشارك في الكتاب مذكور اسمه بطريقة جيدة على الغلاف؟ هل هو منشور ذاتيًا أم من خلال جهة نشر؟
- إن كان المصدر رقميًا أو إعلاميًا، هل هو موقع إنترنت لجماعة حقوقية؟ هل هو لقاء مع شهود عيان؟ تجميع لرسائل مكتوبة بخط اليد؟ محاضرة تيد؟ برنامج راديو؟ تسجيل صوتي؟
- كيف يحدد لك الإطار الاتجاه المتوقع منك اتخاذه من المحتوى؟ هل تراه موثوقًا؟ لماذا؟ ما الذي قد يؤدي بك إلى فقدان الثقة به؟

هل يمكن أن تقارنه بمصادر أخرى (مواقع لجهات معارضة، أو كتب في نفس الموضوع، أو محطات تلفزيونية أخرى)؟ كيف أثرت المقارنة على نظرتك؟

- ما الذي يحاول أو يأمل هذا الإطار أن يتبناه؟

الموضوعية؟

التواصل العاطفي؟

الفعالية؟

الغضب؟

التعاطف؟

الموثوقية؟

الاحتجاج؟

الإخبارية؟

شيئاً آخر؟

- هل يتعامل الإطار مع الأشياء كما هي؟ أم يطرح تحدياً ما يمكن أن تتطور إليه الأشياء؟ على سبيل المثال، إن كان كتاباً فربما يكون هدفه هو هدم سردية مألوفة، إن كان تقريراً فقد يكون ساعياً لتأكيد اكتشافات سبق وأُعلنت، كيف يشكّل هذا طريقة استقبالك للطرح؟

- هل يحيل المقال إلى شخصية ذات سلطة؟ شخصية لها تجارب

مباشرة؟ لها مؤهلات؟ شخصية مشهورة؟ قائد سياسي أو ديني؟
شخص حامل للدكتوراه؟

نص واحد، أطر متعددة:

النصوص الدينية، كالكتاب المسيحي المقدس، هي مثال جيد جدًا على الكيفية التي تؤثر بها الأطر في انطباعاتنا الأولى، الكتاب المقدس هو الكتاب الأكثر انتشارًا في التاريخ، تسجل موسوعة جينيس أن هناك أكثر من خمسة بلايين نسخة منه طُبعت ووُزعت. يُطبع ويُقرأ الكتاب المقدس في معظم الأحيان على أنه كتاب واحد، رغم أن محتوياته عبارة عن مجموعة من الكتابات التي جُمِعت على مدار قرون من مجموعة من المؤلفين، تُرجم الكتاب إلى أكثر من سبعمائة لغة حول العالم، من دون أن نحسب اللغات التي تعتبر نسخًا مختلفة من نفس الأصل، كالإنجليزية والإسبانية والألمانية، كل ترجمة هي إطار يمهّد وصول المحتوى إلى جماعة ما من الناس. بعض الترجمات تركّز على اللغة المعاصرة ولديها ما تريد أن تلحق به، في الإنجليزية غالبًا ما تُطبع الترجمات الحديثة للكتاب بتصميمات وأغلفة عصرية، وهذا التقديم مصمم لإقناع المتلقي بأن المعلومات الدينية يمكن فهمها ومقاربتها في عالمنا الحالي. بينما هناك نسخ إنجليزية أخرى تستخدم لغة القرن السابع عشر في الترجمة، فإن كثيرًا من تلك النسخ غُلِّف بأغلفة جلدية وذهبية مع تصميمات تعطي انطباعًا بالتميز والأصالة.

قارن بين تأطير نسخ العالم الحالي من الكتاب المقدس وبين نسخ العالم القديم التي يُعثر عليها في المخطوطات الأثرية على الضفة

الغربية من البحر الميت في منطقة قمران، تلك المخطوطات التي يتعدى عمرها تسعمائة عام كان يسميها المسيحيون «العهد القديم»، وكانت تُكتب بخط اليد على الورق البردي بكلماتٍ، استُبدِل وعُدِّل كثير منها الآن.

فكّر في الفرق بين هذين الإطارين (الحديث والقديم) على محتوى مماثل، فكّر كيف سيُولد فيك شكل الإطار انطباعًا أوليًا واستجابة عاطفية بمجرد أن تراه، وكم هو من الصعب أن ترى النص بعيدًا عن استجابتك الشخصية لكيف يبدو إطاره، لذا حتى إن كان من الصعب تنحية انطباعنا الأولي جانبًا، فعلينا على الأقل أن نكون على وعي بوجوده، بمجرد أن تعلّم أولادك كيف يلاحظون الإطارات، سيكون لديهم استعدادية للدراسة الأكثر تعقيدًا، ولن ينجرّوا بسهولة مع كيفية تقديم المعلومة لهم ليتمكنوا من الوصول إلى أساس الحجة سريعًا.

قدّر الاختلافات الجذرية

الأداة التالية في توليد التبصر ستحفر أعماق قليلًا، يطلب كثير من إخصائيي التعليم من طلابهم أن يستخدموا مهارة «التعاطف»، لتساعدهم على إيجاد أرضية مشتركة مع كيفية رؤية الآخرين للحياة، وهذا بدلًا من أن تطلب منهم أن يتحلّوا بعقلٍ منفتحٍ، لأنه طلبٌ بلا طائل. تتحدّى إيريس ماريون يونج، أستاذة الشؤون العامة والدولية في جامعة بيتسبرج، فكرة أنه يجب علينا تطوير مشاعر متبادلة مع الآخرين، في محاولة لفهم بعضنا لبعض من خلال تخيل أنفسنا في مواضعهم،

وهذا رغم أن الخيال -فعلاً- أداة قوية، لكن تشير يونج إلى أن تجاربنا في الحياة بعضها ليس مرآيا لبعض (أو كما تقول: إنها ليست «قابلة للعكس»). يجلب كلُّ منا تجارب حياتية وعادات عاطفية وأهدافاً مختلفة إلى آفاقه في النظر، عندما نعتقد أنه يمكننا السير في مكان شخص آخر، تجادل يونج أنه في كثير من الأحيان ما يحدث هو أننا نُسْقِط على الآخر منظوراً يُكْمِل منظورنا الشخصي، بدلاً من منظور حقيقي للفرد الذي نُسألُه. بدلاً من أن نكون قادرين على تخيل كيف يكون الأمر بالنسبة إلى الآخر، نتخيل كيف نعتقد أنه سيكون بالنسبة إلينا نظراً إلى ظروفهم. تستشهد بمثال قوي يوضح كيف يمكن أن يؤدي هذا النوع من الإسقاط إلى عواقب وخيمة.

في التسعينيات، عرضت ولاية أوريغون تسديد تكاليف علاجات طبية محددة للأفراد الأصحاء، ورفضت سداد نفس الإجراءات للأشخاص ذوي الإعاقة، عندما طلب منهم تفسير عدم المساواة في هذا الاقتراح، كان التبرير صادماً، اعتقد المسؤولون أن لديهم أسباباً موضوعية لهذا الحكم لأنهم أجروا مسحاً عبر الهاتف لولاية أوريغون، طُلب من الأشخاص القادرين جسدياً في الاستطلاع تخيل أنفسهم مكان شخص على كرسي متحرك أو شخص أعمى أو أصم، قال أغلبية المشاركين في الاستطلاع إنهم يفضلون الموت على أن يكونوا على كرسي متحرك أو فاقدِين للسمع أو البصر، لذا صدر الحكم بأن أصحاب الإعاقات لن يحصلوا على دعم. ومع ذلك تشير يونج إلى أن الدراسات تقول بأن الأشخاص ذوي الإعاقات لديهم معدلات انتحار منخفضة،

ويعتبرون حياتهم تستحق العيش كثيرًا، نُقِصَ القرار في النهاية لإخلاله بقانون التعامل الأمريكي مع ذوي الإعاقة، ولهذا يظل صدى وجهة نظر يونج يتردد: «حين طلب منهم أن يضعوا أنفسهم مكان شخص على كرسي متحرك، فإنهم لم يتخيلوا وجهة نظر الآخر، ولكنهم أسقطوا عليه خيالاتهم ومخاوفهم».

من أجل تعويض هذا النزوع، تقترح يونج أن نتبنى مدخلًا من «المعاملة بالمثل غير السيمترية»، الهدف منها هو إصدار أحكام أخلاقية وأكاديمية نابعة من احترامنا المشترك للاختلافات الراديكالية بيننا وليس من خلال استحضار ما نتصور أنه مشاعر متطابقة، في الحقيقة هي تجادل بأن التزاماتنا تجاه بعضنا يجب أن تكون مرتبطة بالتضامن الأخلاقي وليس بالقدرة على تخيل بعضنا ظروف بعض، بينما نعمل مع أطفالنا، فإن هذه المهارة لها قيمة خاصة، في بعض الأحيان يجد الأطفال والمراهقون صعوبة في تخيل تأثيرهم في الآخرين، ربما يشارك مراهق في تنمر إلكتروني أو قد يلكم طفلًا صغيرًا صديقًا له، أن تطلب من المعتدي أن يتخيل ما قد يشعر به إن كان مكان المعتدى عليه، قد لا يكون ذا فعالية، قد يقول المراهق: «لن أهتم! سأضحك وأخذ الأمر ببساطة»، والطفل الصغير قد يقول: «إنه يستحق ذلك، لقد سرق لعبتي»، إرساء قانون «المعاملة بالمثل غير السيمترية» مهم هنا، الهدف هو مساعدة أطفالنا والمراهقين على إدراك ما هي حقيقة الأمر بالنسبة إلى الشخص الآخر، وعلى إدراك حق هذا الشخص في امتلاك نظرة مختلفة تمامًا حتى إن لم نفهمها فهمًا كاملاً.

أن تكون مفكرًا ناقدًا في هذا السياق يعني تنمية قدرتك على إدراك أن تجربة الشخص الآخر المختلفة عنك تحمل قيمة جوهرية، ليس فقط لأنه يمكنك فهمها وتخيل مشاعرها. وعدم السيمترية في الاحترام في تلك الحالة يجب أن يميل ناحية الشخص الذي يعاني، وليس من هو بخير أو من هو غافل عن الألم الذي تسبب فيه.

تقترح يونج ممارستين ستساعداننا في مهمتنا لتحقيق عدم السيمترية في الاحترام، أولاً، تقترح بأن نقرب من الشخص الآخر بـ«دهشة»، الفضول الذي نُبدية تجاه وجهة نظر شخص آخر متجذر دائماً في تساؤلاتنا عن كيف يبدو الأمر لهم، وليس كيفية تخيلنا لمشاعرنا إن كنا في مكانهم، وبالمثل فإن في أثناء التعلم يمكن للطلاب أن يظلوا متنبهين لاحتياجات واهتمامات ووجهات نظر وقيم المفكر الذي يطلعون على أفكاره، بدلاً من اتخاذ قرار ما إن كان في الإمكان تخيل أنفسهم في ظروف مماثلة أم لا، الهدف هو أن «تقبل الأمر» لا أن تشعر به، وتشرح يونج: «وهذا يتطلب منا التحلي بالتواضع الأخلاقي للاعتراف بأن هناك كثيراً مما قد أظل عاجزة عن استيعابه من شعور الآخر»، على سبيل المثال، قد يعبر الشخص ذو الإعاقة في وقت ما عن ضيقه بحدود جسده واعتماديته على الكرسي المتحرك، أن تسمع عن تلك التجربة وتخيلها كشخصٍ صحيح الجسد ليس كأن تمر بتجربتها في الحقيقة، أحد الجانبين مثقل بواقع معيش في حين أن الآخر يحاول تخيله، لذلك وفقاً ليونج فإن جزءاً من سعيها للفهم بعمق ينبغي أن يكون الاعتراف مقدماً بوجود عدم تناسق في التجربة عندما نبدأ في الاستماع إلى وجهة نظر شخص آخر.

حين يختار الطلاب مع فهم تجربة أو وجهة نظر، يمكن تذكيرهم بضرورة تبني «حس الدهشة المحترم للآخر» مجددًا، مع تذكيرهم بأن تجربتهم في الحياة غامضة بالنسبة إلى الآخرين كما تجربة الآخرين غامضة بالنسبة إليهم، إحدى الطرائق التي يمكن بها التعبير عن الدهشة هي طرح الأسئلة بدلًا من وضع الافتراضات، حتى وقت القراءة من الممكن تكوين الأسئلة، ومن ثم البحث عن وجهات النظر التي يطرحها الكاتب التي قد تجيب عنها، إن كانت هناك فرصة لمقابلة صاحب التجربة وجهًا لوجه (المواجهة) فإن طرح الأسئلة سيكون فعالًا جدًا، تشرح يونج: «يمكن للأسئلة أن تعبّر عن شكل مميز من احترام الآخر عن طريق إبداء الاهتمام بما يمرون به، وعن طريق الاعتراف بعدم إدراك المتسائل لجميع أبعاد التجربة بالنسبة إليه»، ومع هذا لا يجب طرح الأسئلة كالسهام أو كأنها اختبار، لأن للجميع الحق في الحصول على مساحة اختيار الإجابة من عدم الإجابة. وفقًا لمعايرنا يجب أن ينطوي الاستماع على تساؤلات يقظة وواعية، وعلى التعامل مع الإجابات كهدايا، حس الدهشة سينظّم العلاقة بين السائل والموجه إليه السؤال، يوفر أرضية من الفضول والاهتمام تسمح لثمار التبصر بالنمو. وفي ظل تلك العلاقة تصبح كل مواجهة هي فرصة جديدة ومختلفة لتوليد التبصرات.

الطريقة الثانية للتعامل مع اختلافاتنا هي من تسميه يونج بـ«الفكر الموسع»، السمة المميزة للخيال البلاغي هي قدرته على الاحتفاظ بعدة وجهات نظر في ذهن الفرد من دون حاجته إلى إطلاق أحكام

فورية، نحن نوسع قدرتنا لتشمل ما هو متباين من الأفكار ووجهات النظر حين نقوم بأمرين: حين نقيس أهمية موقعنا في الحياة كواحد من مواقع كثيرة، وحين نأخذ أكثر من وجهة نظر في الاعتبار في أثناء تفكيرنا (للابتعاد عن التفكير في الأمور كثنائيات)، يتميز التفكير الموسع بحكمه الأخلاقي، وفقاً ليونج «تتطلب وجهة النظر الأخلاقية من الشخص أن يفكر في أي سؤال أو فعل ما، ليس فقط من خلال كيفية تأثيره فيه، ولكن أيضاً من خلال كيفية تأثيره في الآخرين»، إضافة تلك المقاربة إلى الدراسة ستجعل تفكير الطلاب مركزاً على التأثير وليس فقط على جمع المعلومات التي تصدق على معتقداتهم.

بدلاً من التركيز على إنشاء الدعم ليحمي الشخص موقفه من العالم، فإن الحكم الأخلاقي يطلب من الطلاب تنمية وتطوير وجهة نظر تضع في اعتبارها بشراً أكثر وتجارب وظروفاً أكثر، إن الرأي الجيد المبني على «الفكر الموسع» يبني جسوراً بين هذه الاختلافات بطريقة هادفة (ليس فقط اختيار «أهون الشرين» أو «الذي يناسبني على نحو أفضل»)، كلما زاد عدد الأصوات التي نعلم أطفالنا تضمينها، زاد عدد وجهات النظر التي يأخذونها في الاعتبار، وأصبح في إمكانهم فهم واقعنا المشترك فهماً أفضل وإصدار أحكام جيدة للمجتمع، وليس فقط للفرد وأيضاً العكس، ما هو جيد للفرد وليس فقط للمجتمع؛ يتيح تقدير الاختلاف الجذري لأي شخص تجاوز المصلحة الذاتية من أجل البقاء فضولياً ومهتماً.

نشاط : مراجعة فيلم

سريعو البديهة وحادّو الذكاء (من عشرة أعوام إلى اثني عشر عاماً) و(من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عاماً)

التحدث عن قضية سياسية أو اجتماعية هو شيء قد يثير ضغط الدم بسرعة، إحدى الطرائق التي ساعدت بها الطلاب على تجربة قوة وجهات النظر المتعددة حول نفس الموضوع هي عن طريق الحديث في موضوع قليل المخاطر كفحص مراجعات الأفلام، يعمل المراجعون مع نفس المحتوى (فيلم) ويقدمون تحليلات تفسيرية مختلفة له، من خلال قراءة المراجعات الإيجابية والسلبية، يمكن للطلاب تجربة قوة الخطاب المقنع مباشرةً من دون تعرض جزء كبير من هويتهم للخطر.

اطلب من الطالب أن يختار فيلمًا مفضلًا ليعيد مشاهدته، أعد مشاهدته الآن، اعمل قائمة بجميع جوانب الفيلم التي يقدرها طفلك ويحبها. كن دقيقًا. فيما يلي بعض الفئات التي يمكن أن تُوضع في الاعتبار:

- التمثيل.
- الحوار.
- الديكور والتصميم والأزياء.
- مشاهد الحركة.

- خط سير القصة.

- المؤثرات البصرية.

ثم اذهب لتصفح موقع «طماطم فاسدة» rottentomatoes.com،
اقرأ مراجعات الأفلام التي تتفق مع آراء ابنك الإيجابية في فيلم معين،
لاحظ ما يتوازى فيها مع وجهة نظر ابنك، وكيف توسّع أسبابها للإعجاب
بهذا الفيلم، الآن حدّد بعض المراجعات السلبية لتقرأها ثم لاحظ كيف
يفسّر المراجعون نفس المحتوى باستخدام معايير مختلفة، انظر إن كان
ابنك قادرًا على التعرف على تلك المعايير، على سبيل المثال، ربما
يكون خط القصة قد فشل بسبب سوء تعاطيه لقضية اجتماعية (ككيفية
تمثيل المرأة) أو ربما لاحظ المراجع أخطاء تاريخية، بينما يقرأ طفلك
اجعله يراقب نفسه إن وجد منها أي تفاعل عاطفي.

- هل هناك أي دفاعية؟

- هل هناك أي أسباب يريدون استخدامها لتعويض المفقود من
وجهة نظر المراجع؟

- هل هناك أي شيء يذكره المراجع يجعل الطالب متشككًا في
رأيه؟

حفّز طفلك على أن يتعامل بحس الدهشة.

- هل يمكنه أن يظل فضوليًا من دون أن يشتبك مع رؤاه الشخصية؟
لا مشكلة إن كان لا يستطيع، إنها مهارة صعب تطويرها، استمر
فقط ببساطة فيما تفعله.

- كيف يتغير تقييم طفلك للفيلم عندما يفكر في المراجعات السلبية؟

- هل يمكن للطفل أن يفسح مجالاً لكل الآراء الإيجابية والسلبية؟
هل يستطيع الطفل استخدام «الفكر الموسع» ليقبل أي انتقادات للفيلم الذي يحبه؟

لا توجد هنا إجابة صحيحة، ليس مطلوباً من الطفل أن يصل إلى وجهة نظر معدلة لتتوافق مع الآراء السلبية في الفيلم، هذه الأداة هي طريقة لمراقبة ردود أفعال الفرد حين يُواجه بوجهة نظر لا يريد أن تكون حقيقة، إنها أيضاً فرصة لملاحظة كيف يمكن أن تنتج من نفس مادة المصدر رؤيتان مختلفتان تماماً.

حدد الولاءات

الحاجز الأكبر في طريق التفكير النقدي غالباً ما يكون غير مرئي بالنسبة إلينا، نحن نتأثر بولائنا إلى مجتمعاتنا وبحس الانتماء الذي نستمد منه، تشارك المجتمعات نموذجاً متشابهاً، والذي يمكن تعريفه بـ«أنماط التفكير المقدر لها أن تُقارَن بعضها ببعض»، «نماذجنا المجتمعية غالباً ما يُعبر عنها في شكل ثنائيات، العلمانية والتدين، الرأسمالية والشيوعية، الحضر والريف، التعليم المنزلي والتعليم العام، لتتعرف على أنفسنا بناءً على كوننا داخل أو خارج النموذج، لا يريد أحد أن يضع عائلته وصدقاته على المحك بخروجه من هذا النموذج، التفكير في وجهات النظر التي تتحدى ما أُسس من قيم ومعتقدات

في المجتمع فهذا يعني المجازفة بعضويتك فيه، حاجتنا إلى الانتماء
مرسخة داخلنا على أبعد عمق، كما أن بيولوجيتنا تعمل على أن تجعلنا
نشعر كما لو كنا سنخسر كل شيء إن خسرنا مجتمعنا.

للخوض في دراسة موضوع يتعارض مع ولاءاتنا، من المفيد أن
يطرح الطلاب هذه الأسئلة أولاً:

- ما المُعرّض للخطر؟
 - ما الذي قد أتخلى عنه إن غيرت رأيي؟
 - من الذي سيخيب ظنّه فيّ إن قررت تغيير رأيي؟
 - ما القيم التي أخاف أن أخونها في سبيل إنصافي لهذا الموضوع؟
 - من مصادر السلطة في مجتمعي؟ كيف يرون هذا الموضوع؟
 - كيف سيراني المجتمع إن غيرت رأيي؟ هل ستكون عضويتي
في خطر؟
 - ما الممارسات الحالية في حياتي المرتبطة بوجهة نظري الحالية؟
 - ما الممارسات التي سيكون عليّ تغييرها إن غيرت رأيي؟
 - كيف تتعارض تلك الأفكار مع المنطق الذي تعلمته في مجتمعي؟
- يمكن أيضاً أن نطرح أسئلة حول المجتمع الآخر:
- كيف يميزون وجهة نظرهم بكونها أخلاقية أو مبرّرة؟
 - ما الحدس الذي يعمل عندهم لتكوين هذا الرأي؟
 - كيف يرى هذا المجتمع مجتمعي؟ على أنهم أصدقاء أم أعداء أم

حزب محايد؟ كيف تؤثر معرفة ذلك في رؤيتي لنفسي؟
- ما الممارسات التي تميز هذا المجتمع؟ هل لها عندهم قيمة أو
معنى شخصي؟ هل في الإمكان التعرف عليه؟
- من مصادر السلطة في هذا المجتمع؟ كيف يرى مجتمعي مصادر
السلطة عندهم؟

نحن ننتهي إلى مجموعة متنوعة من المجتمعات، وكما ناقشنا في
الفصل السادس فإن تلك المجتمعات تساعدنا في تفسير رؤانا الشخصية
وتوفر لنا سردية ما لفهم بها العالم، إنهم يوفرون لنا الأشخاص الذين
يريدون مشاركتنا الحياة سواء كانوا مشجعين لفريق أو أعضاء في
جماعة إيمانية، في أي وقت تحصل لنفسك فيه على هوية فإنك بالتبعية
تسمي هوية المجموعة التي تنتمي إليها! إن كنت تريد أن تفهم شخصاً
آخر فاذهب إلى المصدر واستمع إلى أعضاء مجتمعه وقادته، وليس
التفسير المطروح من جانب مجتمعك أنت له.

ضعهم كلهم معاً، ماذا لديك الآن؟

الوعي بالذات في التفكير النقدي هو رحلة مستمرة، وليس فعلاً
يحدث مرة واحدة، بدايته تأتي من عند الابتعاد مؤقتاً عن الموضوع
من أجل مراقبة التصورات الشخصية وقصص المجتمع أولاً، دعونا
نلقي نظرة على كيفية تطبيق تلك الأدوات في حياة المجموعة. تخيل
مجموعة من طلاب الصف العاشر، يقترح المعلم أن يستعد الطلاب
لمناقشة موضوع مراقبة الأسلحة في الولايات المتحدة، ويُعطون
مقالات لقراءتها، فيما يلي بعض الأسئلة التي يجب عليهم مراعاتها:

- ما المقصود بمفهوم التنظيم في التعديل الثاني («ميليشيا منظمة

جيدًا»)? هل ننظم الناس أم البنادق أم كليهما؟

- ما مقدار التنظيم الذي يجب أن يكون مفوضًا للحكومة؟ هل

يجب أن تكون تلك السيطرة فيدرالية أم بواسطة ولاية؟

- هل يجب أن توجد فحوصات لخلفية الشخص؟ من أي نوع؟

- فترات الانتظار لشراء السلاح: ما المدة، إن وُجدت؟

- الحق في الشراء، من يمكن له امتلاك سلاح؟ الكبار؟ الأطفال؟

ماذا عن المجرمين؟

- تنويعات الأسلحة، ما الأنواع التي يمكن شراؤها؟ ما القيود التي

يجب أن توجد؟

- هل يجب أن توجد قوانين تحمي المواطنين المسلحين إن

استخدموها للدفاع عن أنفسهم؟

يُطلب من الطلاب أن يقسموا أنفسهم إلى مجموعتين بناء على

موقفهم من قوانين حيازة السلاح، لكن بالطبع هناك سؤال أنت بالتأكيد

تطرحه الآن على نفسك: كيف لهم أن ينقسموا إلى مجموعتين؟ هناك

نطاق واسع من الأسئلة التي يترتب عليها نطاق واسع من إجابات

الموافقة والرفض وما بينهما، ونحن بالفعل واعون بفكرة أن ليست

هناك إجابة صحيحة وحيدة، هناك كثير من التفاصيل التي يجب فهمها

ثم تأويلها جيدًا. بدلًا من المناظرة يمكن للمعلم أن يرشد الطلاب إلى

تقسيم أنفسهم إلى مجموعتين لديهما خلفيات ووجهات نظر مختلفة،

بهدف توصيل التبصرات بدلاً من محاولات الإقناع، كم عدد الطرق التي يمكن أن ينظروا بها إلى نفس السؤال؟ كم عدد الإجابات المحتملة؟ تلك الظروف ستُقلِّل من إحساسهم بالخطر وستسمح بمساحة أكبر للتفكير النقدي.

تخيل الآن الطلاب ذوي الخلفيات المختلفة بشدة في تلك المجموعات، ينحدر أحد الطلاب من عائلة قُتِل أحد أبنائها في حادث إطلاق نار بمدرسة، وآخر يأتي من عائلة بها أجيال من الصيادين، وآخر له عائلة عاشت قصة إنقاذ حياة أحد أفرادها عن طريق تدخل شخص لديه سلاح. لمعالجة هذا الموضوع وهذه الأفكار، فإن هؤلاء الأطفال بالتحديد سيحتاجون إلى معرفة التعبير عن مشاعرهم القوية تجاه الأسلحة النارية من دون أن يُصرخ في وجههم أو يُقنعوا بالشعور على نحو مختلف. يجب أن يُنظر إلى وجهات نظرهم على أنها ذات قيمة للمناقشة، وليست مجرد آراء يمكن التغلب عليها أو تنحيتها جانباً، تستحق تصوراتهم الشخصية أن تُسمع بالكامل (إن لم تكن مؤلمة شخصياً بالنسبة إليهم ليحكوا عنها)، قد تكون لديهم أيضاً قدرة أفضل على سرد قصة منطق مجتمعهم حول الأسلحة باستخدام المفردات الطبيعية لذلك المجتمع، في كثير من الأحيان، نطلب من الطلاب تنحية خلفياتهم جانباً ليصبحوا موضوعيين، لكن في مشروع مجتمعي من هذا النوع، يمكن ويجب السماح لوجهات النظر القوية بالظهور، غالباً ما تساعد تلك الاختلافات القوية على إظهار تحفظات الطلاب الآخرين عليها أيضاً، هؤلاء الذين لديهم كثير ليجازفوا به في النقاش سيحتاجون

إلى أن يُتَقَرَّبَ إليهم بحس الدهشة، مع إدراك عدم السيمنية بينهم وبين الطلاب الآخرين الذين لا يشاركونهم نفس الخلفية، وسيكون من المهم لمحدثات المجتمع أن تتضمن الحلول المقترحة التي تأخذ في عين الاعتبار مختلف أنواع التجارب.

يمكن للمجموعتين معاً سرد جميع الحلول والأسئلة الممكنة التي تظهر عند النظر في هذه الاعتبارات المقترحة، يجب تضمين القصص الشخصية، إنها لحظة مثيرة لتستمع فيها كل مجموعة إلى الأخرى للنظر في كيفية سير قطار الأفكار عند كلٍّ منهم، بمجرد أن تُقَيِّم كل فكرة ويُنظَر فيها، فإن السؤال الذي يجب طرحه ليس: في أي جانب أنت الآن؟ بدلاً من ذلك يمكن طرح الأسئلة التالية على المجموعات:

- ما البصيرة الجديدة التي اكتسبتها؟

- ما الذي تفهمه على نحو مختلف الآن عن ذي قبل؟

- ما الأسئلة الجديدة التي ظهرت؟

- ما المبدأ الذي تجده مفيداً في توجيه هذه المناقشة الآن؟

إذا كانت مهمة البحث هي توليد التبصرات بدلاً من خلق مناظرة، فإن الحوار سيطر مركزاً حول تعقيدات التفاصيل بدلاً من محاولات تقليل الاختلافات من أجل تقديم حجج مقنعة، مؤلف كتاب «فكر مرة أخرى»، آدم جرانت، صاغها جيداً عبر حسابه على الإنستجرام: «السمة المميزة للمناقشة الفعالة ليست الإقناع بل التبصر». الفكرة هنا هي التعرف على الأحكام الأخلاقية التي تقدّر التجارب الفردية، وفي نفس

الوقت تضع في الحسبان تأثيرها في المجتمعات المختلفة، تذكّر أننا
بشر أولاً وطلاب ثانياً يساعد في هذه المهمة.

في الفصل القادم، سننظر في كيفية تعاملنا مع النصوص، ما فن
تأويل الكتابات المعاصرة والقديمة؟ كيف نولّد التبصرات ونصنع
المعنى من جميع المدخلات المطلوب منا تقييمها؟

الفصل الثاني عشر

فن التأويل

«القضية هنا لا تتعلق بإيجاد الحقيقة التي كتب عنها الكاتب، لكنها تتعلق بإدراك ما تكشفه من حقائق للقارئ، وكيف تصبح حية لمن يُفسّرُها».

باول ريجان

لقد وصلت إلى ذروة هذا الكتاب، جميع مسارات التفكير النقدي تؤدي إلى نهاية واحدة: التأويل، نحن نؤول مواجهاتنا مع الآخرين، والرموز التي نراها، والإعلام المرئي، والكتب والمقالات التي نقرأها، وآراء الخبراء، وشهادات شهود العيان، والتقارير الإخبارية، وتفاعلاتنا داخل العائلة، والتجارب التي نمرُّ بها، بعبارة أخرى، نحن نفسّر «النصوص»، ونفسّر ما يرسله إلينا الآخرون لكي «نقرأه» ونسعى إلى فهمه، إنها ممارسة لا مفر منها، لا يسع البشر إلا أن يصنعوا المعاني، معظم تأويلاتنا تحدث حدسيًا، وهذا ما يعني أننا نفعل ذلك من دون أن نفكر فيه.

نحن نقرأ لغة الجسد، ونبرة الصوت، والسياق، والهوية، والقواعد النحوية والتوقعات في كل تفاعل نقوم به، إن قال لك صديق «اذهب

واقفز في البحيرة» فأنت على الأرجح ستظل جافاً لأنك تعرف هذا الصديق، وتعرف أنه يقصدها مجازاً رغم فظاظته، لكن إن قالها لك مدرّبك في الترياتلون الذي يدرّبك على السباحة لمسافات طويلة في المسطحات المائية التي يسبح بها الجميع، فأنت بالأحرى ستخلع قميصك وتقفز، المعنى الذي تفهمه منه هو المعنى الحرفي.

التأويل فن، وليس ممارسة علمية لها مقاييس محددة، بدلاً من ذلك، يستفيد التأويل من روح اللعب، هنا رقصة تحدث بين المرسل والمستقبل، ترسل الرسالة من نيات الكاتب داخل السياق الفوري له، وتُستقبل في السياق الجديد الخاص بالقارئ، حينما يتعارض المنظوران، حينها يُكشف عن تأويل جديد للعمل، التأويلات لا تظهر بطريقة موحدة تصلح لكل الأوقات، إنها تتجدد باستمرار، لهذا يمكن النظر إلى التأويل كفنٍّ وليس علم.

السياق هو كل شيء

هل تتذكر؟ في عالم النشر «المحتوى هو الملك»، لكن في التفكير النقدي، السياق هو كل شيء، يشرح الفيلسوف الألماني هانز جيرج جادمر في كتابه الأهم «الحقيقة والمنهجية» مدى أهمية السياق في عملية التأويل. يكشف كل نص أصلي عن سياقين أساسيين، وفقاً لجادمر هما: أفق الكاتب (الرؤية الكونية للكاتب في توقيت كتابته)، وأفق القارئ (الرؤية الكونية المعاصرة للقارئ)، اندماج هذين الأفقين يؤثر في كيفية قراءتنا، وعلى المعنى الذي نستخلصه، أو كما يلخص

جادمير بدكاء: «أن تفهم نصًّا لا يعني بالضرورة أن تعود إلى ماضيه، ولكن يعني أن يكون هناك ما يربطك به في الحاضر».

التفكير في التاريخ يتضمن دائمًا التوسط بين تلك الأفكار وبين التفكير الحالي للمرء، بعبارة أخرى فإن كل قراءة تحتاج منا إلى الفصل بين سياقنا الحالي والسياق الأصلي من أجل الوصول إلى تأويل جديد ذي صلة بالحاضر.

السياق مهم لأن ما نعتقدده حول ما نقرأه تأثيره هو الأكثر بقاءً فينا، وليس ما هو صحيح أو غير صحيح، المعاني التي نولدها هي ما تشكّل تصوراتنا عن الواقع، بصرف النظر عما كان ينويه الكتّاب الأصليون، هذا الحوار بين الأفقيين يمكن أن يسير في أيّ من الاتجاهين. أحيانًا يكون السياق الأصلي مفيدًا بمعلوماته ومصحّحًا لمعلومات شائعة خاطئة، على سبيل المثال، في العصور القديمة، كان يُنظر إلى المطر وأشعة الشمس على حدّ سواء على أنهما هديتين إلهيتين للبركة لأن الثقافة الزراعية كانت في حاجة إلى كليهما من أجل البقاء، أما عالم الأعمال التجارية الزراعية اليوم فلا يعتمد على هطول الأمطار، تقودنا علاقتنا الحديثة بالطقس إلى رؤية المطر أكثر على أنه مصدر إزعاج أو رمز للحزن (يمكن أن ترجع في ذلك إلى أي فيلم رومانسي كوميدي)، إذا كنت تقرأ نصًّا قديمًا، فإن فهم أن المطر ليس رمزًا للاضطهاد أو الانتقام، ولكنه رمز للكرم والخير الإلهي، سيؤثر في المعنى الذي تصنعه.

في أحيان أخرى، تُعتبر القراءة المعاصرة تطورًا ضروريًا للمفهوم الأصلي، هذا هو التوتر الذي ينشأ حين نتفاوض في الولايات المتحدة

في كل مرة يناقش فيها أحد تفسير الدستور، بالتأكيد لا يوجد أمريكي اليوم يعتقد أن حق التصويت هو فقط للذكور البيض الذين يملكون الأرض، من الواضح أن الوثائق التأسيسية كانت في حاجة إلى تعديل، «يوجد الآن سبعة وعشرون تعديلاً على ما تحدده الوثيقة الأصلية» في الواقع، التعديل التاسع على وجه التحديد أقرَّ بأن هناك حقوقاً أخرى سيفهمها المواطنون من تلقاء أنفسهم لم تُذكر في وثيقة الحقوق، يا له من تعديل ثاقب! ومع ذلك، مَنْ الذي يقرر أي الحقوق لمن ومتى؟ هنا هو مجال عمل التأويل، كما تعيد المحكمة العليا النظر في التأويلات القديمة للدستور وتعديلاته، أُلغي التعديل الثالث عشر للعبودية وأُلغيت المادة ٤، القسم ٢، البند ٣ من الدستور -بند الرقيق الهارب- أزالته المحكمة الحقوق الممنوحة سابقاً، مشيرة إلى أن مالكي العبيد ليست لديهم حقوق ملكية، وبالتالي، لا يمكنهم استرداد الأمريكيين المستعبدين سابقاً من الشمال الحر.

النيّات والمعاني الأصلية يمكن أن تكون مفهومة بدقة، حتى حين يقلب التأويل الحديث موازين قوى هذه الأفكار، ولهذا حين نتحدث عن التأويل فنحن ننظر إلى طبقات من الفهم ندمجها معاً من أجل ما يناسب اللحظة الحالية.

إحدى الطرائق الأخرى التي يؤثر بها السياق في تأويلنا تعود إلى وجهة نظر الكاتب، يشير المنظّر الاجتماعي جاكسون كاتز إلى أننا في الولايات المتحدة نستخدم صيغة المبني المجهول لنصف الأشياء السيئة التي تحدث للنساء، كما لو أنه لا يوجد فاعل، ويجادل بأن تلك

الطريقة للحديث عن العنف تؤدي إلى تأويل يراه أقل عدوانية مما هو عليه في الحقيقة، في هذا المثال فإن البناء النحوي يؤثر في كيفية استقبالنا للرسالة.

نحن نتحدث عن عدد النساء اللواتي اغتُصبن السنة الفائتة، وليس عن عدد الرجال الذين اغتصبوا نساء، نتحدث عن عدد الفتيات اللواتي تعرضن للتحرش في منطقة المدارس السنة الفائتة، وليس عن عدد الأولاد الذي تحرشوا بهن، لهذا يمكن أن ترى تأثير الصوت المبني للمجهول سياسيًا، إنه ينقل التركيز من على الرجال لِيُسَلِّطَ على النساء. المبني للمجهول يضع التركيز على الضحية بدلًا من المعتدي، هذا هو نوع عدسة الملاحظة التي نحتاج إليها في أي تأويل.

الأدب الكلاسيكي

دعونا نلقي نظرة على الدور الذي تلعبه تلك الديناميكية في أثناء قراءة الأدب الكلاسيكي تحديدًا مع الأطفال، بطريقة روتينية يتغيّر مدى قبول الكتب عند الناس بناء فقط على السياق، قد يُنظر إلى الكتاب الذي كان شائعًا في عصر ما على أنه كتاب عنصري في العصر التالي، سلسلة «البيت الصغير» من تأليف لورا إنجولز وايلدر هي مثال ممتاز على ذلك. الكتاب الأول في السلسلة «البيت الصغير في الغابات الكبيرة» نُشر سنة ١٩٣٢ وأصبحت السلسلة قوة طاغية في الاستحواذ على الجوائز، حيث باعت الملايين تلو الملايين من النسخ، وحصلت على عديد من جوائز النيوبيري ميدال، وكُرِّمت بإنشاء جائزة في أدب الأطفال باسم

وايلدر، لديّ نسخ مجلّدة من السلسلة، وقد قرأتها مرات لا تحصى
لنفسي ولأولادي، وزرت منزل لورا في دي سميت داكوتا الجنوبية مع
عائلي. لعقودٍ من الزمان رُوج لكتب لورا كنموذج لأدب الأطفال عالي
الجودة، أحب أسلوب وايلدر السلس الناعم وحس دعابتها الذكي في
الكتابة، لكن على نحو ما (لعقود) تجاوز القراء العنصرية الواضحة
في كتابتها والتي كانت سمة عصرها، اقتباسات مثل «الهندي الطيب
الوحيد هو هندي ميت» من كتاب «منزل صغير في البراري» مع المشهد
الموتر الذي عرض الأب مع الأصدقاء في مواجهة الوجه الأسود في
البلدة الصغيرة في البراري.

لم يلتقط راداري معاملة وايلدر العنصرية للأمريكيين الأصليين
والسود حينما كنت طفلة، أتذكر الصدمة التي تعرضت لها حين
اصطدمت بتلك التصورات العنصرية عندما قرأت الكتب لأولادي
في القرن الحادي والعشرين. اخترت أن أرى تلك النصوص كفرص
لتعليم أطفال البيض حول شرور العنصرية، الخطوة الأولى لتكون
متأكدين، تشهد ثقافتنا حاليًا ثورة متقدمة في الوعي، القراء من جميع
الخلفيات يتم تحديثهم للتفكير في تأثير تلك النوعية من الأدب في
الأطفال من السكان الأصليين والسود الذين يقرأون قصص وايلدر
التي تصوّر لهم العنصرية في فصولهم ومنازلهم، بالإضافة إلى ذلك
يُطلَب من الآباء والمدرسين البيض التفكير في الإرث الذي تخلقه هذه
الصور النمطية وتأثيرها في الأطفال الصغار جدًّا وكيف تشكّل قصص
مثل هذه خيالهم المبكر إجباريًا، بينما تفحص ثقافتنا ذاتها تاريخيًا فإن

تأويلنا لما نقرأ يتغير، والقانون الوحيد الذي يبقى هو أنه لا يوجد تأويل نهائي لأي نص.

في عام ٢٠١٨ أعادت جمعية المكتبات الأمريكية تسمية جائزة لورا إنجولز وايلدر لأدب الأطفال إلى جائزة أدب الأطفال، وأزيل اسم وايلدر بما أن تقديرها لم يُعد في محله، ولم تُعد كتابتها ترمز إلى قيم القراء المعاصرين. من الجدير بالملاحظة أن سنة ٢٠١٨ جاءت بعد ٨٦ عامًا من أول إصدار لكتاب «المنزل الصغير في الغابات الكبيرة»، كتب وايلدر هي نتاج تجارب حياتها ومنظورها كمستوطن أمريكي في القرن التاسع عشر، رئيس الجمعية جيم نيل، ورئيسة قسم الأطفال نينا ليندسي، قالوا في البيان: «إن أعمالها تعكس المواقف الثقافية التي عفا عليها الزمن تجاه السكان الأصليين والملونين، والتي تتعارض مع ما يوجد حاليًا من قبول واحتفاء وتفهم للمجتمعات المتنوعة».

حين نؤول الكتب فإننا ملزمون بكل من أفق الكاتب (الظروف التي كتب فيها الكاتب) وأفق القارئ (المكان والزمان اللذان تحدث فيهما القراءة)، استغرق الأمر ما يقرب من قرن ليُنظر بطريقة أخرى إلى تأويل القيم المعروضة في كتب وايلدر. يمكننا أن نقرأ الكتب على مستوى نقدي واضعين في الاعتبار أنها تنقل نظرة المستوطنين البيض القديمة ونحن -كبالغين تحديدًا- على استعدادية أكبر أن نتعرف على السياق السياسي والاجتماعي لما نقرأه لننظر إليه نظرة ناقدة، لكن اختيار قراءة كتبها بطريقة نقدية هو من الأساس ثمرة ظهور تأويلات جديدة في هذا

العصر. لمدة ما يقرب من قرن كانت هذه الكتب تُقرأ بُودً للأطفال مع قليل من التفكير في الكيفية التي ساهمت بها في ترسيخ العنصرية وقبولها.

فن التأويل

جميعنا نؤول، الأدوات التي عرضناها في هذا الكتاب حتى الآن تعطي طلابك فرصة لمن يعرف كيف يستغلها لإجادة مهمة التأويل، في هذا الجزء دعونا ننقل تلك المهارات إلى تأويل النصوص المكتوبة، بمجرد أن يتعلم أطفالك الأمر فإن هذه المهارات يمكن أن تُطبَّق على محاضرات تيد، ومحاضرات الجامعة، والوثائقيات، والأفلام، والمسرحيات، والشعر، وعلى المحادثات مع الأصدقاء، لتأويل نص (خاصةً إن كان منفصلاً عن سياقه الأصلي)، فإن الخطوة الأولى هي إدراك أن فك تشفير الكلمات ليس هو فهم نية المؤلف، ستؤثر المفردات التي يعرفها القارئ وقيمته الثقافية وتوقعاته ووجهات نظره الشخصية على كيفية قراءته للنص، غالبًا ما تؤدي القراءة الأولى إلى تأويلٍ غير دقيق.

كلَّفتُ طلاب أحد فصول المدرسة الثانوية التي درّست لهم بتأويل المقال النسوي الشهير الذي كتبه جودي برادي «لماذا أريد زوجة؟»، المقال هجاء خالص، ويركّز على الدور المنزلي الذي حُصِرَت الزوجات فيه منذ منتصف القرن العشرين. تصوّر برادي الزوجات كخدمات في المنازل لأزواجهن، ويسخر المقال من أن حتى الزوجات سيستفدن من أن يكنَّ لهن زوجات، عندما طلبت من

هؤلاء الأطفال الذين تلقوا تعليمهم في المنزل قراءة المقال في أوائل
الآلفينيات أصبح كثير منهم دفاعيًا لأن لديهم أمهات اخترن البقاء في
المنزل والقيام بأدوار تقليدية. القراءة الأولية بدت مهددة لهم، سببت
لهم تلك القراءة الأولية شعورًا بالتهديد كما لو كانت تقلل من قيمة
عمل أمهاتهم، لم يكن طلابي قد اكتسبوا بعد منظورًا تاريخيًا لفهم
كيف أن الأم المسؤولة عن المنزل اليوم لديها عديد من الخيارات
مقارنة بالزوجات الموصوفات في عام ١٩٧١، ومن المثير للاهتمام
أن في السنوات الخمس الماضية لاحظت أن ردود أفعال الطلاب على
هذا المقال قد أصبحت أكثر تقبلاً، لأن كثيرًا من الأمهات أصبحن
يضعن العمل إلى حياتهن داخل المنازل كما أن الأبناء بدأوا يرون
آباءهم على استعدادية أكبر للمشاركة في الأعمال المنزلية، كنتيجة
بدت ردود أفعال المراهقين على المقال في العقد الثالث من هذا القرن
أقل معارضة، كيفية فهمنا لكل نص مؤقتة ومتأثرة بالثقافة، الإدراك
الشخصي هو عدسة تحكم قوة خاصة عند القراءة الأولى، بينما يعمل
طلابك على تأويل النص ذكّرهم بأنهم سيولّدون تبصرات إضافية بعد
القراءة الأولى، سيتطلب الأمر منهم جهدًا متعمدًا للحفر على مستوى
أعمق في أثناء القراءة الثانية، المهمة التالية هي مهمة موجهة إلى حادّي
الذكاء (الطلاب من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عامًا).

تلك هي بعض الأسئلة التي ستشكّل تحديًا في الإجابة عنها،
وتتطلب أن يكون أولادك مؤسّسون جيدًا في المهارات الأخرى التي
شرحناها في هذا الكتاب:

نشاط : مهمة جرد تأويلية

إحدى أهم الطرائق لتعلم كيفية تأويل نص هي عن طريق استخدام طريقة تطرح أسئلة ليعكسها الطالب على نفسه في أثناء قراءته، قل لابنك: «كن صادقاً مع نفسك! لا أحد هنا يشاهدك». بعض الكتب الأكثر تفضيلاً عندي محتواها به كثير من الثغرات التي تركت نفسي أندفع لأملأها بتأويلات جاهلة كثيرة، ثم لاحقاً بمجرد أن استزدت في البحث كان الأمر أشبه بكبسولة زمنية سمحت لي أن أرى المسافة التي قطعها تفكيري من وقتها. في النشاط التالي، عمل هانز جيروج جادير يُكمل عملي، لقد تبين طرحة حول الآفاق الثلاثة في التأويل للمراقبين تحديداً، تُكتب قائمة الجرد التالية ليُكَلَّف بها القارئ، وسيُكَلَّف باختيار نصّ مكتوب: رواية، أو شعر، أو خطاب، أو وثيقة تاريخية، أو مقال إخباري، أو نقد أدبي، أو مراجعة فيلم، أو مذكرات، إلخ، ثم ابدأ مع نصّ عدد كلماته أقل من ألف كلمة، ثم اجعل الطالب يتبع تلك التعليمات:

١- اطبع النص أو صوره مع ترك هامش للكتابة :

إذا كان ذلك ممكناً، فأخرج النص من تجليد الكتاب، انسخه (وقلّص النص إذا لزم الأمر) واسمح بمساحة هامشية للكتابة (من بوصتين إلى ثلاث بوصات)، إذا كان من الصعب إخراج النص من تجليده لأي سببٍ من الأسباب فأعد كتابته، واترك المساحات اللازمة ثم اطبعه.

اطرح أسئلة حول النص في الهوامش:

٢- مَيِّز الفقرات المهمة، واطرح أسئلة موجَّهة إلى النص، سجِّل ردود أفعالك الحقيقية بنبرتك الطبيعية في الكتابة. من المقبول تمامًا أن تكتب أشياء مثل: «ماذا يعني هذا بحق السماء؟»، أو «لا يمكن تصديق مدى جهل هذا الكاتب»، تلك الانطباعات الأولى ستعطيك فكرة عن انحيازاتك وعما يهتمك في النص، ربما تشعر بمشاعر من الارتباك أو ربما تشعر بالاستفزاز، في النهاية قد يبدو النص أكثر منطقية أو على العكس قد تجد نفسك تتفق معه في البداية ثم تجده يتحدى وجهة نظرك وأنت تُنهي قراءته، دَوِّن كل هذا في الهوامش.

٣- ضع خطأ أو علامة مميزة على المصطلحات والعبارات والأدلة والتعبيرات الأدبية المتكررة:

بالإضافة إلى طرح الأسئلة حول النص، لاحظ أسلوب الكتابة، هل يكرر الكاتب مصطلحًا معينًا؟ هل يذكر الكاتب أدلة مثبتة أو أبحاثًا ذات مصداقية؟ لاحظ تأثير الأدوات البلاغية المتكررة مثل الجناس أو القافية أو السجع، تعرَّف على أي مجازات أو تشبيهات، لاحظ التجارب الشخصية للكاتب أو الحكايات المستخدمة لإثبات نقطة معينة.

٤- اربط ملاحظاتك الأولية بكتابات أو بيانات أخرى:

ملاحظات الهامش والأسئلة هي طريق للعودة إلى أجزاء النص التي استفزَّت شيئًا فيك، إنها ستقدِّم لك نقطة انطلاق ممتازة لتحديد من عندها أطروحتك والزاوية التي ستنظر منها إلى الموضوع في ورقتك

البحثية، اعمل روابط مثل: «قارن هذه الفكرة بالنظرية التي وجدتتها في كتاب آخر»، أو «تحقق من هذه الإحصائية للتأكد من صحتها».

بمجرد الانتهاء من قراءة النص وتدوين الأسئلة وكتابة الملاحظات، حان الآن وقت طرح بعض الأسئلة على نفسك، في حالة النصوص الأقصر كالشعر والخطب السياسية والدينية، فإن إعادة القراءة لهم بالغة الأهمية، إن كنا نتعامل مع نصٍّ أطول من ذلك فربما لا تملك الوقت الكافي لإعادة قراءته، لكن يمكنك إجراء مسحٍ سريعٍ لإيجاد الفقرات التي تهلك وتساعذك في الإجابة.

أفقه القارئ (أنت)

بينما تقرأ النص، اسأل نفسك هذه الأسئلة:

حول موقفك

- ماذا تتمنى أن تجد في النص؟
- ما الشكوك التي لديك حول النص؟ هل تقرأه وأنت معه أم ضده؟
- بعبارة أخرى، هل أنت قارئٍ مستقبلٍ أم عدائي؟
- اكتب ببساطة، ما الذي يُغضبك؟ ما الذي يفاجئك؟ ما الذي يريحك؟

حول ردود أفعالك

- ما الصور الذهنية التي تأتي إليك في أثناء القراءة؟ (انظر أنشطة الفصل الرابع للطلاب حادّي الذكاء إن كنت تحتاج إلى أسئلة لتثير تلك الصور).

- كيف تتجاوب مع لغة الكتاب؟ هل يقدم صوراً نمطية؟ هل يُظهر الكاتب ضيقاً لنفسه أو توازناً في تقديم وجهة النظر المعارضة؟
- هل تثق بالكاتب؟ لماذا ولماذا لا؟
- ما ردود أفعالك الفورية على هذه الكتابة؟ (تذكر ملاحظات الهوامش، قد تساعدك هنا).
- ما الذي تريد تجنبه؟
- بينما تقرأ، ما الأصوات الأخرى التي تستدعيها؟ صوت عائلتك؟ مجتمعك الديني؟ (الفصل السابق به مزيد من الأسئلة حول هوية المجتمع والولاء للذين يمكنك استخدامهما للفحص أكثر).
- ما الصوت الأعلى داخل رأسك؟ صوت كاتب مفضل؟ صديق؟ قائد من نوع ما؟

التأثير

- كيف يتقاطع النص مع تجربة شخصية تخصك؟ هل النص مألوف أم غريب عنك؟
- من أنت؟ هل يدعّم النص موقعك من العالم (هويتك، حالتك الاقتصادية، عرقك، توجهك الديني، جنسيتك، تعليمك)؟ أم هل يتحدى ذلك؟ تذكر أنك متعدد الجوانب وبالتالي لديك أجزاء متعددة من الهوية.
- هل يعرض النص رؤية متفائلة؟

- لماذا تقرأ هذا النص؟ إن كان من أجل أسباب دراسية فإنك غالباً ستتجاوزها لغاية أعمق من ذلك.

- ما رد فعلك الإجمالي على النص حتى الآن بعدما قرأته وفكرت فيه لبرهة؟

بمجرد أن تنتهي من هذا الجرد، من المفيد أن تكتب كتابة حرة لبضع دقائق، ضع بعثرة أفكارك في شكل بضع فقرات من دون تعديل أو تنميق، ثم انتقل إلى المرحلة التالية من الجرد، ربما تحتاج إلى أن تأخذ يوماً كاستراحة قبل أن تبدأ في المرحلة التالية من التحليل.

أفق النص (الكاتب)

كل نص مكتوب ينمو في سياقٍ محددٍ، كلما كان النص قريباً زمنياً زادت إمكانية فهم أبعاد عالمه الثقافية والسياسية واللغوية، ومع ذلك فإن في معظم الأوساط الأكاديمية غالباً ما نكون مطالبين بالفحص والتعليق على الكتابة البعيدة عنا اجتماعياً وتاريخياً وثقافياً. ستعمل أحياناً مع نصوص مترجمة من لغات أخرى (أو حتى فيلم أو كتاب بلغة غريبة عنك مع تذييل ترجمة بلغتك)، معرفة شيء أو اثنين عن السياق التاريخي والاجتماعي والعنقي والسياسي هو أمر بالغ الأهمية للحصول على قراءة دقيقة، وبالمثل تؤثر اللغة والثقافة في الكتابة أيضاً، مع وضع هذه الأمور في الاعتبار، دعونا نلقي نظرة على كيفية فحص النص المكتوب نفسه. بينما تعيد قراءة النص، ضع هذا في اعتبارك:

النص نفسه

- ما النص الذي تعمل معه؟ حدّد إن كان عملاً أدبيّاً أم تاريخيّاً أم نقديّاً، أم نصّاً دينيّاً، أم دراسة بحثية، أم قصيدة، أم تقريراً إخباريّاً، وهكذا. تصنيف الكتابة سيحدّد لك طريقة التعامل مع النص، لذا إن كنت تتعامل مع أسطورة، فستعاملها على نحو مختلفٍ عن الوثائق التاريخية، افهم خواص تصنيف النص قبل أن تبدأ في العمل عليه: كيف وصل إليك النص؟ لماذا هو مهم؟ من أيضاً يعتبره مهمّاً؟

- بأي لغة كُتِب؟ بأي لغة تقرأه؟ هل هناك أي تذييل يوضّح معاني مصطلحات أو صور أو إحالات غير مألوفة لك؟

الكتابة

- كيف كُتِب النص؟ هل المقصود أن يكون رواية أم قصيدة أم سجلاً أم كتاباً سياسيّاً أم رسالة دينية؟
- هل الكتابة مبنية للمعلوم أم للمجهول؟ هل يمكنك التعرف على الراوي؟

- هل تشعر بوجود جمهور عدائي؟ هل هو مكتوب بغرض الترفيه أم الإقناع أم التحذير أم الطمأنينة؟

- كيف يلعب النص على المشاعر؟ هل تلاحظ أي استعارات أو صور أو تشبيهات معينة تساعد القارئ على «الشعور» بمعنى الكتاب؟ هل يمكنك تحديد كيف فهم في تلك الحقبة والسياق؟ هل يعمل جيدًا اليوم كما كان يعمل في العصر الأصلي؟
- حدّد منطق القطعة. ما أنواع الدعم التي يستخدمها الكاتب لتوضيح الفكرة؟ إذا كان ما تقرأه أدبًا فصِفْ خط الحبكة وحدّد الذروة، كيف يوصلك الكاتب إلى هناك؟ إذا كان تقريرًا إخباريًا، فما الحقائق الأساسية وبأي ترتيب أهمية قُدِّمت؟

الجمهور

- من الجمهور الأصلي؟ هل كان توجيه النص لهم مقصودًا؟ على سبيل المثال، قد يكون هناك خطاب موجه إلى جمهور معين حتى في حالة عدم حضورهم، لأن المتحدث يعرف أن الخطاب سيُنقل إليهم، هل يمكنك تحديد هدف النص؟ هل كُتِبَ بتكليف من سلطة معينة؟ هل كان الكاتب في خطر في أثناء كتابته؟ هل عانى الكاتب من أجل كتابته؟
- كيف تلقى الجمهور الأصلي هذا النص؟ (على سبيل المثال، في أيام شكسبير كانت مسرحياته ملحوظة ومستقبلية جيدًا لكن بالنسبة إلى بعض النصوص الدينية فقد تُجوهلت تمامًا حتى سنوات بعد وفاة الكاتب).

- هل كان النص يهدف إلى تعزيز السلطة أم تقويضها؟ إذا كان أدبيًا، فهل يتناول النص موضوعًا اجتماعيًا سياسيًا محددًا؟ هل هناك سياق؟ ما سياقه؟

- هل هناك أي مراجع ثقافية يجب فهمها؟ ما هي؟ هل ترى أساطير أو مجازات أو أفكارًا يجب فصلها عن النص وفهمها على مستوى أعمق؟

الأهمية

- ما الأسئلة التي يحاول النص الإجابة عنها؟ هل هناك أي مواد من حقبة سابقة تساهم في هذه الإجابات؟

- ما سياقه التاريخي؟ ما رؤيته الكونية العلمية (الأرض مسطحة؟ الآلهة تتحكم في الطقس؟ التجريبية تؤدي إلى الحقيقة؟)؟ ما مناخه السياسي؟ من في السلطة؟ هل النص يؤيد أم ينتقد السلطات السائدة؟

- كيف يخاطب النص الحالة الاقتصادية الحالية؟

- ما وضع المؤلف؟ هل نعرف ما تعليمه؟ حالته الاقتصادية؟ نسبه؟ مكانته الاجتماعية؟ سمعته وقت كتابة النص؟

- هل هناك تأويلات سابقة لهذا النص؟ من أيضًا اعتبره يستحق التأويل؟ وكيف أثرت تلك التأويلات في قراءتنا العصرية له؟

اندماج الأفقيين (أفكك + أفق الكاتب)

حان الآن وقت تأويل النص! التأويل هو امتياز، يُمنَح لمن يهتم بما فيه الكفاية للتفاعل مع المادة من دون أن يضع افتراضات، ولمن هو على استعداد أن يتغير بناء على ما يقرأه. التأويل هو شكل من أشكال الفن؛ ولهذا فإن كل تأويل سيحمل بصمات تبصّر فريدة تخص من أوّلّه، وهذا يعني أنه لا يوجد تأويل واحد يلائم الجميع. ومع ذلك، يمكن أن يكون هناك إجماع متداخل من مجموعة متنوعة من المؤلفين، في حالات كثيرة يقضي العالم الأكاديمي وقتاً طويلاً في المجادلة حول من لديه قراءة أكثر إقناعاً للنص في أي وقت، لكنهم أيضاً يدركون أن القراءات المتعددة يمكن أيضاً أن تقدم اختلافات وجيهة يجب أخذها في عين الاعتبار.

يشبه فن التأويل رمي الأواني الفخارية أو تجميع لحاف يدوي أو رسم منظر طبيعي، هناك عديد من القطع تندمج معاً لتولّد التأويل النهائي، ما تخلقه هو عرض رائع لكيفية فهمك الحالية للنص محل التساؤل، إنه سيحمل بصمات تفردك، حتى عندما تعمل على أن تكون موضوعياً وعادلاً، تأويل نص ما هو عمل مجزٍ للغاية حين تتعامل معه بصبرٍ وفضولٍ واهتمام، أجب عن الأسئلة التالية في ضوء الأفقيين اللذين فكرت فيهما بالفعل (أفكك وأفق الكاتب)، ربما لا تملك إجابات عن جميع الأسئلة، خذ راحتك لتخطي واحدة إذا كانت لا تتعلق بالنص الخاص بك، في أثناء تشكيل تأويلك، ضع في اعتبارك هذه الأسئلة:

الأهداف

- ما المُعرَّض للخطر؟ هذا هو أهم سؤال في عملية التأويل، في رواية «كبرياء وتحامل» على سبيل المثال، العلاقة بين الأعراف الاجتماعية والتحقق الشخصي قُيِّمَتْ ونُقِدَتْ، ما الذي كان على المحك تبعًا لذلك؟ هيكل نظام الطبقات في بريطانيا وأهمية الاختيار الشخصي، اسأل نفسك؟ ما الذي وُضِعَ على المحك في هذا النص؟ واسأل أيضًا ما المُعرَّض للخطر بالنسبة إلى القارئ، وكيف يتحدى النص قناعاتك؟
- ما الأسئلة التي يحاول النص الإجابة عنها؟ ما الأسئلة التي لا يستطيع الإجابة عنها؟ ما الإجابات التي وجدناها لهذه الأسئلة في عصرنا الحالي؟
- كيف يؤثر فيك النص؟ ما الأفكار التي تجد نفسك تفكر فيها؟ هل هي تخريبية؟ هل هي ملهمة؟ هل تحاول إيجاد حل؟
- لخص ما تعتقد أنه رسالة الكاتب.
- ما الحبكة الفرعية أو الفروق الدقيقة التي تهلك؟
- ما الذي فشل النص في إيصاله؟
- ما رؤيتك الكونية أو أفكارك عن الواقع التي يتحدثها النص؟

الحدود

- ما التحيزات التي يتم تحديدها؟ ما التحيزات التي لا تزال من دون تحدٍّ؟
- كيف برأيك أثر هذا النص في عصره أو تحدث إليه؟ كيف يمكن أن يخاطب عصرنا؟
- ما المجتمع الذي تنتمي إليه، وكيف يرتبط النص به؟ هل يحمل النص مستقبلاً مفتوحاً لك ولمجتمعك أم أنه يخربّه؟ ما الولاءات التي تظهر لك في أثناء تأويل النص؟
- ما الاحتمالات الممنوعة (المحدودة) برسالة هذا النص؟
- إذا كان الكاتب في برنامج حوار، فماذا تظنه قد يقول لجمهور اليوم؟

تأملاتك

- هل تغيرت خلال عملية التأويل؟
- كيف تغير حدسك الأولي أم هل بقي كما هو؟
- هل حاولت التحكم في تأويلك في أي لحظة؟ لماذا؟
- ما الذي تظن أنه لم يُقَلَّ خلال هذا النص؟

الاستنتاجات المبدئية للمفسر

بمجرد تجميع أفكارك من خلال هذا النموذج من الأسئلة، فقد حان الوقت للنظر في هذا التأويل الأولي، هناك مبدآن يجب وضعهما في الاعتبار:

١ - ستكتب تأويلاً أفضل إن جلست مع أفكارك لبضعة أيام قبل أن تحاول توليفها.

٢ - مسموح لك بتغيير رأيك، قد تكون اعتقدت أنك تعرف الاتجاه الذي تريد أن تسلكه كاستجابة للنص حين بدأت قراءته، إذا كان الجرد وإعادة القراءة قد غيّرَا حدسك الأولي فسجّل ذلك، وحدّد ما الذي استثار تلك التغييرات.

كيف نبدأ؟

لأطفالك المكلفين بكتابة ورقة أو صياغة ملف رأي، إليك العملية التي يجب استخدامها لدمج ما اكتُشِفَ من خلال نشاط جرد التأويل.

- اكتب سرّداً (بأسلوب العلاج الزوجي) لما تعتقد أن الكاتب يطرّحه (من دون وجهة نظرك)، ابذل قصارى جهدك لإزالة أي أحكام وأي افتراضات محددة زمنياً وأي من أفكارك الخاصة، التزم بما تعتقد أن المؤلف يقوله حتى لو كنت تختلف معه.

- بعد ذلك اكتب عن علاقتك بالنص، وابحث عن مواضع اتصالك به (التجارب والمُثل العليا والاستعارات والتشبيهات).

- بعد ذلك أضف أي تعليقات تتحدى ما تقرأه، والأفكار التي تناقش ما تجده مزعجاً وغير مقبول.

- اكتب حول أكثر فكرة جذابة ظهرت من خلال اندماج الأفقين، اكتب حولها بدعم من النص الأصلي في ظل السياق الذي يُقرأ فيه حالياً.

- آخر خطوة هي مراجعة تأويلك بالمقارنة مع تأويلات أخرى، ستجد أحياناً أنه حتى الفكرة الصادقة التي كوَّنتها قد تكون مضللة أو قد أغفلت جزءاً رئيسياً من السياق، ضع ذلك في الاعتبار قبل الانتهاء من عملك.

روح اللعب أمر أساسي في اندماج الأفقين، إحدى النقاط الثابتة التي يشير إليها جادامير هي أن كل عصر سيغيّر معنى تأويل الجيل السابق على نحو لا مفرّ منه، نحن لا نصنع معنى فقط للعصر الذي كُتب فيه النص، لكننا نجد أنفسنا نعيد أخذ هذا المعنى في عين الاعتبار في وقتٍ آخر في حياتنا. جميع النصوص المقدسة القديمة هي خير مثال على هذا السيناريو تحديداً.

إذا عدنا إلى خطاب الحب الخاص بجدي في المقدمة، فقد أكتب تأويلاً يختار التركيز على المعنى المتغير للغة «ممارسة الحب»، لمناقشة كيف غيّرت العادات الجنسية لثقافتنا كيفية استخدامنا لتلك اللغة على مدى عقود القرن العشرين، تضمنت كتابات جدي الإشارة إلى فكرة المرة الأولى كما في جملة: «المكان الذي مارست الحب معك فيه لأول مرة»، مما يعطي انطباعاً أنه كان يتحدث عن فعلٍ ما تكرر

بعد المرة الأولى، «ممارسة الحب» بالمعنى الجنسي هو فعلٌ يمكن تكراره، هذا يعني أن تأويلي سيتأثر بما تعنيه الكلمة في الوعي الحديث، قد أختار أن أفكر أن جدي كان يحاول إيقاظ عقل زوجته من خلال التلميح إلى بداية حياتهما الجنسية التي امتدت إلى أكثر من ثلاثين عامًا. التأويل لن يكون فقط حول تحديد ما إذا كانا أو لم يكونا قد مارسا الجنس قبل الزواج، لكن سيكون حول كيف تنتمي هذه الرسالة إلى العصر الذي كُتِبَتْ فيه، وحول علاقة جدي وجدتي التي امتدت بطول حياتهما، وحول قوة الحب الذي تحمّلنا حين تواجها الحياة بتحديات الخرف ونهاية العمر.

في النهاية، أن تفكر بطريقة نقدية يعني أن تؤول، كلما علّمنا أولادنا كيفية طرح الأسئلة على أنفسهم لتمكينهم من التعامل بوعي واهتمام ووضوح، كانت تأويلاتهم أفضل، الجزء الأكثر صعوبة في الالتزام بتأويل ما هو إدراك أن أي تأويل يقدّمه المرء سيخضع لاحقًا للفحص والمراجعة في وقتٍ لاحقٍ، كلما أسرعنا في مساعدة شبابنا الصغار على إدراك أنهم لا يحاولون تأمين عقيدة تصلح لجميع الأوقات لكنهم فقط يشاركون في تدفق الأفكار الذي يسير صعودًا وهبوطًا، كانوا أكثر تمكّنًا من الاستمتاع بالتفكير النقدي والتأويل كتعبيرٍ عن الذات وعن العلاقة بالآخرين وعن الأفكار المتسامية.

الفصل الثالث عشر

شجاعة تغيير رأيك

«لديك الحق في تغيير رأيك».

أوبرا وينفري

إحدى أكثر الحقائق صعبة التقبُّل عن وجهة نظرك هي أنها ليست بالضرورة دائمًا منطقية للآخرين في حياتك، يمكنك أن تجادل وتشرح وتشارك وتُعقِّلن وتعرض البيانات والإثباتات، وبظل نتاج كل هذا أنهم لا يرونه بنفس الطريقة التي تراه بها، لقد اكتشفت أن الأمر يحتاج إلى شجاعة هرقلية عظيمة في تلك اللحظة لتتحكم في نفسك وتسأل: «إذن كيف يبدو الأمر لك؟ كيف ترى الأشياء؟»، ثم أحاول بجدية شديدة أن أحترم وجهة نظر الآخر، وأرى كيف هي منطقية بالنسبة إليه قدر ما أستطيع، أراقب ردة فعلي أيضًا وأحترمها، لأنني ألاحظ ما يقع على المحك بالنسبة إليّ، سواء كانت آراء أو أفكارًا أو مجتمعات، ثم أضع كل ذلك جانبًا مؤقتًا.

- أحاول تقدير المنطق الداخلي للموضع الذي أنا غير موجودة فيه.

- أصوّر لنفسي كيف أن هذا الشخص لديه وجهات نظر وقصة منطقية مجتمعية تخبره كيف يفكر.

- أسأل نفسي إن كان هناك أي شيء جديد يجب أن أضعه في الحساب، أو قد يعمل كمساهمة محتملة في تطوير أفكار.

- أحاول تحديد ما لا يريد الآخر المخاطرة به إن اضطر إلى مراجعة أفكاره أو إلى الاستماع ببساطة إلى أفكار.

أقول لطلابي: لا يمكن إنجاز كل هذا في جلسة واحدة، أحياناً يحتاج التعامل مع الأفكار غير المريحة إلى أسابيع أو شهور أو سنوات، إبقاء المحادثة مستمرة مهم، اختيار أن ترى الناس كأفراد وأعضاء في مجتمعات يساعد في تذكر ما هو مُعرَّض للخطر في حياتي حين أفكر في وجهات النظر التي لا أريد أن تكون صحيحة، وهذا يتيح لي التعاطف مع نفس الصراع الداخلي الذي يمر به «معارض» ويشعر به.

بصراحة، إنه أصعب عمل أقوم به على الإطلاق، وأنا أقوم به بجرأة ومن دون سعي للكمال، رغم ذلك فقد وجدت أن الأمر يستحق الجهد، إنه ما أتمنى أن يفعل الآخرون مثله لي، إنها الطريقة التي أتمنى أن ننشئ بها أطفالنا. يتطلب الأمر وقتاً لتعلم كيف نكون جزءاً من مجتمع تتعايش فيه وجهات نظر متنوعة جنباً إلى جنب. إنه لمن الممتع جداً أن أكون في مجتمعات المتحمسين التي تضم أشخاصاً يوافقوني الرأي. الاشتياق إلى أرضية مشتركة احتياج إنساني. نحن نحب وهم اليقين المشترك. إن إفساح المجال للمعارضة يشبه السماح بحصاة للبقاء في حذاء مريح، ومع ذلك، يعرف المفكرون الناقدون أن الأمر قد حُسِم وأن معارضتنا

لبعضنا هي ما تسمح لنا بالنمو وتستفزنا للاستزادة من البحث. يمكننا أن نفسح مجالاً في حيواتنا لكلا الأمرين؛ لمجتمعاتنا التي نبنيها عبر المعتقدات المشتركة، ولهؤلاء الذين هم على مساحة أبعد عنا في الآراء.

لا يوجد طريق سهل لتحقيق الفهم المتبادل، لا توجد قائمة متفق عليها للحقائق التي تجمعنا وتوحدنا، يحتاج التفكير النقدي إلى طاقة عاطفية هائلة للتعامل مع كل هذا التعقيد. يحتاج أطفالك إلى معرفة أنه من المهم أخذ استراحات، لإيجاد حسهم الفكاهي، وللتسامر مع أشخاص مختلفين عنهم في هواياتهم، يمكنك أن تمثل لهم نموذجاً مفاده أنه ليس كل محادثة يجب أن تكون صراعاً من أجل تحقيق الاتفاق، لا بأس في عدم التوصل إلى نتيجة مُرضية للطرفين، لا بأس في مواصلة المناقشة في يوم آخر، يمكننا خلق مساحة للتركيز على ما هو ممتع ومريح مع أخذ وقت بعيداً عن العمل الشاق المتمثل في التقييم والتحليل. كما يقول الأخوان كاين: «أحياناً ما يمنع الفهم هو الإصرار على محاولة الفهم». لقد وجدت أن محادثات وسائل التواصل الاجتماعي حول الموضوعات الحساسة تكون أفضل عندما أُوطرَّ المناقشة على أنها بحثٌ عن مزيد من المعلومات ومزيد من التبصر ومزيد من الكشف عن سبب مشاركة الفرد في نتائج هذه الجدالات بدلاً من انتظار وصولنا إلى رؤية مشتركة. الفائدة هي فهم أفضل لما ينعش إعادة النظر في الآراء الشخصية.

يصفها دكتور بيتر إلبو، معلمي في الكتابة، بهذه الطريقة: «معظم حسابات التفكير الجيد هي نسخ مما أسميه لعبة الشك: القدرة على

رؤية العيوب في تفكير شخص ما، والتي تكون ذات قيمة خاصة عندما يكون من الصعب أن يرى هذه العيوب معظم الناس، عادة ما تستدعي هذه القدرة المنطق». يُسائل إلبو هذه الممارسة، حين تواجهنا أفكار تبدو خاطئة من النظرة الأولى، فإنه يقترح طريقة أفضل لتوليد التبصرات، هل يمكننا الضغط على زر الإيقاف المؤقت في رد فعلنا السريع لمحاربة الأخطاء في التفكير؟ بدلاً من ذلك يقترح أن ندخل ما يسميه لعبة التصديق:

«لعبة التصديق تعلمنا أن نفهم وجهات النظر من الداخل بدلاً من لغة الافتراض، فإنها تطلب كلمات تساعدنا على أن نجرب الفكرة في عقولنا، بلغة خيالية، مجازية، سردية، شخصية وحتى شعرية، وليس مجرد كلمات. الصور والأصوات وحركات الجسم مفيدة بخاصة في أثناء محاولة الدخول في الأفكار الغريبة، وأيضاً تمثيل الأدوار، ونعم، الصمت، عندما يقول شخص ما شيئاً يعتقد الآخرون أنه خطأ، فغالباً ما تكون الاستجابة الأكثر إنتاجية هي مجرد الاستماع. أجبر نفسك على عدم الرد على الإطلاق»، يتحكم الجانب العاطفي منا في كيفية صنع المعنى لأنفسنا، ومع ذلك فإن الأمر ينتهي بنا بالاعتماد على المنطق والحجة لإقناع الآخرين، إنه أمر غريب!

ومع ذلك، فقد اتضح أنه يمكننا المضي قدماً في المحادثة بطريقة أكثر فاعلية عندما نمنع أنفسنا من الرد، ونعطي أنفسنا الفرصة لتجربة توليد شخص آخر للمعنى بنفسه. كما اكتشفنا من قبل في نقاشنا حول التفكير النقدي، فإن قصصنا تشكّل طريقة تفكيرنا بعمق، لذا كلما

تبادلنا هذه القصص مع الآخرين، زاد تقديرنا لتعقيد الأفكار المتعارضة بدلاً من اختزال بعضها فقط في كونها تمثل «الشر». من خلال تعقيد الموضوعات يتبين لنا كيف أن من المفترض أن تأخذ الحلول الهادفة الجميع في عين الاعتبار.

أحياناً يكون أفضل ما يمكننا فعله هو الاعتراف بأن الموضوع شائك ومتعدد الأوجه ويستحق مزيداً من البحث والتفكير، كما كتب قاضي المحكمة العليا هاري بلاكمون، ببلاغة، رأيه في كيف علينا أن نفهم أي شيء مثير للجدل بعد استقطاب قرار ١٩٧٣ في قضية رو ضد وايد: «يتوقف الموضوع على: فلسفة المرء، وتجارب المرء، وتعرض المرء لما هو متطرف في الوجود البشري، والتدريب الديني للفرد، وموقف المرء تجاه الحياة والأسرة وقيمها، والمعايير التي يؤسسها المرء ويسعى إلى مراعاتها...»، لا عجب أننا نعاني من أجل تفكير معاً بطريقة جيدة!

إذن، التحدي الأكبر الذي نواجهه في تربية المفكرين الناقدين هو صنع غرفة للحوار بين الأطفال والبالغين مسموح فيها بالمعارضة. قد نجد صعوبة في الأمر عندما يبدأ الأطفال بالاستقلال لأنفسهم بطريق بعيد عن رؤيتنا الكونية ونظرتنا إلى العالم، ومع ذلك إذا اخترت أن تربّي أطفالاً يواجهون الأدلة الجديدة بشجاعة، ولا يشعرون بالخوف من طرح الأسئلة، ويُقدّمون على تحدي الوضع السائد، ويعلمون أن عليهم الذهاب أينما تأخذهم المعلومات، يمكنك التأكد من أنهم سيخضعون للمعتقدات التي تؤمن بها للاختبار في وقت ما. كيفية تعاملك مع تلك

اللحظة يعتمد إلى حدٍ كبيرٍ على مدى قربك منهم. في الحقيقة، ما يحتاج أطفالنا إلى معرفته هو أن هناك مجتمعاً معيناً لن يرفضهم لكونهم مفكرين ناقدين وملاحظين ومرنين؛ عائلتهم. وإذا لم يتمكنوا من العثور على هذا المجتمع الداعم في المنزل، بالتأكيد يجب أن يكونوا قادرين على العثور عليه في المدرسة.

يمكننا أن نطرح أسئلة جيدة تسمح لأطفالنا بتعريض أفكارهم لضوء الشمس، وللإطلاع على ما إذا كانت منطقية حين تُشرح لنا، يمكننا أن نقرب منهم بمحبة بدلاً من الشك، هذه هي الظروف التي تؤدي إلى التجارب والحميمية، في وسائل التواصل الاجتماعي، ومجموعات التقارب، والمجتمعات الدينية، والأصدقاء. ليس هناك ما يضمن أن أطفالنا سيُدعَمون ويُفهمون عندما يتعدون عن أيٍّ من الأكواد المقبولة لتلك المجموعة، ولكن إن كان في إمكانهم التأكد من أن هناك مكاناً واحداً يُرحَّب بهم فيه دائماً حتى حين تبعد آراؤهم عنك، وهذا المكان معك، فستمنحهم أقوى هدية فكرية وعاطفية يمكنهم الحصول عليها على الإطلاق، وهي الحرية، والحق في تغيير الرأي مع البقاء محبوباً ومقبولاً في نفس الوقت. جميعنا نشتاق إلى العلاقات التي تمنحنا تلك الهدايا.

لمساعدة أطفالنا على الثقة بقدرتهم على الصمود، يمكننا أن نؤكد لهم أنهم سينجون من أي مخاطرة ستحدث بسبب التغيير في التفكير لأننا مررنا بذلك قبلهم، يمكنهم أن يتأكدوا أن في إمكانهم تطوير أنفسهم بحرية لأنهم سوف يرونك، بينما تنتقل بين الفكرة والأخرى،

تتطور طوال الوقت. إحدى الطرائق التي يجب النظر بها إلى تربية المفكرين الناقدين هي تخيل أنك تعد أطفالك وطلابك للمرور بتجربة التغيير بشجاعة. الخوف يحبط التفكير الجيد. أن تُظهر ملاحظتك أنك لَمَّاح يعني أن تكون قادرًا على اكتشاف نقاط الضعف في أي حجة. لهذا فالمفكرون الناقدون الماهرون يسعون إلى الحصول على معلومات جديدة ولديهم الشجاعة الكافية للنظر فيها.

فكّر في أحد التغييرات في التفكير التي اخترتها لنفسك:

- هل يمكنك تحديد تكلفتها؟
- هل يمكنك تحديد مكسبها؟
- ما الذي تطلبه الأمر للتأقلم مع هذا التحول؟
- كيف تغلبت على التكاليف؟
- ماذا عن المكاسب التي دفعتك إلى الاعتقاد بأنها تستحق التكاليف؟

الدليل على أن أي شخص في الواقع مفكر ناقد، هو أنه غير رآيه بالفعل بخصوص وجهة نظرٍ ما كان يعتقد بها. كثيرًا ما يكلف هذا التغيير شيئًا. الانتماء إلى مجموعة، والطمأنينة بشأن الحياة الآخرة، وكيفية التصويت في الانتخابات، وطريقة تربية الأبناء، والزواج، والأطعمة المفضّلة، وكيف ينفق الشخص المال، واختيارات العلاج الطبي، والشعور بأنك على حق، وأيضًا ما نتخلى عنه، قد لا يكون مؤلّمًا بالضرورة، فربما يتخلى المفكر عن اعتقاده بالموت والكآبة لصالح

اعتقاده بالتفاؤل! وما كان يراه مخيفاً لم يَعدْ يستحق القلق الهوسي بشأنه؛ لا يهم كيف يغيّر كلُّ منّا تفكيره، لأن هناك عواقب في جميع الأحوال. نحن نغيّر فقط حين لم يَعدْ في وسعنا عدم رؤية ما أصبحنا نراه.

يحتاج أطفالنا إلى معرفة أن في إمكانهم النجاة من هجمات وتحديات متابعيهم على وسائل التواصل الاجتماعي إن غيروا معتقداتهم وآراءهم، يمكنك طمأنتهم بأنهم لن يخسروا إمكانية بناء حياة ذات معنى، حتى إن مرُّوا بتجربة رفض من أحد أفراد عائلتهم الممتدة، يمكنك مساعدة أبنائك على تعلُّم كيفية رسم الحدود وإيجاد دعم مجتمعي في نفس الوقت، يمكنك أن تُريهم كيف في استطاعتهم بناء حياة من النزاهة لا من التظاهر، وكيف هم يستحقون المحبة والاحترام، وذكّرهم بأن قيمتهم لا تتوقف على قبول الآخرين.

طلابنا في حاجة إلى الإيمان بأن في إمكانهم الاعتماد على الآباء والمدرسين الذين سيقفون بجانبهم، ولن يهجرهم، حتى إن وجدوا آراءهم محدودة وغير كاملة. اسمحوا لي أن أكون صريحة: لا يمكنك أن تكون المجتمع الذي يسحب من طفلك العضوية. سعي طفلك إلى الصديق الفكري يستحق منك أن تُقدِّره، أو أنه سيتعلم كيف يكون صاحب بروباجندا سعيًا للحصول على الاهتمام، أو أسوأ، سيحتفظ بأفكار مدمّرة مخفية عنك حتى تسمح له الفرصة بالخروج عن سيطرتك.

السياق المثالي للتفكير النقدي هو التواضع، يعرف أطفالنا الفرق بين البالغ الذي يقول: «هذا مثير للاهتمام، لماذا تعتقد بذلك؟»، وبين

الآخر الذي يقصد: «بحق السماء، كيف اختلقت تلك الفكرة؟». يتطلب الأمر ثقة بأن الطفل في إمكانه تبني أفكار جيدة وتطويرها. في كثير من الأحيان، نفترض أن أطفالنا سيعتقدون بأسوأ مجموعة ممكنة من الأفكار والمعتقدات. وفي بعض الأحيان، يحتاج الأطفال إلى تجربة الحياة بمعتقد قبل أن يقرروا ما إذا كان مناسباً لهم. عندما كان عمرك خمسة عشر أو اثنين وعشرين عاماً أو حتى خمسة وثلاثين عاماً، ماذا كانت نهاية تفكيرك؟ هل كنت قد وصلت إلى فهم نهائي للحياة وكل ما فيها؟ هل تتفق اليوم مع كل وجهة نظر قالها لك والداك حول المال والجنس والدين والحياة والسياسة؟ سيطور أطفالك رؤى خاصة بهم أيضاً تماماً كما فعلت أنت، الهدف من التفكير النقدي ليس اليقين، لكنه إنشاء علاقة حميمية، أتذكر؟ أفضل طريقة لمساعدة أطفالك على استخدام عقولهم في أهداف نبيلة هي تعليمهم مرونة الفكر والقلب التي تمكنهم من التفكير ثم التفكير مجدداً، ثم إعادة التفكير مرة أخرى ومراراً وتكراراً، نحتاج إلى مزيد من الناس ممن لديهم روح التساؤل، نحتاج إلى مجتمعات من الأفراد الذين لديهم الشجاعة الكافية لوضع التبصر كأولوية قبل إثبات أنهم على حق، يمكننا أن نبدأ من أنفسنا ومع أحبائنا.

شكر وتقدير

لقد تغذّى اهتمامي بالتفكير السليم على مدار حياة كاملة على يد عائلتي الذكية العنيدة الثرارة، الشكر لوالدي جون إي سويني (الذي عمل محامياً لستين عاماً)، هو من علّمني مبكراً كيف أفحص افتراضاتي، أحبك للغاية.

شكراً خاصاً لابني جايكوب، المحامي هو الآخر، الذي جاء خصيصاً من بانكوك، مبادراً للتحقق من أبحاثي ولإجراء التعديلات الأولى على الكتاب، يا للمتعة التي حظينا بها معاً!

شكراً عميقاً لخالتي الراحلة الدكتورة جون أوكونور، التي كانت راهبة في وقت ما ثم حصلت على الدكتوراه في الأخلاقيات والدين من جامعة كاليفورنيا، لقد كانت لي في حياتي نموذجاً لكيفية التمسك الواثق بالمواقف الأخلاقية مع إفساح مجال للحوار ولوجهات النظر المتباينة في نفس الوقت، إنني أفتقدها كل يوم وخصوصاً في الأيام التي كتبت فيها هذا الكتاب، وأحمل ذكراها في قلبي وأيضاً في عقلي.

زملاء مشروع «الكاتب الشجاع» قدموا لي دعماً كبيراً بتقديمهم نطاقاً واسعاً من المصادر والمحادثات العميقة التي أسهمت في بحثي، كل التقدير للزملاء: داون سميث، وكريستين ميريمان، وجين فالكونر،

وجين هولمان، وسيندي كلارك، وستيفاني إلمز. «أوعية تفكيرنا» جعلت مني مفكرة وكاتبة أفضل.

شكرًا خاصًا للصديق والزميل دكتور آدم كلارك من جامعة زافير، لمساهمته في الفصل الذي ناقش فكرة المواجهة، ولزميل التدوين منذ الأيام البكرة دكتور أندرو تاتسكو، لتبصراته حول العدالة غير السيمترية، ولدكتورة جولدي محمد على كرمها في المساعدة في أثناء البحث حول الهوية، وللزميلة والصديقة ريتا تشيفاتسو لما أعطتنا من خبرة في مجال معرفة القراءة والكتابة، ولصديقي ومرشدي في الكتابة دكتور بيتر إلبو لتبصراته الثرية حول «لعبة التصديق»، ولصديقتي القريبة والحكيمة ليزلي هيرشبيرجر (إخصائية الإنجرام واستشارية إدارة الأعمال) لمساعدتي على فهم قوة الاختلافات الفردية، ولمعلمة المدرسة والمتحدثة الخطابية آش براندين لخبرتها في مجال ألعاب الفيديو.

شكرًا عميقًا للدكتورة باربرا أوكلي، على محادثتنا الطويلة التي جعلت هذا الكتاب أفضل بكثير، شكرًا لقراءتك الحريصة لأعمالي، ولإيمانك بكتابتي، ولحماسك لأفكاري، ولمقدمتك الجميلة.

حديثي المبكر مع وكيلتي ريتا روزينكراز أعطاني وضوحًا في الاتجاه، وتبصرات ساعدتني في رسم بناء الكتاب، وتصديقًا على جهدي، أما محررتي جوانا نج فهي حلم! لقد عرضت عليّ تعديلات دقيقة وعميقة الرؤية، ومنحتني تشجيعًا احتجت إليه بشدة وقتها، وتحديات ذكية مكّنتني من القيام بأفضل ما عندي، شكرًا لكما، ريتا

وجوانا، لاختياركما مشاركتي، أعتبر نفسي أسعد الكاتبات لأنني حصلت على فرصة الاستفادة من موهبتيكما، دعونا نستمر في ذلك!

ملاحظة على الهامش: كثير من المصادر المتضمنة في هذا الكتاب جربناها أولاً في بيئة برنامج «الكتاب الشجاع» في فصولنا على الإنترنت، وجربتها العائلات التي تستخدم مناهجنا، تقديري ومحبي لهم جميعاً! شركتي المسماة «الكاتب الشجاع» تأسست في يناير عام ٢٠٠٠، وهي تخدم مجتمعاً عالمياً في مجال الكتابة والتعليم.

بعدما انتهى كل البحث وكل التفكير وكل الكتابة، أذهلني اكتشاف أنه حتى قبل طباعة النسخة فإن بعض الأفكار التي عبّرت عنها في هذا الكتاب قد انتقدتها وأعاد صياغتها قادة الحراك الفكري في مجتمعنا، تمكنت أنا وجوانا من إجراء تلك التعديلات في الدقيقة الأخيرة، لكن هذا يثبت أنه حتى لو قضيت وقتاً طويلاً في إنتاج دراسة حول التفكير السليم، فإن حتى أفكارك عن التفكير قد تظل قابلة للمراجعة طوال الوقت.

أنا ممتنة بعمقٍ لعالم الأشخاص الذين يفكرون بحرصٍ في أثر اللغة وكيفية تشكيلها لخيالنا، لن ينتهي العمل أبداً ولن تنتهي الرحلة أبداً، لكن كل مشهد يساعدنا على رؤية شيء جديد، شيء ربما فاتنا، أليس هذا هو عمل التفكير النقدي في النهاية؟ إنه فن إيجاد اتجاهك على طريقٍ سريعٍ وهو لا يزال تحت الإنشاء، أنا ممتنة لجميع زملائي المفكرين الذين هم على استعدادٍ لتغيير التوجهات وتغيير الاتجاهات حسب الحاجة، لاستحضار مزيد من النور والتفاؤل بإمكانية الحياة

بين بعضهم وبعض، إن كان هذا ينطبق عليك، فأنا أشكرك أنت أيضًا على ما تقدّمه للوليمة على طاولتنا المشتركة، «نحن واحد، لكننا لسنا متماثلين»، فرقة بونو فهمت الأمر جيدًا.

عن المؤلفة: جولي بوجارت منشئة البرنامج الإبداعي الذي حاز عدة جوائز؛ «المتعلم الشجاع»، ومُعَلِّمة فنون الكتابة واللغة لآلاف العائلات سنوياً، علّمت أطفالها الخمسة في المنزل مدة سبعة عشر عاماً، وهي مؤسسة مشروع «منزل المتعلم الشجاع» الذي يدعم آلاف الآباء بالإعداد والتدريب، عملت أيضاً أستاذة مساعداً في علم اللاهوت في جامعة كزافيه. وهي مؤلفة كتاب «المتعلم الشجاع».

